الخطابة

نشأتها وميادينها

«كيف تكون خطيبًا مفوهًا، وبرلمانيًا ناجحًا»

تأليف

أستاذ دكتور / **محمود محمد رسلان**

أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين - المنصورة - سابقًا

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع / ١٥٨٦٠ / ٢٠٠١

ترقيم دولي I.S.B.N977 - 224 - 127 - 7

لدار التقوى للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وجعله تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الذي آتاه الله جوامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار.

وبعد :

فإن علم الخطابة من العلوم الجديرة بالبحث والدراسة، لصلته المباشرة بالناس، ولما كانت نفوس المخاطبين متباينة، ومجادلة، أو منصرفة عن طريق الجادة، كان لزامًا على من يتصدى لوعظ الناس وهدايتهم إلى الله أن يتذرع بالصبر الجميل، والتحمل لما يلاقيه من صد، أو تثريب.

وفي هذا البحث حرصت على إعطاء لمحة عن نشأة الخطابة وتطورها، وميادينها وكيف ينجح مريد الخطابة؟ فالمدار هنا على الخطيب، وما يقدمه، فهو مرشد الناس ومعلمهم، ومن ثم كان لزامًا عليه أن يتصف بصفات ثلاث ـ كما يقول الشيخ يوسف الدجوي رحمه الله ـ وهي :

أ ـ أن يكون من العلماء بالله وبدينه.

ب ـ وأن يكون عارفًا بزمانه.

جـ ـ وأن يكون ذا بيان قوي إن قال أو كتب، فإنه إن كان عالمًا بالله عز وجل، كان من أهل الخشية له سبحانه، ومعروف أن الخشية تلزم الجادة، وما أحلى خطيب القوم إذا كان مستقيمًا، فإنه يكون داعيًا إلى الله بحاله ومقاله، وإذا كان عالمًا بدين ربه عرف كيف يقود الناس إلى ما يرضي ربهم ينبو به علمه أن يدعو عباد الله إلى معصية يزعم أنها طاعة، أو ينفرهم عن طاعة يظن أنها معصية، وما أجل الخطيب إذا رقي المنبر، ولم يسمع الناس منه إلا الحق الصراح.

أما علمه بزمانه فبه يكون مع الناس كالطبيب الماهر يعرف من مريضه الداء فيصف له الدواء المناسب، فيوشك أن يصبح وقد زايله المرض وعاودته الصحة . . فإذا لم يعرف الخطيب ما عليه الناس، كان في جهة، والناس في جهة أخرى . فكيف ينفعهم.؟

أما قوة البيان فبه روح الخطابة وقوامها . . فإذا كان الخطيب عالمًا بالله وبدينه، ملمًا بأحوال زمانه، ولكنه ألكن اللسان تمتام[1] . . .

---

(1) راجع العيوب البيانية ص ٤٧ من هذا البحث .

كان لا قيمة لعلمه فوق المنبر . فإن لسانه كالجواد الشموس الذي تدفعه للأمام فيرجع للوراء، ومثله لا ينفع الناس، وإنما هو ممثل بارع يمثل فصول العجمة والعيِّ كل أسبوع على منبره، ويدع سامعيه بعضهم في خجل له، وبعضهم في ضحك عليه.

أما العالم البصير إن كان قوي البيان، واستوى على أعواد منبره فهو حلية من حلى الدنيا، وزينة من زينة الوجود، وروضة للأبصار تتمتع بالنظر إليها، ولذة للأسماع تطرب بسماعها، وغذاء بالغ النفع للأرواح تتغذى به كيف لا وهو إذا نطق كان كالبحر ينثر اللآلىء والجواهر على من حوله، فلا يسعهم إلا التسابق إلى التقاط ما ينثر، يتدفق تدفقًا ويسيل سيلاً لا يهجم على رذيلة إلا قضى عليها. . . ، ولا يعطف على فضيلة إلا أنعشها وأحياها، وجعل قلوب السامعين تكاد تطير فرحًا من شوق إليها، وما أجدر خطباء المسلمين أن يكونوا هكذا[1] . .

والهدف الذي أرمي إليه هنا، هو إبراز أهمية الخطيب ودوره ،وكيف يحرك أسماع الجماهير نحو الغاية التي ينشدها، والاستفادة الحقة من الخطبة، على اختلاف فنونها ومناسبتها، وكيف يستولي على مجامع العقول والقلوب، إذ من المعلوم أن خطباء الدعوة الإسلامية اليوم طرف في الصراع الحديث من أجل البقاء والدفاع عن الحق الذي تحاول بعض الدوائر الخبيثة طمس معالمه، فعلى الخطباء أن يتسلحوا بكل ما يقدرون عليه من ألوان المعرفة الحقة، والأدلة اليقينية لإقناع الناس، ودعوتهم إلى الله خالقهم، فهم الحماة عن بيضة الإسلام اليوم، والصاعقة الماحقة لآثار الإلحاد والملحدين، والفسدة والمفسدين في الأرض . **﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾** [2].

والله أسأل أن يوفقنا لخير العمل، وعمل الخير إنه أكرم مسؤول وخير مأمول. كما أسأله جل في علاه أن يجعل هذا العمل في موازين حسناتي، وأن يغفر لي ولوالدي إنه هو الغفور الرحيم،

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أستاذ دكتور / محمود محمد رسلان

---

(١) راجع للشيخ مصطفى أبي سيف الحمامي منتهى آمال الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء. المقدمة . ط الحلبي ١٣٥١ هـ القاهرة .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

المراحل التي مرت بها الخطابة

الخطابة علم له أصوله وقوانـينه من استطاع الأخذ بها، والفهم لهـا والسير على منهجها عد خطيبًا، ومن تركها ضاع في أفكـار شتى تخرجه عن كونه خطيبا ولقد مرت الخطابة بمراحل مختلفة حتى أصـبحت مادة خصبة تناولها الباحثون بالتـأليف والتقعيد، كما جعلت مادة درس في دور العبادة، ومدارس العلم وكلياته.

مراحل الخطابة :

تتلخص هذه المراحل فيما يلي :

(١) نشـأت الخطابة في وقت مـبكر جـدًا، لا يسـتطيع الإنسـان تحـديده، لأن الإنسان مدني بطبعه يحتاج إلى بني جنسه ومن ثم فقد احتاج إلى استخدام اللغة، لأنها الوسيلة التي يتفاهم بها الأفراد فيمـا بينهم، ويعبرون بها عن أغراضهم؛ ويصورون بها انفعالاتهم.

وباختصار هي : الأداة التي استخـدمها الإنسان في الماضي، ولن يزال هذا الأمر أبدًا - مستقبلاً - في التعبير عما يجيش في صدره ويختلج في نفسه من رغبات وأغراض وآراء، فكان الفرد من بني الإنسان يلقى من الأفراد الآخرين في بعض الأحيان معارضة فيـما يريـد أو يطلب أو يدين به أو يعتـقده، الأمـر الذي دفع ذا الحاجـة أو الفكرة أن يحاول جـهده إقناع صاحـبه حتـى يحقق غرضـه ويبلغ ما يريد. بهـذا ظهرت الخطابة ولكنها كـانت في أول أمرها ككل شيء مستـحدث بدائية بحـيث لم تخرج عن الكلام المألوف لدي الجميع، كما اعتقد أنهـا كانت مقدورة أيضًا للجميع، فالكل يحاول إقناع غيره بفكرته أيًا كان نوعها وبلغة أيا كـان لفظها، ثم تطورت حتى أصبحت أمرًا خاصًا بذوي المواهب والثقافات بل صارت أصعب من ذلك وأعمق.

(٢) في القرن الخـامس قبل الميلاد جـاء السوفسطائـيون، فجعلـوا منها علمًا له أصوله وقواعـده، فكان كثير منهم يتنقلون في بلاد الإغريق يـعلمون هذا العلم الجديد للفتـيان والشباب، وكـان في مقدمتـهم الزعيمان السـوفسطائيان (جرجـياس، وبروتاغوراس[١] . .).

(١) راجع : لعلي صافي حسين: الحجاج حياته وخطابته ص ٥ وما بعدها باختصار وتصرف..

(٣) أول من كتب في علم الخطابة هم اليونان، فاستنبطوا قواعده، وشيدوا أركانه، وأقاموا بنيانه، ويرجع السبب في هذا :

إلى أن أهل أثينا في عصر (بيركليس) قويت فيهم رغبة القول، واشتدت فيهم داعيته إذ صار يأسرهم : القول البليغ دون سواه.

قال المسيوشارل سنيوبوس: امتازت أثينا أولا ببلاغة خطبائها، فأصبح للخطيب مكان مرموق في مجلس الأمة، وما يترتب على قوانين هذا المجلس من أهمية وتأثير، كذلك ظهرت مكانة الخطباء في المحاكم ودفاعهم عن الوطنيين والرعايا، ومن ثم أصبح للخطباء السلطة، فكانت الأمة تعمل بنصائحهم وإرشاداتهم، حتى عهدت إلى بعضهم بمناصب عليا، فقد عينت (كليون) الخطيب قائدًا، ورَأَسَ (ديموستين) الخطيب حرب الملك فيليب، وباختصار كان للخطباء نفوذ كبير، خاصة على نجاح الأحزاب ووصولهم إلى مجلس الأمة، كما كانوا يألفون الخطب لتلقى في مجالس القضاء دفاعًا عن متهم بريء أو مظلوم.

(٤) كان بعض الخطباء يزورون البلاد اليونانية، ويتكلمون في موضوعات توحيها إليهم المخيلة، فتحتفل لذلك المحافل وتعقد الأندية، وتقام المؤتمرات ابتهاجًا لهذا الخطيب أو ذاك.

(٥) نالت الخطابة في عهد اليونان مكانتها وأصبح الخطباء يشار إليهم بالبنان فكان لابد للناس أن ترنوا أبصارهم إلى هذا المجال الهام فكان من لا يستطيع فنون القول يحاول أن يتعلم، فاتجه كثير من الناس إلى تعلم الخطابة، والدربة عليها والتمرين على الإلقاء، وتعويد اللسان النطق الصحيح والبيان الفصيح، لذلك أخذ العلماء يستنبطون قواعد الخطابة وقوانينها بملاحظة الخطباء وطرق تأثيرهم، وأسباب فشل من يفشل منهم.

(٦) اتجه السوفسطائيون ـ كما سبق ـ إلى استنباط القواعد، كما اتجهوا إلى تعليم الشباب في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي، وكيف يلبسون عليهم الحقائق؟ ويمرنونهم على القول المبين والإلقاء المحكم، وطبيعي أن يتجه من نَصّبوا أنفسهم لذلك استنباط قواعد وقوانين من أخذ بها أمن العثار.

واضعوا علم الخطابة :

إن أول من وضع قواعد علم الخطابة ثلاثة من السوفسطائيين هم :

(أ) پرويكوس القوسي :

كان يأخذ أجرًا باهظًا في تعليم الخطابة، ثم أنفق كل ما جمع على الملذات والشهوات، وحكم عليه بالإعدام سنة ٤٣٠ ق. م لأنه قال: إن الآلهة من مخترعات العقول.

(ب) بروتاغوراس :

كان ذا ثراء عريض من الأجور التي كان يتقاضاها من الخطابة وكان يقول: لا أستطيع أن أعرف أتوجد آلهة أم لا ولد في سنة ٤٨٥ ق. م وتوفي سنة ٤١١ ق. م .

(جـ) جورجياس :

فتح مدرسة تعلم فيها الخطابة فأثرى واشتهر ،وكان يقول: لا يوجد شيء وأن وجد لا يمكن معرفته،وإذا أمكنت معرفته لا يمكن تعريفه. ولد في سنة ٤٨٥ق.م توفي سنة ٣٨٠ ق. م . .

مما تقدم تعرف مكانة الخطابة وما الذي كانت تدره على أصحابها من أموال وما تضيفه عليهم من شهرة ومجد.

بعد هؤلاء جاء أرسطو فجمع قواعد علم الخطابة، وضم شوارده في كتاب أسماه الخطابة، كان أصلاً لذلك العلم، ومرجعًا يرجع الخطباء والمؤلفون في الخطابة إليه، وصدرًا يصدرون عنه، ويردون موارده.

(٧) ثم جاء الرومان فنشطت الخطابة عندهم نشاطها عند اليونان وكان هذا بعد أرسطو، قال المسيو شارل السابق: كان الخطباء يأتون إلى ساحات الاجتماع، حيث تلتئم مجالس الأمة في أواخر عهد الجمهورية. يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم، وكان شيشرون أعظم أولئك الخطباء، هو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه.

(٨)كثرت المدارس في عهد الامبراطورية الرومانية فكانت تقبل الشبان الأغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم إليها، ليتعلموا الخطابة، حتى كثر الخطباء، فأخذوا في تعليم

الناس طريقة الأداء، وكـان البعض يمرن التلاميـذ على إنشاء المرافعات في مـوضوعات خيالية في الخطابة، وقد تولد عن هذا النشاط مـؤلفات في علم الخطابة لشيشرون، كما ألف كونتليـان (٤٢ ـ ٩٥م) كتابًا سمـاه : تهذيب الخطيب، وألف لنجينوس الحـمصي (٢٤٠ ـ ٢٧٣م) كتابًا سماه المفلق[١] .

الخطابة عند العرب :

وصلت الخطابة عند العـرب خاصة في صدر الإسـلام إلى الذروة ونالت المكانة المرموقة بفضل الـقرآن الكريم والسنة الشريفة، وجاء العصـر الأموي، فوجدت الخطابة لها غذاء من الفتن والثورات التي أظلت ذلك العصر، وأخـذ الفتيان، والكهول يتبارون في الخطابة، ويتـسابقون في مـيادينهـا، وكان مكان ذلك الوفـادة، ومجالـس الخلفاء، والأمراء والولاة. وقـد نشأ من هذا أن وجـد أناس يعلمون الشبـاب الخطابة ويمرنونهم عليـهـا[٢] ، حتى إذا جاء العـصر العباسي الأول عصـر النور والضياء والعلم والأدب، نشطت فيـه الترجـمة، واتسع النقل إلى العـربيةمن لغـات الأمم ذات الحظ الأوفر من الحضارة والمدنيـة، كالفرس واليونان يدل علـى ذلك ما رواه الجاحظ[٣] عن بشـــر بن المعتمر قال: مر بشـر بن المعتمر على إبراهيم بن جبلة السكوني الخطيب[٤] وهو يعـلـم فتيانه الخطابة، وإبراهيم خطيب كبير استمع إليه بشر أولاً، ثم قال للفتيان: اضربوا عما قال صفحًا، ثم دفع إليهم بصحيفة من تنميقه كان فيها:

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفـراغ بالك وإجابتها إياك، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسـبًا، وأحسن في الاستماع، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين[٥] من لفظ شريف ومعنى بديع.

واعلم أن ذلك أجـــدى عليك مما يعـطيك يومك الأطول بالكـر والمطاولة،

---

(١) راجع للشيخ محمد أبي زهرة : الخطابة ص ١٢ وما بعدها بتصرف واختصار .
(٢) المرجع نفسه.
(٣) البيان والتبيين ـ.
(٤) إبراهيم بن جبـلة هذا كان من أصحـاب عبد الملك بن مـروان، وعَمّر إلى خلافـة المنصور، ومن ذلك تعرف أن ابتداء استنباط قواعد الخطابة كان في آخـر العصر الأموي. راجع للدكتـور عبد الجليل شلبي رحمه الله تعالى : الخطابة وإعداد الخطيب.
(٥) العين من الناس والأشياء : الشريف الرفيع .

والمجاهدة بالتكلف، والمعاودة، ومهما أخطاك[١] لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصدًا وخفيفًا على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ[٢] معنى كريمًا فيلتمس له لفظًا كريمًا فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما، ويهجنهما، وعما تعود من أجله إلى أن يكون أسوأ حالاً من قبل أن تلتمس إظهارهما وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما فكن في ثلاثة منازل:

فأول ذلك أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، أو فخمًا سهلاً، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إما عند الخاصة و أن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت.

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغتي لفظك ولطف مدخلك وقدرتك في نفسك . . أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفوا عن الأكفاء فأنت البليغ التام.

فقال له إبراهيم : أنا أحوج إلي تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة[٣].

مما سبق تجد الدليل القوي الواضح على أن العرب عرفوا الخطابة واتخذوها صناعة وكان لها مؤدبون يروضون الناشئة والفتيان على الخطابة، ويعلمونهم كيف يخطبون، أعني أنهم كانوا يرسمون الطرق والأساليب، ويصفون المناهج والأصول التي ينبغي أن يتمثلها الخطباء، والتي ينبغي أن تكون الخطب على مقتضاها،

---

(١) مهما يغب عنك من المعاني والتعبيرات فإنك لن تخطئ هذه الأشياء.

(٢) أراغ وارتاغ : طلب وأراد .

(٣) راجع الخطابة وإعداد الخطيب ص ٤٠ وما بعدها .

ومنوالها وهي أصول وقواعد مرنة فيها حيوية، ولها قابلية التطور، والنماء، كما تشعر بذلك أو تعطيه صحيفة بشر بن المعتمر، هذا على أن من يقرأ كتاب الخطابة لأرسطو يجد فيه الكلام على الحد [١] والرسم [٢] والدليل وكيف يتكون القياس [٣] الخطابي، ثم يرى فيه الكلام على التصريف الذي يكتفي به في الخطابة.

الفرق بين الخطابة عند العرب وغيرهم:

عند العرب أقدم من الناحية الفنية والحيوية، وشديدة الصلة بالأدب، وأقرب إلى الحس والوجدان أما عند فيلسوف اليونان أرسطوطاليس فإنها قريبة من الجفاف العلمي وعناء الفلسفة، كما أنها بعيدة عن حيوية العاطفة ومرونة الشعور.

أي أن الخطابة عند أرسطو: علم بحت، بل هي جزء من المنطق الذي مداره على الحق والبرهان لا على الشعور والوجدان.

الخطابة عند أرسطو ليست أدبًا، ولا قريبة منه، بل هي علم له قواعده وأصوله. الخطابة في طبيعتها الفنية لون من ألوان الأدب الرفيع الراقي حتى أن ابن سينا استشعر ذلك حيث قال في كتابه (الشفاء) يبرر صنيع أرسطو، أو غيره من الحكماء قال: «إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقينًا فهو البرهان، وإن أوقع ظنًا، أو محمولاً على الصدق فهو الخطابة.

الإقناع المنطقي يختلف كل الاختلاف عن الإقناع الخطابي ،إذ بينما يعتمد المنطق أو العلم في الإقناع على الأدلة العقلية والبراهين المادية، نجد الخطابة تعتمد في إقناعها وبلوغ غايتها على إثارة الشعور وتحريك الوجدان في نفوس السامعين، وقلوب المخاطبين.

الفرق بين المنطق والخطابة: هو الفرق بين الفعل والعاطفة، فالفعل شيء قائم بذاته له وجوده المستقل، والعاطفة كذلك بيد أنها تغايره في وجودها، وتختلف عنه في

---

(١) الحد عند المناطقة : هو القول الدال علي ماهية الشيء، وحقيقته.

(٢) الرسم عند المناطقة : هو تعريف الشيء بخصائصه.

(٣) القياس : قول مركب من قضيتين، أو أكثر، متى سلم لزم عنه لذاته قول آخر كما إذا قلنا : كل ذي أذن من الحيوان يلد، والسلحفاة ذات أذن فإن هذا يستلزم القول بأن السلحفاة تلد.

جـوهرها، لذلك فـإن الخـطابة التي هي في الأرجح تنسـاب مـن الإرادة وتنصب في الشعور، ومن ثم فهي تختلف عن المنطق الذي مصدره العقل [١].

* * *

رب العزة تبارك وتعالى يثني عليه رسول الله ﷺ

أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال: لما كان يوم أحد، وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ:

«استووا حتى أثني على ربي عز وجل»

فصاروا صفوفًا فقال ﷺ:

«اللهم لك الحمد كله.

اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا فضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الـذي لا يحول ولا يزول، اللهم أسألك النعيم يوم العَيْلة والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا.

اللهم حـبب إلينا الإيمنا وزينهُ في قلوبنا وكره إلينـا الكفر والفسـوق والعصـيان واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم قاتل الكـفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سـبيلك، واجـعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أتوا الكتاب إله الحق» [٢].

---

(١) انظر الحجاج : حياته وخطابته ص ٦ وما بعدها بتصرف واختصار .

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي جـ ٤ ص ٢١٠ ط الحلبي

صحيفة الهند في البلاغة

دأب العرب ـ خاصة ـ في عصر النهضة علي سؤال الهند والفرس، وغيرهم من الأمم ذات الحضارة عما هي البلاغـة لديهم وكل يجيب بما لديه، ولما اجتلب يحيى بن خالد البرمكي عـددًا من أطباء الهند، وكان بينهم بهلة الهندي سأله معـمر أبو الأشعث عن البلاغة عند الهنـد فقال: عندنا في ذلك صحيـفة مكتوبة لا أحسن ترجمـتها، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفـسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف مـعانيها فلما ترجمت هذه الصحيفة وجد فيها:

«أول البلاغـة اجتمـاع آلة البلاغ ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجـأش ساكن الجوارح قليل اللحظ، مـتخير اللفـظ، لا يكلم سيد الأمة، ولا الملوك بكلام السـوقة، ويكون في قوله فضل التصرف في كل طبـقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصـفيها كل التصـفية، ولا يهذبها غاية التـهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما.

ومن قد تعود [١] حذف فضول الكلام واسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق علي جهة الصناعة والمبالغة لا علي جهة الاعتراض والتصفح، وعلي وجه الاستظراف والتظرف قال:

واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحـال وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصـرا ولا مشتركا ولا مضمنا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه موفقـا، ولهول تلك المقامات معاودا، ومـدار الأمر على إفهام كل قوم بمقـدار طاقتهم والحمل علي أقـدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصـرف معه أداته ويكون في التهـمة لنفسه مـعتدلا وفي جميع الظن مـقتصدا، فإنه إن تجـاوز مقدار الحق في التهمـة لنفسه ظلمهـا فأودعها ذلة المظلومين وأن تجـاوز الحق مقدار حـسن الظن بها، آمنها فأودعـها تهاون الآمنين، ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل» [٢].

---

(١) وحتى يصادف من تعود ذلك.

(٢) البيان والتبيين: ٢ / ٩٢، والخطابة وأعداد الخطيب ص ٤١ وما بعدها.

وفي هذا دليل على استعانة العرب بالآداب الأجنبية واقتباسهم منها.

استمر العرب في بحوثهم في علم الخطابة حتى جعلوا لها أصولا نمت وكثرت، فكان للمعتزلة رصيد كبير في هذا المجال ليتغلبوا على خصومهم في المناظرات، وقد نبغ فيهم خطباء كثيرون مثل:

عمرو بن عبيد، بشر بن المعتمر، وثمامة بن الأشرس، وإبراهيم النظام والجاحظ، وغيرهم.

غير أن بحوث هؤلاء الأدباء لم تجمع في كتاب مستقل بل كانت نثرا في الكتب وعلوم اللغة، ولم تدون في كتاب مستقل لتكون علما قائما بذاته، حتى ترجم اسحاق ابن حنين كتاب الخطابة لأرسطو، وشرحه الفارابي، وقد عد من المنطق كما سبق وبنقل كتاب الخطابة لأرسطو صار في العربية قواعد مدونة في بحث مستقل، وأن كان جزءا من علم المنطق كما [1] سبق.

نقد كتاب الخطابة لأرسطو:

أولا: إن ترجمة هذا الكتاب جاء في وقت ركدت فيه الخطابة وخمدت، وأصبحت مقصورة على الوعظ، وأصبح الخطباء يحفظونها، ويلقونها بالتوارث، ومن ثم لم تستفد الخطابة من تلك الترجمة، وبقيت الخطابة جسما بلا روح.

ثانيا: كان هذا الكتاب جزءًا من الفلسفة ولم يضف إلى الأدب شيئا وإن كان الأدباء قد قبسوا منه، مع أنه لم يخرج بقواعده عن نطاق الفلسفة، فتناوله الأدباء بالنقد والتقريظ، حتى أن الفلسفة من بعد ابن سينا، وابن رشد أخذت تهجر كتاب الخطابة، وانفصل عنه المنطق وكاد أمره ينتهي لولا أن سجل خلاصته ابن سينا في كتاب الشفاء.

ثالثا: علم الخطابة مترجم باستشهادات من الأدب العربي، والسبب أنه لم يخرج عن نطاق الفلسفة، ولو طعم بالأدب العربي، والذوق الفني الخطابي للبس حلة قشيبة، وناله التأييد والنجاح [2] والذيوع.

---

(١) الخطابة: للشيخ محمد أبي زهرة.

(٢) الخطابة بتصرف واختصار.

متى استيقظت الخطابة؟

في العصور الحديثة، حتى عظم أمرها، وصارت سبيلا من سبل المجد، وطريقا من طرق الغلبة والسبق في ميادين السياسة، والمجالس النيابية، ودور القضاء وخرج المقبور من طي النسيان إلى الوجود، من آراء العلماء حتى ظهر ذلك في كتاب علم الخطابة للعالم الباحث (لويس شيخو) فقد جمع في هذا الكتاب خلاصة ما كتبه أدباء العرب، وفلاسفتهم، وما ترجم إلى اللغة العربية من قوانين الخطابة، وقواعدها، ومع هذا لم يخل هذا الكتاب من الجفاف لتعلق المنطق ببحوثه، فكان بعيد التناول، لكنه على أي حال نقّب عما كتب السابقون، وسجل آثارهم ونقولهم[١] .

ثم تعددت البحوث حول علم الخطابة، فمنهم من كتب في مخارج الحروف، ومنهم من كتب في الالقاء، ومنهم من كتب في أساليب الخطابة، ولكل فضل فيما كتب، وكان بذلك فاتحة خير على علم الخطابة وأهميته ومكانته، بين القديم والحديث، كما ظهرت مبادئه بجلاء ووضوح.

أهمية الخطابة:

ليست الخطابة وليدة اليوم، ولا الأمس، ولكنها ضاربة في أعماق الزمن، وممتدة في غياهب التاريخ فمنذ فجر التاريخ كانت الخطابة تجري على ألسنة المخاطبين من بني آدم وفق سنن الفطرة التي فطر الله عليها[٢] .

الدليل: قول الله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ الرحمن ١ ـ٤ .

فالتخاطب والتفاهم من أهم خصائص بني الإنسان، ولقد كانت للخطابة المنزلة السامية والمكانة الرفيعة حينما أجراها الله عز شأنه على ألسنة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام .

الدليل: قوله سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ إبراهيم: ٤ .

الخطابة: «سلاح من أسلحة الدعوة يحق الله به الحق ويبطل الباطل، وعندما يكثر المبطلون في الأرض، ويظهر شرهم في البر والبحر، فإن الخطيب واحد من الذين

(١- ٢) المرجع السابق.

يتصدون لهذا الشر كسرا لشوكته مع رفاق السلاح على طريق الحق»[١] .

وكفى بالخطابة شرفا أنها وظيفة الأنبياء والمرسلين، والتابعين من الدعاة والمصلحين، وهدفها سعادة المدعوين في الدنيا والآخرة، كما أن من مكانة الخطابة أنها تتعلق بأشرف أجزاء الإنسان: نفسه وروحه، عقله وضميره[٢] .

«فالخطابة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويثب من فكر إلى فكر، وينتقل من الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر، وذلك هو السر في أن نبي الإسلام كان يخطب كل أسبوع، وكل عيد، ويخطب أو ينيب عنه أميرا يخطب في وفود الحجيج عند جبل الرحمة»[٣] .

وفي الحديث «... وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا» هذه العبارة جزء من حديث شريف أخرجه الإمام أحمد بسنده عن الحارث الأشعري: وهذه العبارة الشريفة دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لاشريك له وقد استدل بها كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع الأعلى، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها، ووضعها في مواضع النفع بها محكمة على قدرة خالقها وحكمته وعلمه، وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟[٤] .

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن الدليل على وجود الله تبارك وتعالى فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن الأمام أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى. فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه:

---

(١) انظر: أ.د/ محمد عبد العزيز داود: التهذيب في فقه الخطبة والخطيب صـ١٠ .

(٢) أ. د محمود عمارة: الخطابة بين النظرية والتطبيق صـ ٤٢ ط الاولى: ١٤١٨ هـ.

(٣) انظر: أ . د مصطفى أحمد أبو سمك: المدخل لدراسة الخطابة وطرق التبليغ صـ ١٩ .

(٤) الشيخ محمد الغزالي: مع الله دراسات في الدعوة والدعاة صـ ٢٧١ .

ذكروا أن سفينة في البحر موقرة ـ محملة ـ فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها، ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجُودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

وعن الإمام الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم ـ الحرير ـ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك وهو شيء واحد [١].

وعن الإمام أحمد أنه سئل عن ذلك فقال: هاهنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة وباطنه كالذهب الإبريز فبينا هو كذلك إذا انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعني ذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة الصغيرة [٢].

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد قائلا:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك [٣].

وقال ابن المعتز:

فياعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد [٤].

(١) تفسير الإمام بن كثير جـ١ صـ ٥٨ ط الحلبي بدون.
(٢) تفسير الإمام بن كثير ١ / ٥٨، ٥٩ .
(٣) المرجع السابق صـ ٥٩ .
(٤) المرجع نفسه.

وذهب آخرون إلى القول: بأن من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارات ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها (١) كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ فاطر: ٢٨،٢٧ .

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة، والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت وإليه أنيب .

هذه النماذج تفيد الخطيب كثيرا، حينما يذكرها للمدعوين فيقتنع المتعلم، ويطمئن المؤمن، ويتثبت المرتاب. وهي أدلة استخدمها العلماء قبله للفائدة المرجوة من ورائها.

---

(١) المرجع نفسه.

علم الخطابة

تعريفه ـ موضوعه ـ فائدته ـ تحصيله.

مقدمة:

تعد الخطابة لونا من ألوان الأدب الراقي تؤدي إلى الناس في ثوب قشيب، وأكثرها شهرة الخطب الدينية، لأنها تعرف الناس بخالقهم سبحانه وتعالى، وأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وإخبارهم بالغيبيات أو السمعيات، كما جاء في علم التوحيد، كما تعلمهم أوامر الإسلام ونواهيه، وتقربهم إلى الله وتبعدهم عن الشيطان الرجيم يقوم بهذا كله خطيب آلى على نفسه أن يكون معلما بالكلمة، وبالسلوك، ومن ثم فإن علم الخطابة تعددت تعاريفه وتشعبت.

أما الخطابة لغة: فهي مصدر خطب يخطب من باب (قتل) يتعدي بنفسه وبحرف الجر، وفي المصباح[١] يقال في الموعظة: خطب القوم، وألقى عليهم خطبة بالضم وهي فعلة بمعنى مفعولة، وجمعها خطب كغرفة وغرف، فهو خطيب، والجمع خطباء وخطيب القوم: هو المتكلم عنهم، أما خطبة بالكسر فهي طلب المرأة للزواج، والرجل خاطب، وخطاب مبالغة فيه:

والخطيب: الحسن الخطبة، ومن يقوم بالخطبة في المسجد وغيره.

والخطبة: الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعا من الناس لإقناعهم، والجمع خطب[٢] .

وقد وضع العلماء تعريفات متعددة للخطابة نسوق إليك بعضا منها:

التعريف الأول:

هي صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم.

فهذا التعريف يفيد أن هدف الخطابة التي تقصده هو التأثير في نفس السامع كما

---

(١) المصباح المنير مادة: خطب وراجع للدكتور أحمد غلوش: قواعد الخطابة: ص٧ .

(٢) المعجم الوسيط: مادة خطب.

أنها ترمي إلى مخاطبة وجدان السامع، واثارة احساسه للأمر الذي يراد منه، فيقبل الحكم، ويسلم به طواعية واقتناع.

قال ابن سينا: إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق، فإن وقع التصديق يقينا فهو البرهان، وأن وقع الظن، أو محمولا على الصدق فهو الخطابة أي الخطبة، والمراد من المحمول على الصدق: ما يقبله الانسان لصدوره عمن عرف بالصدق.

أما الشعر فلا يوقع تصديقا، لكنه لإفادة التخييل الجاري مجرى التصديق ومن حيث إنه يؤثر في النفس قبضا وبسطا عد في الموصول إلى التصديق، والتخيل عنده اذعان للتعجب، والالتذاذ تفعله صورة الكلام.

مما سبق يتضح أن ابن سينا يضع المنطق، والخطابة والشعر، في ثلاثة عناصر: فالأول: يتجه إلى اليقين، والثاني: إلى الأقيسة الظنية، أما الثالث فهو الشعر وهو يتجه إلى إثاره الخيال والاعجاب، والالتذاذ بصورة الكلام، وابن سينا لم يكن موفقا وهو يصف الخطابة بأنها لا تعتمد إلا على الظن، كيف؟ مع العلم بأنها تعتمد على أقوى الأدلة الزاما، وأشدها قطعا في الاستدلال، وأبلغ الخطب ما جملت حقائقها بأقيسة المنطق وبراهينه، إذ يجتمع فيها دقة المنطق بجمال الاسلوب.

فالخطابة في الحقيقة قد تستمد قوتها من العناصر الثلاثة السابقة التي تمدها بالحياة، فقد يعمد الخطيب إلى المنطق وأقيسته اليقينية، ويقتصر على ذلك اذا كان يخاطب أقواما قد غلب على حياتهم الفكر والعقل، ولا يرضيهم إلا الحقائق عارية، وقد يعمد الخطيب إلى الظنيات وأقوال من عرفوا بالحكمة، إذا كان من يخاطبهم ممن يقدسون أولئك الذين نقل عنهم، وقد يضيف إلى الظنيات صورا كلامية تثير الخيال، وتفعل في النفس ما يفعله الشعر، فإذا اجتمعت تلك العناصر الثلاثة في خطبة بلغت القمة من التأثير، والروعة، والجودة[1] .

التعريف الثاني عند المناطقة والحكماء:

الخطابة هي: القياس المؤلف من المظنونات، أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم في دنياهم وأخراهم: والمظنونات: هي الأمور التي

(١) انظر الخطابة ص ١٩ وما بعدها.

يحكم العقل فـيها حكمـا راجحا اتبـاعا لغلبة الظن، كـقولك: فلان يطوف الليل فـهو لص، والمقبولات: هي الآراء التي يكون مصـدر التصديق فيها وقوعهـا ممن لا شبهة في صـدقـه مع كونهـا قـابلة للانكار، وتطلـق الخطابة بمعنى الخطبـة وهي الكلام المنثـور المسجوع، أو المزدوج، أو المرسل الذي يقصد به التأثير والاقناع [١].

والكلام المنثور المسـجوع: هو الكلام المقفى غيـر الموزون، والسجعة، الفـقرة من الكلام المسجوع.

والمزدوج: هو ما يشتمل على نوعين من الكلام مختلفي التراكيب.

والنثر المـرسل: الذي لا يتقيـد بسجع، والشـعر المرسل: الذي لا يتـقيـد بقافـية واحدة[٢].

التعريف الثالث:

يقول أرسطو إن الخطابة هي القـدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الاقناع في أي مسألة من المسائل [٣].

التعريف الرابع:

وهو لابن رشد:

أن الخطابة هي قوة تتكلف الاقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة[٤].

التعريف الخامس:

إن الخطابة فن مشافهة الجمهور، واقناعه واستمالته.

التعريف السادس:

أن الخطابة خطاب يلقي من فرد على جماعة بقصـد التأثير في نفوسهم واقناعهم بأمر من الأمور.

فإذا نظرنا إلى هذه التعاريف وجدناها متقاربة غير أن بعضها يحتاج إلى تكملة، فتعريفي أرسطو، وابن رشد يركزان على قوة الاقناع في كل المسائل، وقد يتأتى الاقناع بطـرق كثـيرة من غيـر الخطابة كالمقالة الممـتازة، والكتاب العلمي الرصـين، والمحاضرة

(١) مصدر سابق.

(٢) المعجم الوسيط مادة: (سجع، زوج، رسل)..

(٣) الخطابة لأرسطو جـ١ ص٩٠ نقلا عن قواعد الخطابة.

(٤) انظر قواعد الخطابة ص ٨ .

الدقيقة والدرس الهادف، فهذا كله يدخل تحت باب الاقناع وليس بخطبة.

وأما تعريف ابن سينا فهو غير جامع، لأنه جعل المنطق يتجه إلى اليقين والخطابة تتجه إلى الأقيسة الظنية، والشعر يتجه إلى ما يثير الخيال [(١)]، كما سبقت الاشارة إليه عند الحديث عن قول ابن سينا.

أما تعريفات المحدثين، فقد تلافت هذه المآخذ، التي وردت على تعريفات الفلاسفة المذكورين، حيث ضمت إلى الاقناع استمالة الوجدان وإثارة النفس، وجعلتها تشمل الامور اليقينية أو الظنية، أو الخيالية، ولكنها قصرت الخطابة على فن التطبيق مع أنها علم له قواعده وموضوعه وهدفه، وكذلك تعريف الخطابة بالخطاب تعريف للشيء بنفسه، وهذا غير مفيد [(٢)].

أما التعريف الذي نختاره مع بعض الاضافات لأنه أقرب إلى الصواب فهو أن: «الخطابة علم يقتدر بتطبيق قواعده على مخاطبة الجماهير بطريقة القائية تشتمل على الاقناع والاستمالة».

فقولنا «علم له قواعد» أي عام يشمل سائر العلوم.

وقولنا: (يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة الجمهور... الخ). يخرج به سائر العلوم التي لا تعتمد على المشافهة كالكتابة والشعر المدون، كما تخرج المناظرة والمجادلة، والمكابرة، والمناقشة، والمحادثة، والدرس، لأن كل هذه أمور تستلزم حوارا بين الجمع، فالمتكلم آنا يستمع وفي آخر يتكلم وهكذا بينما الخطابة مشافهة المستمعين أي أن الخطيب هو الذي يتكلم بينما الجميع يستمعون [(٣)].

وخلاصة هذا التعريف أنه يقوم على عناصر هي:

العنصر الأول:

أن يكون الحديث مخاطبة لجمهور من الناس، فإذا كان الشخص يتحدث إلى فرد أو اثنين فإنه لا يحتاج عادة إلى لهجة خطابية، ويكفي في هذا المقام الصوت الهادىء والطريقة المألوفة.

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) انظر قواعد الخطابة. ص٩، ١٠.
(٣) المرجع السابق.

العنصر الثاني:

أن يكون بطريقة القـائية، وهذا يعني جهارة الصـوت وتكييفه بإخـتلاف نبراته، وتجسيم المعاني التي تتضمنها الخطبـة، وابداء التأثيرات ويكمل هذا العنصر الإشارة باليد أو بغيرها.

العنصر الثالث:

أن يكون الحديث مقنعا بحيث يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التي يدعو إليها، ويدور حولها الحديث، فإذا خلت الخطبة من هذه الأدلة فإنها لا تزيد على أن تكون ابداء رأي. . والخطيب الـناجح هو الذي يشـرح الأدلة ويسوقـهـا في مكانهـا المناسب، ويكثر من المترادفات ويعيد بعض الجمل ويركز على البعض الآخر حتى تثبت في أذهان السامعين.

العنصر الرابع:

أن يتوفر في الخطبـة عنصر الاستمالة، وهذا يلزم توجيـه عواطف السامعين للفكرة التي تدور حولهـا أو من شأنها قـيلت الخطبة. . وهذا العنصر من الأهمـية بحـيث إذا أدى الغرض المطلوب يكون دليـلا على نجاح الخطـبة. . مثـال ذلك: أن يدعو خطيب مـا أبناء قريته إلى إنشـاء مدرسة. . أو مسـتشفى. . فيـبين مزايا هذه وتلك، وما يعود على أبنائـهم من فوائد فيسمعـونه، ويشكرونه ثم لا يعملون أي شيء لانشاء هذه أو تلك، ولا يطلبون أولي الأمر بها، ولا يتبرعون فتموت الفكرة مع اقتناعهم جـميعا بفوائدها. وربـما يتحدث آخر في الموضوع نفـسه، فإذا الناس مندفعون لتحقيق دعوته، هذا يكتب طلبا لبناء المدرسة أو المستشفى، وهذا يبحث عن أرض صالحة لها، أو يتبرع أحدهم بها، وثالث يبـدأ قائمة التبرع لها وهكذا، إذن فقد نجحت الخطبة وأتت ثمرتها، ولا يرجع نجاحها إلي الاقناع بل إلى الاستمالة [1].

موضوع الخطابة:

قال ابن رشد ناقلا عن أرسطو:

«ليس للخطابة موضوع خاص، تبحث عنه بمعـزل عن غيره، فإنها لا تغيب عن

(١)نظر الخطابة واعداد الخطيب.

النظر في كل العلوم والفنون ولاشيء حقيرا أو جليلا معقولا أو محسوسا لايدخل تحت حكمها، ويخضع لسلطان لسانها»، ومن ثم يترتب على الخطيب أن يكون له إلمام بكل صنف من المعارف، بل ينبغي له أن يوسع كل يوم نطاق مداركه وذلك حق لاريب فيه، فإن كل مسألة عامة، أو لها صلة بشأن عام يصح أن تكون موضوع الخطابة: كحب الوطن وإقامة العدالة والنظام، وتسكين الفتن، والتمسك بالفضيلة إلى غير ذلك. وكل ذي رغبة في أمر يجتهد في استخدام عبارات خاصة، يجتذب بها من يريد حمله إلى ما ينبغي ويريد.

فائدتها: قال ابن رشد ناقلا عن أرسطو أيضا: ليس كل صنف من أصناف الناس ينبغي أن يستعمل معه البرهان في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها بمعنى أن الذي لا يُجْد معه الاستدلال المنطقي تهديه الخطابة إلى الحق الذي يراد اعتناقه. وهذه أول ثمرة من ثمرات الخطابة.

وللخطابة فوق ذلك فوائد منها: أنها هي التي تفض المشاكل، وتقطع الخصومات، وهي التي تهدىء النفوس الثائرة، وهي التي تثير حماسة ذوي النفوس الفاترة، وهي التي ترفع الحق، وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم، وهي صوت المظلومين، وهي لسان الهداية، ولأمر ما.

قال موسى عليه الصلاة والسلام عندما بعثه رب العالمين تعالت حكمته إلى فرعون: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [1] ولا يمكن أن ينتصر صاحب دعوى، ومناد بفكرة، وصاحب اصلاح إلا بالخطابة.

والحق أن الخطابة مظهر اجتماعي للمجتمع الراقي تحيا برقي الجماعة، وتخبو بضعفها، حتى **قال ابن سينا في فائدتها**: إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جدا، وذلك لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعا، وأعم على الناس من أضدادها فائدة، لأن نوع الإنسان يعيش بالتشارك، والتشارك محوج إلى التعامل والتحاور، وهما محوجان إلى أحكام صادقة. والبرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الحق، فالخطابة هي المعنية بذلك.

---

(١) سورة طه الآيات من ٢٥: ٢٨ .

إن الخطيب يرشـد السامع إلى مـا يحتـاج إليه من أمـور دينه ودنياه، ويقـيم له مراسيم لتقويم عيشه، والاستعداد إلى معاده [١].

* * *

الابتلاء والتمكن

سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أيهما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟

فقال الشافعي: لا يُمكّن حتـى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعسيى، ومـحمد صلوات الله وسلامه عليـهم أجمعين فلما صـبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة [١].

(١) نقلا عن الخطابة للشيخ محمد أبي زهرة ص ٢١ وما بعدها.
(٢) الفوائد لابن الجوزي ص ١٨٣ .

الفرق بين الخطيب والداعية

الخطابة عدة الداعية، والدعوة في أمس الحاجة إلى الخطابة،

والداعية غير الخطيب. الخطيب خطيب وكفى. والداعية مؤمن بفكرة يدعو إليها بالكتابة، والخطابة، والحديث العادي، والعمل الجدي في سيرته الخاصة والعامة وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية. فهو كاتب وخطيب ومحدث وقدوة، يؤثر في الناس بعمله وشخصه..

والداعية أيضا طبيب اجتماعي يعالج أمراض النفوس ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة، فهو ناقد بصير، يقف حياته على الاصلاح إلى ما شاء الله.. وهو رفيق، وصديق، وأخ للغني والفقير، والكبير والصغير، ومن هذه الصفات تشيع المحبة في قلبه، وتتدفق الرحمة من عينية، وتجري المواساة على لسانه ويديه، وهذا ضروري جدا للداعية.

وكل من الخطيب والداعية: قائد في محيطه، وسياسي في بيئته، وزعيم لفكرته ومن يتبعه في ناحيته، وكل هذا لا تنهض الخطابة وحدها بحقوقه، فلابد له من التأثير النفساني، والهيمنة الروحية، والاتصال بالله، واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأحوال الناس [1] ومعايشتهم.

الفرق بين منهج الخطيب، ومنهج الشاعر يتضح الفرق بينهما فيما يلي:-

(١) منهج الخطيب يعتمد على الاقناع والاستمالة، ومنهج الشاعر يعتمد على اثارة مشاعر الناس لأمر قد عرفوه من قبل.

(٢) منهج الخطيب تحليل وتعليل للأدلة التي يسوقها، ومنهج الشاعر يشير إلى أعمال الشخص الذي قام بها دون تحليل.

(٣) منهج الخطيب التوضيح والشرح، لأنه يخاطب العقول ويحاول

---

(١) انظر للشيخ البهي الخولي : تذكرة الدعاة: ص ٥ .

اقناعها، ومنهج الشاعر التركيز علي العاطفة واثارتها فتستملح ما يقول.

والخلاصة: أن الشعـر للوجدان، أما الخطابة فاللعقل، ولكل تعـبير خاص، ويحذر على الخطباء في المواقف من تهويل الشعراء الخـيالي البحت إذ لا يتبعه إلا صغار الخطباء.

موقع الخطابة من فنون الأدب:

الخطابة نوع من النثـر، فـهي تختلف عن الكتـابة، وعن النثـر الفني إذ لا شرط هناك لوجود الاقناع، أو الاستـ'الة، والكتابة قد تكون وصفـا لمنظر ما، أما الخطابة فتحتوي على عبارات كثيرة من النثر الفني، كما يوجدمنها السجع وجمال التـركيب، والطبـاق، والخطبـة تختلف عن الشـعر: الخـطبة تقـوم على الحقـائق الملموسة، والأدلة اليقينية والشعر يقوم على الخيال والعاطفة [1]

وهاك نماذج من النثر والشعر تدليلا على ما سبق:

لما توفى الإمام الشيخ محمد عـبده كان الذين يريدون تأبينه، ورثاءه كثيرين جدا، ولكن اللجنـة المختصة اخـتارت أربعة من أصـدقائه يتـحدث كل منهم عن جـانب من جوانب حـياته، واخـتارت حـفني ناصف، وحـافظ إبراهيم تلميـذه وصديقه ليلقي كل منهما مرثية شعرية.

كان قاسم أمين أحد الأربعة المتحدثين، وقد اختير له أن يتحدث عن أخلاق الشيخ وفضائله وامامته، وجاء في كلمته «. . . . أن كل نفس بشرية لها نصيب من الجمـال والقبح، والكمال المـطلق لا يوجد في هذا العالم، ولكـن بعض النفوس الممتازة تقـرب من الكمال أكثر من غـيرها. .فتنمو زهرة الجمـال فيها نموا عجـيبا وتتكاثر فروعها، وتمتد طولا وعرضا، ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها.

ومن هذا القسم الممتاز كانـت نفس إمامنا العزيز، نفس خلقت على أحسن

(١) الخطابة واعداد الخطيب.

شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صار مثلا في الجمال يجب أن نضعه دائما أمامنا لنعلم منه مقدار ما يصل الجهد في العمل عند رجل اقترب من سن الستين. .ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق في إنسان أجهد نفسه وهذبها ورباها حتى أرسلها إلى أقصى ما تصل إليه نفس بشرية من الجمال والكمال.

كان للإمام الذي فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون.وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه، فيقتصروا على التمسك بما وجدوا عليه آباءهم من قبل، وعلى جانب هذا الجيش يحرص على الطعن عليه الحاسدون الذين يتألمون إذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم إلا إذا أنزلوه من مكانه ووضعوه في مستوى واحد معهم.وفي مقدمة هذا الجيش ـ كقواد له ـ أرباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتي الرياح.

أنه يجب علينا أن نضع يدنا على بناء الاصلاح الذي وضع الإمام أساسه ونحافظ عليه وندافع عنه إن أمكننا حتى نتركه إلى ذريتنا كميراث ننتفع منه ونزيد عليه ثم نتركه إلى من يأتي بعدنا، وهكذا ينمو الاصلاح فينا كلما مرت الأيام والأجيال كما هو الحال عند الأمم الحية [1]. .

هذه الخطبة طويلة تزيد على خمس صفحات، وهذا القدر الذي أخذ منها يفي بالغرض المطلوب، وهي تعتبر خطبة، لأنها اتخذت من سيرة الإمام، وأعماله وسيلة لمبادىء دعت إليها وبرهنت على ضرورتها.أي أنها اشتملت على عنصري: **الاقناع والاستمالة.**

واشترك حافظ إبراهيم مع قاسم أمين في بعض العناصر التي تكونت منها خطبته، ومن قصيدة حافظ نقتطف هذه الأبيات:

تباركت هذا الدين دين محمد	**أيترك في الدنيا بغير حماة**
تباركت هذا عالمُ الشرق قد مضى	**ولانت قناة الدين للغمزات**

(١) الخطابة واعداد الخطيب ص ١٦ .

زرعت لنا زرعا فأخرج شطأه | وبنت ولما نجتن الثمرات[1]
فواها له ألا يصيب موفقا | يشارفه والأرض غير موات[2]

وجاء في مرثية حفني ناصف:

للمسلمين إليك أكبر حاجة | فإذا قضيت فما قضوا أوطارا
من ذا يفاضل عن شريعة أحمد | و يذود عن أكنافها الأخطارا
ويصون دين الله من شبه العدا | ويرد غارة من به يتمارا

ويلاحظ هنا أن العناصر البارزة في كلام هؤلاء الثلاثة هي أن الإمام كان شغوفا بالاصلاح وأنه لاقى في سبيل دعوته ايذاء وعداوات وأنه لا يوجد بعده من يسد فراغه ويتابع منهجه الإصلاحي.

وتعبير الشاعرين يختلف عن تعبير قاسم أمين، وقد اتسع له المجال النثري فملأ حديثه بالتحليل والتعليل، لماذا كان له أعداء، ولماذا كان هو مصرا على الاستمرار في الاصلاح؟ ولكن انظر الفرق بين قوله:

«كان للإمام الذي فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم. . الخ»

وقول حافظ:

وآذوك في ذات الإله وأنكروا | جهادك حتى سودوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب | ومعرفة في أنفس نكرات

نجد الشاعر هنا ألم بما قاله قاسم ولكن في إشارة فقط دون تحليل وتعليل وكلام ناصف لا يختلف عن هذا فهو يتساءل عمن سيقوم بعد الإمام بالاصلاحات الكثيرة التي كان يقوم بها، ويعدد جوانب هذا الاصلاح، ثم يختتم حديثه بعبارة يائسة، كما قال حافظ أنهم إذ مدوا أيديهم للأعلام عادت إليهم خاوية، ولم يشأ قاسم أمين أن يجرح مشاعر الآخرين بمثل هذا، لأنه ينشد استمرار حركة الاصلاح ويدعوهم لمتابعتها.

---

(١) أخرج شطأه: ظهرت له فراخ من حوله، وهذا يعني نموه وازدهاره.
(٢) يشارفه: يراقبه ويحميه.

ومن هذا نرى أن لدى الخطيب فرصة التوضيح، والشرح، لأنه يخاطب العقول، ويحاول اقناعها، أما الشاعر، فإنه يثير مشاعر الناس نحو أمر قد يكونون قد عرفوه من قبل (١) .

* * *

الذكر والشكر

مبني الدين على قاعدتين: الذكر والشكر.

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة: ١٥٢ وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وليس المراد بالذكر مجرد اللسان بل الذكر القلبي واللساني وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح. وذلك لا يتم إلا بتوحيده.

وأما الشكر: فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع مَحَابّه ظاهرا وباطنا، وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته وشكره، متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسماوات والأرض ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب وأرسل الرسل وهي الحق الذي خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به. قال سبحانه: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾(٢) ص: ٢٧ .

(١) انظر الخطابة واعداد الخطيب ص ١٧ وما بعدها.

(٢) راجع الفوائد ص ١٧٤ .

أسس تحصيل الخطابة

تمهيد:

تعد الخطابة من المناصب الخطيرة في المجتمع، فإن خطبها جسيم، ومقامها في الشرع عظيم، لم يقم بأعبائها غير النبيﷺ طول مقامه بين ظهراني الأمة، وعلى طريقته مشى الخلفاء الراشدون وهداة الأئمة، وكم من خطيب بارع بين الأقدمين، كان إذا قام يخطب بين جماهير المسلمين، يهدي الله لخطبته مئات وألوفًا من المسرفين، فينخرطون في سلك عباد الله الصالحين، المصلحين كما كان يقع في مواعظ سبط بن الجوزي، وخطبه في الجامع الأموي، وهكذا كان الأمر حينما كانت العلوم تُقصد لذاتها، لا لعاجل منافعها ولذاتها.

كانت الأمة إذ ذاك من السمو بالدرجة التي لا تسامي، ثم إن قيادتها كانت بيد ورثة الأنبياء شموس الإسلام، وهداة الأمة وبركتها، رضي الله عنهم، ومعروف أن القيادة إذا صلحت سارت قافلة الأمة في غاية الأمن لا تخشى غائلة، ولما قلّ هذا الطراز من الهداة في العصور المتأخرة رأينا الأمة على ما هي عليه اليوم من الانحطاط الذي لا يخفى على أحد، وكدنا نيأس من صلاح الأمة من طريق الخطابة والخطباء، مع أنه الطريق الوحيد لذلك، فإنا لم نكن نرى من يمسك زمام القيادة في هذا الأمر عن جدارة واستحقاق فيؤتي به من مشارق الأرض ومغربها[١].

ومن أجل هذا فإن مرتقى الخطابة صعب، لا يصل إليها طالبها بيسر، بل يحتاج إلى عمل دائب وزاد عظيم، وصبر ومعاناة، واحتمال للمشاق،ليصل إلى تلك الغاية السامية ومن نصائح الأقدمين:

إنك لا تعلم الخطابة حتى تتعلم القِحَة، والمراد بالقحة: عدم المبالاة بأي شيء يكون معارضًا له، ويرجع ذلك إلى الجرأة وقوة الجنان[٢].

وعلى الجملة فإن أسس تحصيل الخطابة تخضع لأمور منها:

الأمر الأول:

فطرة مواتية، وسليقة تلائم الخطابة: وتتحقق هذه الصفة في الخطيب الخالي من

(١) انظرمنتهى آمال الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء: المقدمة ص (ي).
(٢) انظر الخطابة وإعداد الخطيب: ص ٣٣.

العيـوب الكلامية كالفـأفأة ونحوها، وأن تكون مخـارج الحروف عنده صحيـحة، وأن يكون فصيحًا، طلق اللسـان، ثابت الجنان، ذكي القلب، ومن أعطاه الله هذه الصفات فإنه لا يحتاج إلا إلى التعليم والممارسة، ثم يكون خطيبًا ناجحًا.

الأمر الثاني:

دراسة أصـول الخطابة ليكون الدارس على علم بما سيقوم به مستقبلاً، قال ابن سينا: هذه الصناعة قد يتـعاطى أفعالها كل إنسان، بأن يتأمل ما يخـتلفون فيه من مدح أو ذم أو شكاية، أو اعتذار أو مشورة، فـمنهم من يكون تصرفه في بعض هذه المعاني، ومنهم من هو متصرف في جميعها، ومنهم من يبعد في ذلك بملكة حصلت له من غير أن تكون القوانـين الكلية محـصلة عنده، ومنهم من يجـمع إلى الملكة الاعتيـادية ملكة صناعيـة، حتى تكون القوانين مـحققـة عنده، وهو الذي أحاط بهـذا الجزء من المنطق (الخطابة) علمًا واكتسـب الملكة بالمزاولة . . فالقوانين على هذا هادية مرشـدة، تساعد في تحصيل الخطابة بإنارة السبيل ولا تُكَوّن وحدها الخطيب، بل هي مهذبة للفطرة منيرة لها طريقها.

الأمر الثالث:

الاطلاع على أقـوال البلغـاء: فيه فوائد كـبيرة لتكوين الفكرة، والأسلوب ومثل هذه الدراسة توسع مـدارك الخطيب وفهـمه فهـو يطلع على نتاج المفكرين من القـدماء والمحدثين، قـال ابن الأثير في المثل الـسائر: **إن في الاطلاع على أقـوال المتقـدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة:** لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقـاصد كل فـريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعـته في ذلك، فـإن هذه الأشيـاء مما تشحذ القريحة، وتزكي الفطنة . . وأيضًا فإنه إذا كان مطلعًا على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسـبق إليه. . فقراءة كلام البلغاء تقدم للخطيب جُملاً من المعاني والأسـاليب ينال منه بيسر وسهـولة، ما يوصله إلى عقول المسـتمعين وعواطفهم.

الأمر الرابع:

دراسـة العلوم التي لهـا صلة بالجـمـاعـات: مـثل علوم الاقـتصـاد، والشـرع والأخلاق، وعلم النفس، والاجتماع، والأديان فـإن دراسة هذه العلوم فوق أنها تنمي

فكره، وتوسع مداركه تجعله على بصيرة في مهمته، ويصل بها إلى بغيته.

الأمر الخامس:

كثرة محفوظاته من الأساليب والألفاظ: فإن حفظ مثل هذه الأساليب والألفاظ تعينه على أداء مهمته، فصناعة الخطيب هي الألفاظ والأساليب ولابد أن تكون رشيقة ومتجددة، وغير مكرورة، فإن المعنى الواحد قد يحتاج إلى عدة ألفاظ أو أساليب حتى تستقر في ذهن المستمع، فاللفظ المكرور، والأسلوب الثابت يؤدي إلى السأم والملل، وحفظ الجديد من الأقوال يرفع من مكانة الخطيب لدى سامعيه.

الأمر السادس:

ضبط النفس واحتمال المكاره: يصادف الخطيب كثيرًا من الزوابع والمخاطر ممن يتقصون عوراته، ويتسقطون خطأه وهفواته، وكلهم له رقيب عتيد، فإذا لم يتحل الخطيب بضبط النفس، والسيطرة التامة على إحساسه ومشاعره، لم يستطع السير إلى نهاية المطاف، وقديمًا قال خطيب عربي: «لقد شيبني ارتقاء المنابر» وهو قول يدل على مقدار ما كان يعانيه ذلك الخطيب في الاستيلاء على نفسه حتى تجشأ ولا تجيش، وعليه أن يتمثل قول الشاعر وهو يزجر نفسه:

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

فهو كلما يرى من نفسه الفزع والهياج من المكروه أو الهرب منه زجرها لتستقر في مكانها، فتنال الحمد، أو تستريح الراحة الأبدية، ومن ثم فعلى راغب الخطابة أن يربي نفسه على احتمال المكاره والحلم، ومحاربة مظاهر الاضطراب والوجل، فإن الاضطراب يورث الحيرة، ويضعف أثر الخطبة في نفوس السامعين.

الأمر السابع:

الارتياض والممارسة: مما سبق من أمور نتوصل إلى أن الفطرة والاطلاع وثروة الألفاظ، والقراءة الكثيرة، والعلم بالأصول الخطابية لا تكفي في تكوين الخطيب لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة. بل لابد من المعاناة لمن يريد ارتقاء هذا السلم، ولا يحزن إذ أعرض الناس عنه مرة أو حتى مرات، فإن الخطباء الممتازين كانت فيهم عيوب كلامية فأصلحوها، كان (ديموستين) خطيب اليونان: عندما خطب على المنبر العام قوبل كلامه بالقهقهة، إذ كان صوته ضعيفًا جدًا، ونفسه قصير، فعكف

عدة سنوات على رياضة صوته حتى إنه كان ينقطع شهورًا طويلة ونصف رأسه محلوق، لئلا يحاول الخروج، وكان يلقي خطبًا وفي فمه حصى، وهو على شاطئ البحر ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس، ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته لإرادته. وقد كان يحافظ كل المحافظة على إعداد جميع خطبه قبل إلقائها، ولذا صار أرقى خطيب وأعظم مفوه في بلاد اليونان، وكان له شبيه في العرب هو «شبيب بن شيبة» فإنه ابتداء كلامه بحلاوة، ورشاقة، وسهولة، وعذوبة - في أول أمره على عكس ديموستين في بدايته - فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع[1] بكثيره، **ورياضة النفس على الخطابة تكون بأمور كثيرة** تتلخص فيما يلي :

(أ) أن يعود نفسه ضبط أفكاره، ووزن آرائه، وعقد صلة بينها وبين ما يجري في شؤون الناس، ليكون على أهبة القول عند دواعيه.

(ب) أن يكون كثير التأمل في شؤون الحياة، عميق الفكرة، كثير الدراسة لأحوالها على صلة بالناس ليحس بإحساسهم، قريبًا منهم.

(جـ) أن يتحدث بجيد الكلام، أو يكتبه كثيرًا، وأن يكون في مرانه الخطابي محاكيًا البلغاء في أساليبهم، أو سائرًا في مثل دربهم.

(د) أن يعود نفسه إخراج الحروف من مخارجها، وأن يحضر الجماعات والمحافل التي تكون ميادين قول، فإذا طرأت له فكرة ووجد الفرصة سانحة، فليقل غير هياب ولا وجل ولا مستحي، فإن الاستحياء في هذا نوع من الضعف، وهو يجر إلى الحُبسة، وموت المواهب، وعليه أن يقول مرتجلاً ما استطاع إلى ذلك سبيلا[2].

(هـ) والخلاصة :

إنه يجب على المريد أن يروض نفسه على الخطابة الجيدة، حتى تصير له شأنًا. قال الجاحظ كلمة محكمة في هذا المقام: «وأنا أوصيك، ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة، ويشاكلانك، بعض

(١) صقع في القول: تفنن، ويقال خطيب مصقع: اي البليغ الذي يتفنن في مذاهب القول. المعجم الوسيط مادة : صقع.

(٢) الخطابة : ص ٢٣ وما بعدها بتصرف واختصار .

المشاكلة، ولا تهمك طبـيعتك، فيستولـي الإهمال على قوة القريحة، ويستـبد بها سوء العادة، وإن كنت ذو بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المنة يوم الحفل، فلا تقصر في التماس أعلاها في البيان سورة، وأرفعها في البيان منزلة».

نصيحة الجاحظ لمريد الخطابة

ذكر الجاحظ في «البيـان والتبيين» هذه النصيحة وأهداها لمريد الخـطابة ألا يتركها واستهلها بقوله:

«. . أوصيك ألا تدع التمـاس البيان والتبيين ـ أي ما يحتـاج إلى بيان وتوضيح للناس ـ إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهـما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة، ولا تهمل طبـيعتك فيستولي الإهمـال على قوة قريحتك ـ إن من ترك المران على الخطابة فَقَدَ ملكتها ـ ويستبد بهـا سوء العادة وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ ـ القـوة والتفوق ـ في الخطابة والبلاغة. وبقوة المنة يوم الحـفل فلا تقصر في التـماس أعلاهـا سورة[١] . وارفعهـا في البيان منزلة، ولا يقطعنك تهـيب الجهلاء وتخويف الجبناء ولا تصرفنك الرايات المعدولة عن وجهها المتأولة على أقبح مخارجها.

وكيف تطيـعهم بهذه الرايات المعدولة والأخـبار المدخولة ـ الملفقـة ـ وبهذا الرأي الذي ابتدعوه من قبل أنفسهم وقد سمعت الله تبارك وتعالى ذكر داود النبي ﷺ فقال: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾[٢].

فجمع له بالحكمة : البراعة في العقل والرجاحة في الحلم، والاتساع في العلم، والصواب في الحـكم، وجمع له فصـل الخطاب، تفصيل المجـمل وتلخيص الملتبس، والبصر بالحز والحسم في موضع الحسم[٣] .

وذكر رسـول الله ﷺ شعيبًا ـ عليـه السلام ـ فقال: «**كـان شعـيب خطيب الأنبياء**». وذلك عند بعض ما حكاه الله في كتابه وجلاه لأسماع عباده.

فكيف تهاب منزلـة الخطباء وداود عليه السـلام سلفك، وشعيب إمـامك مع ما تلوناه عليك من القرآن الحكـيم والآي الكريم؟، وهذه خطب رسول الله ﷺ مـدونة

---

(١) السورة بالضم اسم جنـس جمعي لسور علـى غير الأكثـر المفرد بغيـر التاء والجمع بالتـاء نحو : كم ، وكمئة، والمعنى : ما دامت لك قدرة وتسام فاطلب القمة العليا.

(٢) سورة ص الآيات من ١٧ إلى ٢٠ .

(٣) الحز : المحاولة، والحسم : القطع.

محفوظة ومخلدة مشهورة، وهذه خطب أبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي ﷺ[١].

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينفاخون عنه، وعن أصحابه بأمره، وكان ثابت ابن قيس بن الشمساس الأنصاري خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد»[٢].

وإليك بعض النماذج من الخطب والمواعظ:

من خطب الرسول ﷺ ومواعظه

أول خطبة لرسول الله محمد ﷺ:

أخرج البيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: **«أما بعد: أيها الناس: فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن[٣] أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه:**

ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك؟

فما قدمت لنفسك؟

فينظر يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل! ومن لم يجد فبكلمة طيبة!

فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف».

والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته.

وخطب رسول الله ﷺ مرة أخرى

فقال:

«إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا،

---

(١) أي أن هؤلاء لم يحجموا عن الخطابة فلا تحجم عنها.

(٢) مع من حوله من الشعراء المنافحين كان المدافع عنه بلا منازعة هو هذا الخطيب وقيس مخارب شجاع ومن المبشرين بالجنة، واستشهد في عهد أبي بكر ﷺ، ورآه أبو بكر فأخبره بمكان فرسه وأسلحته وأوصاه بوفاء دين عليه وإعتاق رقيق له، فنفذ الخليفة وصيته ووجد ما أخبره به على ما هو عليه.

انظر الإصابة ص ٩٠٠ والخطابة وإعداد الخطيب ص ٤٢ وما بعدها.

(٣) الصعق: أن يغشى الإنسان من صوت شديد يسمعه، وربما مات منه ثم استعمل في الموت كثيرًا. راجع حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي: «جـ٣ / ٣٩٤»هامش ١.

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له:

إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا من أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم! ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم! فإنه من يختار الله فقد سماه خيرته من الأعمال، خيرته من العباد والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته!

وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم! وتحابوا بروح الله بينكم! إن الله يغضب أن ينكث عهده[1]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطبة الرسول ﷺ في الجمعة:

أخرج ابن جرير عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف:

الحمد لله أحمده وأستعينه واستغفره وأستهديه، وأومن له ولا أكفره، وأعادي من يكفره،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور، والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، وفرط، وضل ضلالا بعيدا،

وأوصيكم بتقوى الله! فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه! ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه

---

(١) أن ينقص، راجع البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٢١٤، وحياة الصحابة ص ٣٩٥

عون صدق على مـا تبغون من أمر الآخـرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عـاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم.

وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك! فإنه يقول عز وجل: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (١).

فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السـر والعلانية! فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله يوقى مقته (٢)، ويوقى عقوبته، ويوقى سخطه (٣) وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضي الرب ويرفع الدرجة، خـذوا بحظكم ولا تفرطوا (٤) في جنب الله! قد علمكم الله كـتابه، ونهج لكم سبـيله ليـعلم الذين صدقـوا ويعلم الكاذبين فأحـسنوا كمـا أحسن الله إليكـم، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحـيـا من حي عن بينة، ولا قـوة إلا باللـه، فأكـثـروا ذكـر الله، واعـملوا لما بعـد اليوم (٥)!

فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك مـن الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم (٦).

ومن مواعظ النبي ﷺ ما يلي:

أخرج ابن حـبان في صحيـحه، واللفظ له، والحاكم وصحـحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول: ما كانت صحف إبراهيم؟

(١) ق: ٢٩ .

(٢) المقت في الأصل: أشد البغض.

(٣) الكراهية للشيء وعدم الرضا به.

(٤) لا تقصروا.

(٥) في البداية عن ابن جرير «لما بعد الموت». راجع حياة الصحابة جـ٣ ص ٣٩٦ .

(٦) البداية والنهاية: ٣ / ٢١٣، وحياة الصحابة: ٣ / ٣٩٤، وراجع خطب الرسول ﷺ في هذا المرجع.

قال: كانت أمثالا كلها. أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث:

تزود لمعاد،

أو مرمة لمعاش،

أو لذة في غير محرم.

وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه، حافظا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه،

قلت يا رسول الله! فما كانت صحف موسى عليه السلام؟

قال: كانت عبرا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح،

عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك،

عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب [١] ،

عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها،

عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل!

قلت يا رسول الله! أوصني، قال: أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله،

قلت يا رسول الله: زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل فإنه نور لك في الأرض وزخر لك في السماء. قلت: يا رسول الله زدني: قال: إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه، قلت يا رسول الله زدني، قال: عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي،

قلت يا رسول: زدني، قال: انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك

---

(١) يتعب.

قلت يا رسول الله: زدني، قال: قل الحق وإن كان مرًّا. قلت يا رسول الله زدني، قال: ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى بك عيبًا أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك، أو تجد عليهم فيما تأتي، ثم ضرب بيده على صدري فقال: يا أبا ذر:

لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق[1].

ما أحلى هذا الكلام وأجمله، لو أخذ به المجتمع المسلم لصلح حاله، وعُظم شأنه.

فهذه القطعة من موعظة رسول الله ﷺ فيها من الحكم العظيمة والمواعظ المفيدة، ما تدعو كل عاقل إلي تدبرها وتطبيق ما ترمي إليه.

(١) الترغيب والترهيب: ٣ / ٤٧٣، والحلية: ١ / ١٦٦، كنز العمال: ٨ / ٢٠١، وراجع مواعظ الرسول ﷺ في حياة الصحابة: ٣ / ٤٩٧ وما بعدها.

من دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وهي كلمات لازمة للخطباء ليستعينوا بها في دروسهم وخطبهم.

دعاء يوسف عليه السلام ربه قائلا: ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ يوسف: ١٠١.

ومن دعاء زكريا عليه السلام: ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .الأنبياء: ٨٩، ٩٠ .

ومن دعاء يونس عليه السلام: ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ . الأنبياء ٨٧، ٨٨ .

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ إبراهيم: ٤٠، ٤١.

ومن دعاء سليمان عليه السلام: ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ .النمل: ١٩ .

ومن دعاء موسى عليه السلام: ﴿ قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي ﴾ طه ٢٥ - ٢٨.

ومن دعاء سيدنا محمد ﷺ ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . البقرة: ٢٨٦ .

تنوع الأسلوب الخطابي:

يختلف أسلوب الخطبة وتعبيراتها عن أسلوب الشعر وطريقته، وعن الكتابة الفنية وكتابة المقالات: فالكتابة الفنية تجنح إلى جمال العبارة، وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية، كما يدخلها شيء من خيال الشعر، أما المقالات فتعتمد على توضيح المعنى، مع الايجاز، ولا يكرر العبارات والمترادفات وفي وسع القارىء أن يقرأ الجملة أكثر من مرة حتى يتعمق المعنى الذي يراد منها، وهذه فرصة لا تتاح لسامع الخطبة، ولهذا تعتمد الخطبة على التوضيح والابانة.

وقد يكرر الخطيب بعض الجمل ' يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات.. كل ذلك مع مراعاة الأناة وقواعد الالقاء، ومن ثم كان للخطابة أسلوب خاص تعرف به وهو:

أولا: وضوح العبارات، وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذي يهدف إليه مفهوما للسامعين.. وخطيب المسجد يستمع إليه أخلاط من الناس منهم المثقف العميق ومنهم الساذج قليل الثقافة أو عديمها، ومنهم بين بين.. وهذا أمر يلقى على الخطيب مشقة كبيرة إذ هو مسئول أن يفهم كل سامعيه بمختلف درجاتهم العقلية والثقافية، ومن هنا كان التكرار والالحاح على المعنى الواحد بعبارات مختلفة له أهميته، وبعض الخطباء يجعل خطبته باللغة العامية، وهذا خطأ كبير، فاللغة الفصحى لها جمالها وتأثيرها حتى على العامة واستعمال العامية الخالصة، أو الاكثار منها يفقد الخطبة هذا التأثير، وكما أن الخطيب يعلم سامعيه دينا وعلما هو أيضا يعلمهم اللغة العربية الشريفة لغة كتاب الله ولغة نبيه ﷺ، ومن المعروف أن ناشئوا الطلبة يستفيدون كثيرا من خطباء المساجد.

ثانيا: ينبغي أن تعتمد الخطبة على الجمل القصيرة، وعدم الفصل الطويل بين أجزائها فإذا ذكر الخطيب مبتدأ. ثم يردفه بجملة، أو عدة جمل معترضة ثم جاء بعد ذلك بخبر المبتدأ فإن هذا قد يخفى على السامع المعنى، والأولى أن يجعل كل جملة مستقلة بذاتها..

ثالثا: في مقام التهويل والاثارة يحسن استعمال صيغ الاستفهام وصيغ التعجب لأنها تؤدي في هذه المقامات ما تؤديه الجمل الخبرية، والاستفهام الانكاري يكاد يكون حجة مسلمة بها.

رابعـا: قد يسوق الخطيب قصة، أو حـدث تاريخي للاستدلال على ما يقول، وهذا مفيد وناجح في أكثر أحيانه.. ولكن يفسده طول القصة، أو الاكثار من ذكرها..

خـامسـا: تختلف ألفاظ الخطبة وعباراتها بـحسب المقام الذي يقال فيه، فخطب التهديد والوعيد، وخطب الحرب واخضاع المتمردين تمتاز بقوة العبارة، وفخامة التعبير، واستعمال الكلمات الشديدة الغليظة، كما ورد ذلك كثيرا في معظم خطب الحجاج بين أهل العراق، وقد قال في أول خطبة خطبها [1]: «إني والله ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فـررت عن بصيرة وفتشت عن تجربة، إن أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم عودها فوجدني أمـرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعـتم في الفـتنة، ورقدتم في مـراقد الضـلال، أما والله لأحـزمنكم حزم السلـمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.. الخ.

أما في حال السلم والهدوء فـلا تعدو الخطبة أن تكون نصيحة ويكفي اسـتعمال الألفاظ المألوفة والرقـيقة. والقرآن خيـر شاهد، فحينما كان يـخاطب المعاندين في مكة استخدم معهم هذا الأسلوب ردا علـى أكاذيبهم وافترائاتهم وقالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[2].

وانظر إلى قـوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [3].

فتجـد في الآية الأولى تهويلا عظيما وشدة، واسـتنكارا، وفي الآية الثانية: نداء إلى المؤمنين، وأمر بالسـعي إلى ذكر الله وترك البيع لان في هذا خيـر لو كنتم تعلمون الخير.

وتدبر قـوله تعـالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ

---

(١) ستأتي خطبته كاملة ضمن نماذج من الخطب إن شاء الله تعالى. ص ٢٣١.

(٢) مريم ـ الآيات ٨٨:٩٢.

(٣) الجمعة ـ الآية ٩.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وقوله تعالى: في نفس السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

فستجد في الآية الأولى عددا من التشديدات: أمر بالجلد مائة مرة، وعدم الرأفة، وربط ذلك كله بالإيمان، والأمر بتشهير العذاب أمام طائفة من المؤمنين. أما الآية الثانية فهي نصيحة للمؤمنين بها خير كثير يعود عليهم إذا التزموا بها.

سادساً، تخضع الخطب طولاً وقصراً، حسب المناسبات التي تستلزمها، فالخطبة التي تقال لإطفاء شغب على الوالي لسبب من الأسباب تكون قصيرة وأسلوبها قوي رصين تجمع بين التحذير والتبشير للمتمردين كما جاء في خطبة أبي جعفر المنصور عقب مقتل أبي مسلم الخرساني القائد العباسي الذي كان ممن قوض العرش الأموي، فلما ثار أنصاره لقتله خطبهم قائلا:

«يا أيها الناس.. لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تبطنوا غش الأئمة فإنه ما أضمر أحد لإمامه سوءا إلا أظهره الله عليه، لإظهار دينه، وإعلاء كلمته، إنه من نازعنا عروة هذا القميص جعلناه جزرا لخبيء هذا الغمد.

وأن أبا مسلم قد بايعنا، وبايع الناس لنا، على أنه من غدر بنا فقد أهدر دمه. ثم غدر بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على الناس لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من اقامة الحق عليه»..

فالخطبة غاية في الايجاز حتى لا تفتح مجالا للمناقشة، صاحبها المنطق حيث أخبر أنه القائم على الدين، ومن حقه أن يعاقب من خرج عليه لخيانته، وحذر وأنذر أن من نازعه عُروة قميصه أي من بادأنا بأدنى شغب جعلناه قطعا لهذا السيف، ثم أخبرهم أنه عادل حيث أن لأبي مسلم عهد كما للرعية، وهو أول من يعاقب على من يخون العهد.. وبهذا استولى على عقول القوم بهذا المنطق.

أما الخطب التي تتعرض لشرح منهج اصلاحي، أو مبادىء قانونية، فإنها تطول

---

(١) النور - الآية ٢.

(٢) النور - الآية ٢٧.

حسبما يقتضي الأمر، والخطيب المحدث لا غنى له عن وقع الكلام الحسن يرتشف منه وينهل من معينه قال عبد الله بن المقفع:

«الايجاز هو البلاغة فأما الخطب بين السماطين، وفي اصلاح ذات البين فالأكثار في غير خطل، والاطلال في غير املال.

وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك. وسئل عما يكون إذا مل السامع الأطالة التي قال هو أنها حق ذلك الموقف؟

فقال: إذا أعطيت كل مقام حقه... وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله.

وقيل لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»(١)

صفات الخطيب:

مخاطبة الجماهير ولقاءاتها تتخللها اعتبارات شتى فينبغي على المتحدث أن يتصف بصفات إذا توفرت لديه يستطيع بمجموعها أن يمتاز بها عن غيره من المتكلمين وهذه الصفات تجعل الخطيب كاملا أو قريبا من الكمال وهي:

(١) **قوة الملاحظة:** ليدرك أحوال السامعين عند القاء خطبته أهم مقبلون عليه؟ فيسترسل في قوله ويستمر في نهجه، أم هم معرضون عنه؟ فيتجه إلى ناحية أخرى يراها أقرب إلى قلوبهم، ومن ثم ينبغي أن تكون نظرات الخطيب نظرات فاحصة يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ليجدد من نشاطهم، ويذهب بفتورهم.

(٢) **حضور البديهة:** تسعفه بالعلاج المطلوب إن وجد من القوم اعتراضا، وقد يلقي الخطيب خطبته فيعقب بعض السامعين معترضا، أو طالبا الاجابة عن مسألة، فإذا لم تسعفه البديهة الحاضرة للرد، ضاعت الخطبة وآثارها.

(٣) **طلاقة اللسان:** إذا كان القلم أداة الكتابة فإن اللسان أداة الخطيب فلابد

---

(١) راجع الخطابة واعداد الخطيب ص ٢٣ وما بعدها بتصرف واختصار، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢ / ١٧١.

لهذه الأداة أن تكون سليمة كـاملة ليتسنى له استعمالهـا على أكمل وجه وأتمه، وزلاقة اللسان، وذربه[١] عنوان الفصاحة. . وطلاقة اللسان من ألزم صفات الخطيب، وأشدها أثرا في انتصاره في ميادين القول.

(٤) **رباطة الجأش:** تتمثل هذه الصفة في وقفة الخطيب، واطمئنان نفسه، غير مضطرب ولا خائف، وإلا لم يستطع ملاحظة سامعيه، وأثر كلامه فيهم وإن أحسوا بضعفه واضطرابه صغر في نظرهم، جاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ما يلي: الحيرة والدهش، يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الارتاج والأفحام.

(٥) **القدرة على مراعاة مقتضى الحال:** فمراعاة مقتضى الحال هو لب الخطابة وروحها، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به، فالجماعة الثائرة الهائجة تخاطب بعبارات هادئة. . والجماعة الخنسة الفاترة تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمم، حافزة للعزائم. والجماعة التي شطت وركبت رأسها تخاطب بعبارات فيها قوة العزم، ونور الحق ليجتمع الترهيب مع الترغيب.

هذه الصفات الخمس لايعد خطيبا إذا لم تكن فيه كاملة.

وهناك صفات أخرى تتفاوت فيها أقدار الخطباء مثل:

(أ) **قوة العاطفة:** لا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه، بمعنى: لا يؤثر إلا المتأثر، ومن ثم فلابد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه، ليفيض عليهم ويروي غلتهم.

(ب) **النفوذ وقوة الشخصية:** وهذه هبة من الله سبحانه وتعالى يهبها بعض الناس، كل من يلقاه يحس بقوة روحه، وعظم نفسه، فتستمد كلماته من نفسه قوة، صوته يهز القلوب، وإذا وهب الله خطيبا تلك الروح قاد الجماهير، وساقها بعصا موسى فلا تشرد منه شاردة، وقد أتى الله بعض خطباء العرب أشطرا من هذه القوة مثل: أكثم بن صيفي في الجاهلية، وأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي ابن أبي طالب، والحسن البصري، وواصل بن عطاء من علماء الكلام وأهل العقائد، وأبو حمزة، وقطري بن الفجاءة من الخوراج، ومن الزبيريين: اشتهر خالد ابن صفوان، ومن

(١) فلان ذرب لسانه: فصح بعد حصر.

بني أمية: اشتهر منهم بالخطابة زياد بن أبيه، ومعاوية بن أبي سفيان في الإسلام وناهيك بما كان عليه النبي ﷺ من قوة الروح فذلك نور النبوة، وعبقة قدسية، وقبس رباني.

(جـ) **أن يكون ثقة** بحيث لا يناقض قوله فعله، فتقل عند الناس مكانته، والخطيب الذي يمنح الثقة، عليه أن يجتهد في جلب الثقة، وأن يسوق كلامه في صورة محببه، مقبولة عند الناس.

(د) **التجمل في المظهر والثياب:** هذه وأن لم تكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة، إلا أنها ضرورية، فالانظار تتعلق بالمتكلم وبمنظره الخارجي، ألا ترى أن معاوية ﷺ لما رأي رجلا مرتديا عباءة رثة أنكر مكانه وهيئته، حتى اضطر الرجل إلى أن يقول له: إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها.

(هـ) **سعة الاطلاع والمعرفة:** لما كانت الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث فيه وعنه، بل ترتبط بكل شئون الناس في الدين والدنيا، كان لزاما على الخطيب أن يكون ملما بكل صنف من صنوف المعارف على قدر طاقته، وبكل ما له صلة بالجماعة التي يخاطبها، وطرق التأثير فيها، والابتعاد عن كل ما ينفرها[1].

العيوب البيانية وعلاجها:

سبق بيان صفات الخطيب، والتي إن حافظ عليها كتب له التوفيق والصدارة والآن نتناول العيوب التي تعرقل البيان، لكي يصلحها مريد الخطابة إن كانت عنده.

وهذه العيوب تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

يتعلق ببيان المراد، والوصول إلى الغرض..

القسم الثاني:

عيوب النطق.

القسم الثالث:

العيوب الصوتية.

(١) الخطابة: الشيخ أبو زهرة ص ٥٥ وما بعدها.

أما القسم الأول:

فالسبب فيه عدم السير على قوانين الخطابة وعدم الملاحظة في الالقاء، مثل عدم مراعاة مقتضى الحال، أو النقص في اثارة حماسة السامعين وكالسرعة الزائدة، وهذه بسبب عدم المعرفة بأصول هذا العلم.

أما القسم الثاني:

وهو عيوب النطق، وهي كثيرة، وأكثرها شيوعا، اللثغة، والتمتمة، والفأفأة واللقف، والحبسة:

أما اللثغة: فهي تعذر النطق بحرف والنطق بحرف آخر بدله. وبين الجاحظ[1]

الحروف التي دخلتها اللثغة فضل بيان:

الحروف التي تدخلها اللثغة أربعة أحرف وهي: القاف، والسين واللام والراء فأما التي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط، لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من المخارج والمخارج لا تحصى، ولا يوقف عليها، واللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء، كما يقولون بثرة، إذا أرادوا بسرة، باثم الله إذا أرادوا باسم الله. وأما اللثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاء: فإذا أراد أن يقول: قلت، قال طلت. وإذا أراد أن يقول: قال لي: قال طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء، فيقول بدل قوله: اعتللت: اعتييت، وبدل جمل جمي.

وأما اللثغة التي تقع في الراء، فإن عددها يضعف على عدد اللثغة في اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف: فمنهم من إذا أراد أن يقول عمر، قال: عمي، فيجعل الراء ياء، ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال: عمغ، فيقلب الراء غيناً، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو قال: عمذ فيجعل الراء ذالاً، وإذا أنشد قول الشاعر:

واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد
قال: واستبدت مذة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد

---

(١) البيان والتبيين: ١ / ٣٢ .

ومنهم من يجعل الراء ظاء.

وأما اللثغة:

التي كانت تعرض لواصل بن عطاء، وسليمان بين يزيد العدوي الشاعر في الراء فليس إلى تصويرها من سبيل هذا ما يقال في اللثغة على وجه الإجمال.

وأما التمتمة:

فهي التتعتع في التاء، ويقال لمن كانت فيه هذه الحال: تمتام.

الفأفأة:

هي التتعتع في الفاء، ويسمى من كان فيه هذا العيب فأفاء. قال الشاعر:

لســـت بفـــأفاء ولا تمـــتام ولا كثـــير الهـــجـــر في المـــنام

وأما اللفف:

فقد قال فيه أبو عبيدة إنه إدخال بعض الكلام في بعض، ومن كان كذلك سمي ألف. قال الشاعر:

كـــأن فيـــه لـــف إذا نطـــق مـــن طـــول تحـــبيس وهـــم وأرق

وقد قـال بعض الباحـثين: إن منشأ هذا العـيب في بعض الأحـوال أن الألفاظ بسبب سعة المخيلة تسبق القصد، فالمتكلم يـستعمل اللفظ ثم يتركه إلى سواه قبل أن يتم تكوينه.

وأما الحبسة:

فهي ثقـل النطق على اللسان، من غـير أن يتردد في حـروف بعينهـا كالفـأفاء، والتـمـتام، وقـد يكون السـبب في ذلك عـدم وضـوح ما يـريد أن يقولـه أو الحيـاء والخجل. هذه العيوب كلها قد تكون ناشئة بسبب عارض جسماني أصاب الجسم كاللثغة التي تكون بسـبب فقـد بعض الأسنان، أو بعض حمـيات يكون لـها أثر في أعـصاب اللسان، وكإنهاك شـديد للأعصاب، كتلك الحال التي وصفـها الشاعر في اللفف الذي كان منشؤه الهم والأرق، والتحبيس، وعـلاجها في هذه الحال يكون أولاً: بعلاج ذلك العارض والطب له بما عند الأطباء من دواء.

وإذا لم تكن هذه العيوب مما يتناوله الطب فإن بعضها يتعذر التخلص منه كاللثغة الفاحشة التي تكونت في الصغر، ونمتهـا العادة، وصلبت بكبر السن، وأصبح علاجها فوق الإمكان.

علاج اللثغة :

اللثـغة التي تكونت بمضي الزمن ولم تعـالج قبل اسـتقـرار العادات من المتـعذر الإقلاع عنها إقلاعًا تـامًا، يقول الجاحظ في لثغة الراء التي تقلبهـا غينًا: وأما التي على الغين فهي أيسرهن، يقال: إن صاحبها لو جهد نفسه جهده وأخذ لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها، والإفصاح بها لم يكن بعيدًا أن تجيبه الطبيعة، وإذا كان ذلك فليجتهد في سترها بالإقلال من الألفاظ التي تظهر عيب لسانه. وعلى الخطيب أن يعلم أن اللغة العربية من أغزر اللغات ألفاظًا، وأكثرها مترادفًا، وبعيد أن ترى معنى ليس له عدد من الألفاظ يدل عليه كذلك دلالات خطابية، وعلى من أصيب بلشـغة فاحشة أن يجتهد في تخفيفها، فإن ذلك في قدرته. . ، وما عدا اللثغة فإن الرياضة البيانية تفيد فائدة كبيرة . . ويلاحظ أن التأني في النطـق يفيد في هذه العيـوب عمومًا، واللفف خـصوصًا، فإن المتكلم إذا أخذ نفسـه به، وحملها عليه كان النصر من نصيبـه حتمًا، فالرياضة هي العمـاد في درء هذه العيـوب، والإرادة هي السلاح الوحيـد الذي يقيم به حـربًا عوانًا عليها، نتيجتها الفوز حتمًا ما لم يفل ذلك السلاح أو يلقى في غمده.

وفي كتـاب البيان والتبـيين للجاحظ : ذكر بعـضًا من مشهـوري الخطباء منهم: محمد بن شبيب، وهو من رجال الكلام، وكـان ينطق الراء غينًا، وكان يستبدل الكلمة بأخرى خالية من الراء ومنهم : واصل بن عطاء رأس المعتزلة، وكان ألثغ فاحش اللثغ، وكان مـخرج الراء منه فاحشًا شـنيعًا، وكانت مكانته مـن خصومه تحـوجه إلى الخطب الطوال، وأن تكون فصـيحة بينة الألفاظ، واضحـة الحروف فعمل جـاهدًا على إسقاط الراء من كلامه، فلم يزل يكابد حتى استـقام له أن يلقي الخطب خالية من حروف الراء مهما كانت طويله.

موقفه من بشار بن برد: كان يعدي بشارًا، وكان بشارًا يلبس قرطًا في أذنه على طريقة العجم، فكان واصل يقول عن بشار:

هذا الأعمى المشنف يريد ذا القرط، ومن كلامه فيه:

«أما لهـذا الأعمى الملحد المشنف المكنـي بأبي معاذ من يقـتله؟ أما والله لولا أن الغيلة من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ويقتله في منزله، وفي يوم حـفله، فتـحاشى اسم بشـار، وكلمة الكافـر، ويبقـر بطنه، وعلى فراشـه، وفي داره» . .

وكانوا يعجبون منه ومن حسن تصـرفه في الكلام لتحاشي هذا الحرف، ويتوقف هذا العمل على كثرة المفردات اللغوية لديه»[1].

القسم الثالث :

العيوب الصوتية :

كأن تكون رنات الصوت مزعجة، أو لا تكون من القـوة بحيث تسترعي الانتباه أو يكون بالخطيب ضيق تنفس، بحيث لا يستطيع أن يقول كلامًا مفيدًا من غير أن يقطع النفس بيانه، ويفـسد عليه اسـترساله. وهذه العـيوب بعضهـا يعالج بالمران، وبعضـها يستعان عليه بالطب مع المران.

وقد كان قدمـاء اليونان يعنون عناية خاصة بتربية الصـوت، ويجعلونها فنًا قائمًا بذاته، يتعـلمه الشبـاب ليسـيطروا على أصواتهم، وليـجعلوا من المران دواء للعـيوب الصوتيـة، وكان (ديموستين) ضـعيف الصوت فـلما أراد أن يكون خطيبًا راض نفـسه، فأخذ يقـوي رئتيه وصوته بالصياح، وهو يـصعد الجبال الوعرة، أو على سـاحل البحر مـحـاولاً أن يـكون صـوته أعلى من صـــخب الأمـواج، وقـد تم له مـــا أراد بتلك المحاولات[2].

---

(١) نقلاً عن الخطابة وإعداد الخطيب .

(٢) الخطابة ص ٥٩ وما بعدها بتصرف واختصار (٢).

فنون القول تتجلى في ميادين الخطابة

الفنون : جمع فن.

والفن: هو جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر، والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال كالتصوير، والشعر، ومهارة يحكمها الذوق والمواهب.

والقول: من قال قولاً ومقالاً ومقالة تكلم، ويستعمل القول مجازًا للدلالة على الحال[١] .

أما ميادين: فواحدها ميدان : والميدان : فسحة من الأرض متسعة معدة للسباق أو للرياضة، ونحوها[٢] ، والميدان هنا هو ميدان القول وفنونه تصول فيه الكلمة وتجول، وهو إطلاق مجازي .

أما الخطابة فهي من خطب الناس أي ألقى عليهم خطبة، وخطُب خطابة صار خطيبًا. وهي عند المنطقيين: قياس مؤلف من المظنونات أو المقبولات ـ كما سبق ـ وحيث إن الخطابة نوع من فنون القول فإن أرسطو حصرها في ثلاثة أقسام:

١ ـ الخطب التثبتية .

٢ ـ الخطب القضائية .

٣ ـ خطب المشورة.

وهذا التقسيم تابع لأوقات المعاني الخطابية، فالخطب التثبتية: هي التي تتعلق بالمدح، أو التأبين، أو التعزية، وغيرها من الأمور التي تتعلق بحادث ثابت أو حال قائمة في زمنها الحاضر، ومن ثم سميت تثبتية.

والخطب القضائية هي التي تتعلق بأمور وقعت في زمن مضى، ويتناقش الخصمان في شأن تبعاتها، وملابساتها في زمنها الماضي، إذ أكثر معانيها يتعلق به، كما يطلب من المحكمين حكم القضاء في حدث قد وجد بالفعل وانتهى زمنه، ويراد منهم الحكم بالبراءة أو العقوبة، فموضوع الخطبة القضائية يدور حول حدث قد انتهى.

---

(١) المعجم الوسيط : مادة : قال.

(٢) المعجم الوسيط مادة : ماد.

أما خطب الشورى: فتتعلق بأخذ الأهبة للمستقبل، وإعداد العدة لما يكون فيه، ولذلك كان أكثر معانيها يتعلق بالمستقبل وهو زمن وقوعها.

وقد قسم أرسطو الخطب إلى ثلاثة أقسام تبعًا لأجزاء الزمن فمن الخطب ما يختص بالحاضر كخطب التكريم، والدعوة إلى مشروع معين، فالخطيب يعنيه في المقام الأول أن يثبت في أذهان سامعيه واقعة وحادثة في الوقت الذي يتكلم فيه، وهناك خطب تختص بالأمور المستقبلة كالخطب التي يطلب بها تقرير قانون، أو إنشاء شيء فالخطيب حينئذ يستحث الناس على عمل لم يحدث بعد [١].

وهذا التقسيم يتسم بالدقة والتنظيم؛ لأنه لا يتداخل بعض أقسامه في بعض.

تنوع فنون الخطابة:

يرجع تنوع الخطابة تبعًا لحاجات الأمة وأحوالها وشؤونها والضرورة الدافعة إلى القول الخطابي.

وقد شاعت الخطابة وتنوعت موضوعاتها باختلاف ميادينها، ولكل منها طرائق خاصة، ومناهج بيانية امتازت بها وطرق للسبق فيها والغلب في ميادينها.

وقد تم حصر فنون القول على تباين موضوعاتها في أقسام جامعة لها وهي:

١ ـ الخطب السياسية .

٢ ـ الخطب القضائية .

٣ ـ الخطب الدينية .

٤ ـ الخطب العسكرية .

٥ ـ المحاضرات العلمية.

٦ ـ خطب المدح والشكر.

وإليك بيانها:

---

(١) راجع الخطابة وإعداد الخطيب للدكتور عبد الجليل شلبي ص ٧٨ .

أولاً الخطب السياسية :

من ميادين الخطابة الهامة، وله السبق على كل ميادين الخطابة، وصاحبه إذا كان مبرزًا فيه تبوأ مكانًا مرموقًا، يفتح أمامه طريق المجد والشهرة، خاصة إذا كان يخدم عقيدته، وأمته بصدق وإخلاص، فإذا قام متحدثًا وطالب - مثلاً - بقيام حكومة على نظام العدل والشورى والديمقراطية، لتتبوأ بلاده أريكة الحرية الحقة.

وهذه الخطب هي التي تلقى في المجالس النيابية، أو الشورية، أو النوادي العمومية، التي ينظر فيها النواب، ورجال الشورى في شؤون الدولة، وأمور الرعية لسن القوانين العادلة، وتنظيم الدوائر الرسمية كالمالية والعدل والدفاع، والتربية والتعليم.

وما يناط بكل ما فيها، ولهذه الخطب شأن كبير، فإن عليها مدار حياة الأمة ورقيها ماديًا وأدبيًا، والعمل في الحرب والسلم، وتكون في الدولة الدستورية الحرة سواء أكانت جمهورية يديرها نواب الأمة، أم ملكية يخضع ملكها للدستور فيملك على الدولة ولا يسوسها إذ الحكم فيها لنوابها، ومثلها الولايات المتحالفة في تدبير شؤونها الخاصة، أما الدولة ذات السلطة المطلقة فلا يكون لمثل هذا الخطيب عندها مكان؛ لأن الأمر في يد الفرد يأمر وينهى كما يشاء[(١)].

ويتوقف نجاح الحياة السياسية لأي مجتمع على درجة الاشتراك الفعال بين أفراده جميعًا على اختلاف أنواعهم وطبقاتهم، وهذا المجتمع يستلزم لوجوده حكومة تعمل في دأب وقوة على مصلحته ورقيه[(٢)].

سمات الخطب السياسية :

للخطب السياسية عوامل أو سمات تتميز بها عن غيرها، فهي توجه حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء في علاقتها الخارجية، أو أعمالها الداخلية ومن هذه العوامل ما يلي:

أ- هذا النوع من الخطب عرف عند اليونان قديمًا، فقد كانوا يستعرضون أحوال

(١) راجع للشيخ علي محفوظ: فن الخطابة وإعداد الخطيب ص ٨٢ .

(٢) راجع للدكتور أحمد غلوش قواعد الخطابة : ص ١٢١

الدولة وما يجب أن تعمله للنهوض بأبنائهــا، وما يجب أن تفعله عند دخول حرب مع دولة ما، أو تحاشي الاشتباك معها، فـاليونان مهد الديقراطية منذ القرن الخامس (ب.م) منحت رعاياها حق إداء الرأي في حرية.

ب- اكتسبت الخطب السياســية مكانتها لأنها لا تلقى إلا في البرلمان، ولأن من حق الخطيب البرلماني أن يقترح على حكومته، وأن يشرع لها، وأن ينقدها فيما تخطئ فيه، وهو لهذا يتمتع بحصانة برلمانية تتيح له الحرية الكافية في أن يقول ما يشاء.

ج- تعد خطب الدعاية الانتخابية من قبـيل الخطب السياسية لأن المرشح للبرلمان يبين جوانب السياسة التي يريد أن يتبعها كما يقــوم ببيان عيوب السياسة التي يعارضها، كما يـلحق بهذا أيضًا المؤتمرات السياســية التي تقام لحضــور عضو من أعضــاء الحكومة لشرح سياستها.

د- لا يزدهر هذا اللون من الخطب إلا في البلـدان التي تبيح تعـدد الأحزاب السياسية، فربما تحدث رئيس الحزب أو أحد أعضائه، وربما تستغرق الخطبة ساعة أو أكثر . . يقولون فيــها بحرية معـبرين عن آرائهم واتجاهاتهم، وهذا لا شك مـجال خصب لظهور نوابغ الخطابة على مســرح الحياة السياسية، وظهــور الحب الخالص للوطن بعيدًا عن الأنانيـة وحب الغلبة الشخـصيـة. وإليك نموذج من الخطب الديمقراطيـة التي تعني حب الوطن . . خطب ونسـتـون تشـرشل خطبـة اتســمت بالبـلاغة والديمقــراطيـة، والنزاهة، وتعرض فيها لهجوم شـديد على (تشمبرلين) رئيس وزراء انجلترا حينذاك في أول قيـام الحرب العالمية الثـانية(١٩٤٠) مع أنهمـا كانا من حزب واحد وتتـجلى روعة الإخلاص عندما تنحى تشمبرلين عن رئاسة الوزراء، وتولاها تشرشل فكان (تشمبرلين) من أكبر مـعاونيه ومشـجعيه، مما دل على أن عـملهما كان خالصًا للـوطن ولا أثر فيه أصلاً للجانب الشخصي.

هـ- ضعفت الخطابة في العصر الوسيط فـي البلاد الأوربية، بينما نهضت قوية جدًا في الأمة العربية، ثم نهضت في العصر الحـديث عصر البرلمانات، والحياة النيابية، فنضجت الخطابة الســياسيــة كثيرًا وتهـذبت، وكانت فرنســا إبان الثورة الفرنسيــة أسبق الدول في هذا الميدان، واشتهر من خطبائها: (ميرابو)، ولامرتين، وروسيين وغيرهم.

و- اتسعت دائرة الخطب الســياسية، وتخطت الأحزاب والبـرلمانات إلى المحيط

الدولي حيث تشابكت مصالح الدول وتعقدت فأنشأت عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى . ., ثم حلت محلها هيئة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية، وفي كلتا الهيأتين تبودلت خطب سياسية هي بلا ريب أوسع وأهم من خطب الأحزاب والبرلمانات.

ز-شارك الوطن العربي في هذه الخطب السياسية فأنشئت الجامعة العربية التي كانت ميدانًا خصبًا للخطب السياسية [1]، أما العوامل التي أدت إلى هبوط الخطابة السياسية فهي كما يلي:

١-كانت الخطابة بيد الملوك والأمراء فنشطت العقول لتعلمها، ثم تركها الملوك والأمراد لترفعهم أو لانشغالهم عنها . .

٢-عدم اهتمام المثقفين المسؤولين بالخطابة، وانشغالهم بمعايشهم وأعمالهم، فضعفت الخطابة بضعفهم وقل اهتمام الناس بها.

٣-دخول الفلاحين والعمال البرلمانات فهم يجهلون الخطابة وقواعدها.

٤-أما الطامة الكبري فتتمثل في جنوح السياسيين إلى استعمال العامية فضاعت على أيديهم الخطابة السياسية.

٥-ضعف العائد المادي كان أحد أسباب انصراف الشباب عن هذا العلم مع تعرضهم للمساءلة من قبل بعض المسؤولين، إذا خرجوا عن حدود الخطط المرسومة لهم.

صفات الخطيب السياسي، ومكونات خطبته:

ينبغي على الخطيب السياسي أن يعرف مدى تأثير كلامه في السامعين فليس كل ما يقال يصدق، ومن ثم فإن نجاح الخطبة يقوم على الإقناع والاستمالة وهي تحتاج إلى عاملين :

العامل الأول:

أن يؤيد الخطيب كلامه بالأدلة المقنعة. وهدم الآراء المعارضة، وذلك لأن الخطيب يحرص أن لا يدع مجالاً للرأي المعارض.

(١) راجع الخطابة وإعداد الخطيب ص ٧٩ . وفن الخطابة وإعداد الخطيب ٨٢ . . . .

العامل الآخر :

أن يبرز في ذهن سامعيه ما ينفرهم من خصمه، ويجعلهم ينفضون من حوله ويطردهم عنه.

ومن أهم صفات الخطيب السياسي :

أولاً : أن يكون ذا دراية تامة بالقوانين الدولية والحقوق الشخصية والمدنية ملمًا بأسرارها الداخلية والخارجية، وأحوالها المادية لصلة ذلك بحياة الأمة ليتسنى له إظهار العدل ونصرة الحق والعمل على ما فيه سعادة الأمة.

ثانيًا : أن يكون مخلصًا في محبة وطنه غير متحيز لشخص، أو ضد إنسان، فلا يرى أمامه إلا العمل في الخير المحض الذي يعود على أمته.

ثالثًا : أن يدرس الموضوع دراسة متأنية واعية ليكون حكمه صائبًا فيقنع سامعيه كما تمكنه هذه الدراسة من الرد على معارضيه، وتفجؤهم بمبادئ ومعان لم تخطر ببالهم فيسكتهم كما يجب عليه أن يعد بجانب هذه الدراسة عبارات خطبته التي يوضح بها الأفكار التي درسها.

رابعًا : أن يكون حر الضمير فلا يملكه لأحد مستقلاً في رأيه لا مقلدًا فيه لغيره.

خامسًا : أن يكون مقتنعًا بالمبدأ الذي يدعو إليه، لأنه يمنحه حرارة وقوة في خطابه ويمده بمعان جديدة وعليه أن يقدم للناس نفس الأسباب التي اقتنع هو بها وعليه أن يستخدم أسلوب الإقناع، وهو أسلوب إثارة عاطفة المستمعين.

سادسًا : أن يدرس آراء معارضيه ليفندها، ويضعف تأثيرها ويلزم الموازنة بين مذهبه ومذهب الآخرين المعارضين، وأن يقيم الأدلة الحسية، والعقلية على ما فيه منافع الأمة، وعيوب مذاهب معارضيه وأضراره، وما يصيب الأمة من تطبيقه.

وبالإضافة إلى ما تقدم أن يكون شجاعًا في قوله ينأى بنفسه عن تناول خصومه من الجوانب الشخصية أو مغامز في سلوكهم، أو تاريخهم فهذا إسفاف بالخطيب، وقد ينتج عكس ما يريد [1].

---

(١) راجع الخطابة وإعداد الخطيب ص ٧٩ ، وفن الخطابة وإعداد الخطيب ٨٢ ..

وبالإضافة إلى ما سبق .

أن يكون شجاعًا ذا عـارضة ولسن بعيدًا عن الغـضب ليقوم في وجه معـارضيه بالحجة الدامغة وهذه وإن كـانت من لوازم الخطيب مطلقًا إلا أنها في الخطيب السياسي ألزم فـما أحـسن العلم مـع الحلم، وما أحـسن الشـجـاعة مع الأدب، ومـا أحـسن الإخلاص مع الوفاء.

سابعًا : قد يفاجأ الخطيب السياسي في أكثر من موقف من يعارضه، أو يقاطعه في حديثـه فعليه أن يوطن نـفسه، ويشـعرها أنه كالمناظر قلمّا يسلـم من تنافس ولهذا يجب أن يكون رابط الجأش ثابت القلب حـاضر الذهن فلا يتزعزع لهـذه المقاطعة بل سرعان ما يجـد الإجابة الحاضرة، وقد يستعمل في هذا الموقف شـيئًا من هذه السخرية والاستهانة وهي في الغالب تمنحه فرصة من الوقـت ليفكر تفكيرًا جديدًا، أو ليستخرج ردًا ما على خصمه.

والخطيب الشجاع الجرئ لا يتزعزع لهذه المقاطعة، وربما عدل إلى جانب آخر من الحديث واعـتراض صاحـبه، أو رد عليه ردًا غـير كاف ليـشغل الناس بحديثـه الجديد وبعبارة أخرى ليقابل الهجوم عليه بهجوم آخر[1] .

الفرق بين الخطبة السياسية، والكتابة السياسية :

في الخطبة تبادل آراء.

والكتابة إلقـاء آراء، فالكاتب يوضح ما يريد وهو منفـرد مستقل يسـتطيع تفادي بعض الوجهات المعارضـة، ثم إنه لديه فسحة في إعداد خطبته بدقة، واخـتيار الألفاظ الجيدة، كل ذلك لا يتأتى للخطيب[2] .

نماذج من الخطب السياسية :

عندما كـانت مصر تتفـاوض مع الإنجليز كان سعـد زغلول على رأس المفاوضين وكان للأحزاب الأخرى مواقف متضاربة، ولكنه أكد لمستمعيه أنه لن يفرط في شيء من حقوق البلاد، وكان من خطبته في هذا الشأن قوله:

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب .

(٢) المرجع نفسه.

«. . . إن الثقة التي شرفتني الأمة بها لا يمكن أن تنعدم كما قلت لوفدكم بالأمس إلا في واحدة من حالتين:

إحداهما : أن تعدل الأمة بنفسها على طلب حريتها، واستقلالها وترضى الحماية ،وإني أعيذها من هذا الخبال.

وأخراهما : أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأها ـ يعني نفسه ـ فبدلاً من أن يسعى للاستقلال سعى في غيره وعمل لسواه، وفي هذه الحالة لا يصلح أن يكون جزاؤه التنحية منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالإعدام، ويكون حكمها من أعدل الأحكام.

وإني أبيح دمي إذا ر أيتم مني انحرافًا عن قصدكم، أو تسامحًا في حقوقكم، أو خروجًا عن حدود المهمة التي عاهدتكم على القيام بها، وما عدلت ولن أعدل عنها ـ مادام في عرق ينبض، أو نفس يتردد، وإني أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات في طريقها، مهما كانت رابطته معنا، وحاله من الصداقة لنا، ولقد قاطعت كثيرًا من أصدقائي لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصًا علي التمسك بحقوق الأمة، فكل من رأيت فيه تهاونًا في السعي وتواكلاً في العمل، أو تسامحًا بحقوق الأمة،وأعيتني الحيلة في إصلاح شأنه قطعت بيني وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها. . أفعل ذلك غير آسف لأن حقوق الأمة لا تقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب . . »[1].

الخطبة تدور حول تأكيد حرصه على مصالح بلاده وقد قدم الأدلة الكافية من غير أن يجرح أحدًا من خصومه. ولكنه وضح أنه يضحي بحياته في سبيل وطنه كما يضحي بكل صديق عزيز عليه لأن حقوق الأمة لا تقبل المجاملة، ووظيفته هي العمل لها لا للأصدقاء.

وتلاحظ أن أسلوب الخطبة قوي رصين، وهكذا كان سعد. . قوي الحجة، قوي التعبير وترجع قوة أسلوبه وسلامة لغته إلى نشأته الأزهرية، وتكوينه الأدبي في الأزهر.

وهذا نموذج آخر للخطبة السياسية لمصطفى كامل بالأسكندرية ١٨٩٧ . نقتطف منها ما يلي :

«. . .ومن المستحيل أن يكون الوطن في خطر ونحن نيام، وأن يعمل الأجنبي

(١) نقلاً عن المصدر السابق ص ٨٣ .

لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا، بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل لنا ولا حراك. ألقو ـ أيها السادة ـ بأنظاركم قليلاً إلى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه، ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه. بل هو يرضاهما ضحية للوطن، ويرضى نفسه قبلهما قربانًا يقدمها لإعلاء شأن بلاده، ويعد الموت من أجل الوطن حياة دونها حياة البشرية، ووجودًا فلم لا يكون المصري على هذا الطراز ووطنه أجمل الأوطان، وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة؟» [١].

والخطبة تتدفق منها الوطنية والحرارة المملوءة بالعاطفة، مع الأسلوب السهل، كما أنها تمتاز بالتأثير الواضح على السامع ،القارئ . . كما أنها ترغب كل مصري في التضحية المخلصة من أجل الوطن، أما الأسلوب فهو سهل دارج. . فلو أنه قال مثلاً:

اذكروا مصر كما يذكر الولد البار أمه الحنون، لكان أدق؛ لأن الحنان صفة الأم والبر من واجبات الأولاد.

ولو أنه ذكر أن الأجنبي يعمل لاستعبادنا واسترقاقنا، بل للقضاء علينا وسلب حياتنا لكان أدق لأنه ترق من الاستعباد إلى الإهلاك، وسعد زغول أقوى منه تعبيرًا بلا ريب [٢].

أنواع الخطب السياسية:

تتنوع الخطب السياسية تبعًا لتنوع أهداف المجتمع الإنساني إلى ما يلي:

أولاً الخطب الجماهيرية: وهي الخطب التي توجه إلى جماهير الشعب بقصد حملهم على عمل، أو إقناعهم بفكرة، ويكون المتكلم فيها رئيس الدولة، أو أحد الوزراء، أو زعيم الحزب، أو مرشح في الانتخابات الشعبية.

ثانيًا الخطب النيابية : وهي الخطب التي يلقيها عضو نيابي منتخب، أو أحد الوزراء أو رئيس الدولة في المجلس النيابي ـ كما سبق ـ

ثالثًا خطب الهيئات وهي الخطب التي تلقى في النوادي ،وفي المؤتمرات المحلية، وفي المؤتمرات العالمية.

---

(١) الخطابة . . . للشيخ محمد أبي زهرة ص ٣٨، والخطابة وإعداد الخطيب .
(٢) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٨٥ . .

خصائص الخطابة السياسية :

تتميز الخطابة السياسية بمجموعة من المزايا وتتنوع تبعًا لنوع الخطبة السياسية ـ كما سبق ـ أما الخطب الجماهيرية فتختص بما يلي :

أ ـ مناسبتها للجماعة المخاطبة، ولذلك تأتي معبرة عن الآمال والرغبات الجماهيرية متفقة مع معتقداتهم وعاداتهم متلائمة مع مستواهم العقلي والثقافي، مراعية المناسبات التي يعيشونها، إن الخطابة الجماهيرية تحتاج إلى المستمعين أكثر من احتياج المستمعين إليها ولذلك رأينا كثيرًا من وسائل القرب النفسي التي تكون فيها.

وبما أن الخطبة الجماهيرية يلقيها رئيس الدولة، أو زعيم الحزب، أو المرشح الانتخابي فوجب أن تكون الخطبة واضحة للمستمعين قريبة منهم.

ب ـ بساطة الأسلوب وسهولته؛ لأن الجمهور دائمًا من العامة ولو لم تراع الخطبة هذه البساطة لصنعت حاجزًا يفصل المستمعين عنها وهذا مالا يرجوه الخطيب لنفسه.

جـ ـ وضوح الروح الشورية، وذلك أن الاتجاه إلى الجمهور يقتضي دائمًا جذبه، وفي السياسة لا يمكن استمالته إلا بإبداء الثناء، وإظهار أهمية مشاركته في الحياة العامة.

والمرشح .. يبرز بوضوح حاجته إلى سائر الجماهير ؛لأنه بهم يكون، وبأصواتهم يصل إلى مبتغاه .

د ـ بروز وعود خاصة للمخاطبين، لأن القادة والمرشحين لا يخطبون الجماهير إلا في أحداث معينة من أجل وضع تنظيم جديد، أو تأدية انتخابات جديدة وفي هذه الحالات لابد من تقديم صورة موجزة عن المستقبل المرتجى، وفيها دائمًا وعود للأفراد والجماعات.

إن رئيس الدولة حينما يوجه خطابًا إلى أمته يبرز لهم ما أداه، وما سوف يؤديه في القريب الآتي، والمرشح حينما يطلب من الناس أن ينتخبوه يمنيهم بمستقبل جديد يأمنون فيه على غدهم.

والواجب أن تحد هذه الوعود بالواقع؛ لأن المبالغة فيها يؤدي إلى عكس المراد حيث يتضح الكذب من المبالغة، وأيضًا فإن الجماهير تراقب دائمًا هذه الوعود السياسية

وتحكم على صاحبها بمقدار صدقه فيها، خاصة والانتخابات تتكرر والمناسبات السياسية عديدة لا حصر لها.

هـ - وجود المقارنات فيها: وذلك لأن الرجل السياسي مضطر لإبراز رسالته بالتفصيل وشرح مزايا اتجاهاته وهو لهذا يقارن بين منهجه، ونظريته وبين مناهج الآخرين ونظرياتهم وذلك كله في أدب واتزان[١].

خصائص الخطابة النيابية:

الخطابة النيابية - كما سبق - هي التي يلقيها مسؤول داخل المجلس النيابي سواء كان هذا المسؤول رئيس الدولة، أو وزيرًا أو نائبًا، أو رئيسًا للوزراء، فإن هؤلاء جميعًا من الخاصة شأن المجلس كله على اعتبار أن الشعب لا يختار لتمثيله، ولا يزكي لقيادته إلا شخصًا امتاز بالعقل والثقافة والإدراك، ولذلك تمتاز هذه الخطب بما يلي:

١- الدقة التامة: فلابد أن تكون هذه الخطبة دقيقة اللفظ والمعنى دالة على هدفها بوضوح. حتى لا تقابل بمعارضات المستمعين الذين يتابعون بوعي ويرقبون بإدراك.

إن المسؤول حينما يوجه خطاب الافتتاح - مثلاً - إلى مجلس نيابي يضع خطابه في شكل نظريات مختصرة دالة على المقصود في دقة متناهية.

والنائب الذي يخطب، في موضوع مطالبًا بالإصلاح هو الآخر يتمسك بالدقة حتى يصل إلى مراده من أقصر طريق.

٢- مراعتها للنظم السياسية: يجب أن تراعي الخطبة السياسية النظام السياسي للدولة. ذلك أن النظم الملكية تغاير النظم الجمهورية، والنظم الرأسمالية تغاير النظم الشيوعية. وأيضًا فإن كل مجلس نيابي له لائحته التي تنظم العمل في داخله، والخطب... ينبغي أن تسير على النظام الموضوع لها داخل المجلس ووفقًا للائحته.

٣- اشتمالها على دراسة واسعة، تتضمن دراسات واسعة حول موضوعها، وذلك شرط لازم لدقتها، والتزامها بالنظام الموضوع.

---

(١) قواعد الخطابة ص ١٢٤ بتصرف.

إن المسؤول الذي يتحدث في موضوع ما، يحيطه بالدراسة والمعرفة ويقدمه صورة متكاملة للمجلس حتى يوافق عليه، كما أن النائب الذي يتكلم في موضوع ما عليه أن يحيطه بالدراسة الوافية ـ فهل يستطيع النائب الأمي أن يقوم بمثل هذه الدراسة؟ ثم إن الدراسة الوافية لا تختلط بغيرها من الموضوعات، فالموضوع الزراعي يغاير الصناعي، والطبي.. إلخ، ومن هنا كانت سعة الدراسة هامة وضرورية.

٤ ـ ميلها إلى العقل أكثر من العاطفة: وذلك أمر عادي نظرًا للمستمعين، لأنهم جميعًا من الطائفة الراقية التي يهمها المعنى المحرر أكثر من الإثارة اللفظية ولكن يجب أن يكون الأسلوب بعيدًا عن الجدل السفسطي والإطناب الخطابي.

خطب الهيئات:

أما خطب الهيئات فهي تلك التي تلقى في النوادي المحلية في المناسبات المختلفة أو في المؤتمرات المحلية، أو في المؤتمرات العالمية، ومن مميزاتها ما يلي:

أ ـ مراعاتها للمناسبة، وهذه الخاصية وإن كانت عامة في جميع الخطب إلا أنها في هذا النوع أكثر أهمية؛ لأن الهيئة تعقد اجتماعاتها من أجل غرض معين.

وأحيانًا يقسم المجتمعون أيام مؤتمرهم لبحث موضوعات معينة كل موضوع في يوم.. ومن هنا لزم مراعاة المناسبة حتى يتضح الموضوع ولا يختلط موضوع بموضوع آخر.

ب ـ الدقة التامة، وهذه خاصية لازمة؛ لأن المؤتمرين جميعًا من الخاصة ـ ويجب مراعاة ذلك حين الخطبة في المؤتمرات المحلية والعالمية[1].

ثانيًا: الخطبة القضائية:

وهي التي يلقيها رجال المحاماة أمام المحاكم القضائية أهلية كانت أو شرعية ـ الأحوال الشخصية الآن ـ أو المجالس الحسبية، وكذا ما يلقيه رجال النيابة أمام القضاء لإدانة الجناة.

(١) قواعد الخطابة .. ص ١٢٢، والخطابة وإعداد الخطيب ص ١٦٦.

وجه الضرورة إليها:

وجود المنازعات التي قد تنشب في المجتمعات البشرية، وهذه تحتاج إلى الفصل فيها ليستقر الحق، وينتهي الباطل، ومن هنا وجد القضاء. .الذي يحتاج بدوره إلى الخطابة القضائية.

وهذا النوع قديم قدم الجنس البشري، وبما أن الفصل في الخصومات على وجه الحق أمر عسير، وحل معضلات القضايا، وتحري العدالة الحقيقية أمور فوق قدرة البشر، وقد قال رسول الله ﷺ؛ فيما روته السيدة أم سلمة رضي الله عنها: «**إنكم تختصمون إليَّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار**» متفق عليه.

وقال سعد زغلول وهو من رجال القانون، عمل في المحاماة، وفي القضاء، وفي الاشتراع: يظهر لي أن العدالة الحقيقية غير موجودة في هذا العالم. لهذا كله كانت مجالس القضاء مكانا لمغالبة الخصوم، ومقارعة الحجج، وميدانا فسيحا للاستدلال الخطابي، كل يحاول جذب القضاء إلى فكرته، وإقرار دعواه.

وقد كان هذا النوع موجودا في زمن موسى عليه السلام، وعند قدماء المصريين، وعند اليونان فكانت للخطابة في هذا الشأن أثر واضح في إثارة الوجدان والعواطف. . . وعند الرومان، كما هو الحال في هذه العصور [1].

الأمور التي تعتمد عليها الخطابة القضائية:

١ ـ دراسة أوراق القضية، واستيعاب أجزائها بحيث لا يغيب عنه أدنى جزئية منها.

٢ ـ ترتيب ما أخذه منها في صورة منطقية متسلسلة تسلم كل نقطة إلى تاليتها بدون أن يشعر السامع بفجوة، أو انقطاع في الأسلوب، فهذا يضعف الخطبة ويقلل من شأنها.

٣ ـ جودة الأسلوب، وقوة التعبير له تأثير كبير في إنجاح الخطبة القضائية، وكبار

(١) الخطابة. . .للشيخ محمد أبي زهرة ص ١٦٩، وفن الخطابة ص ٩٥.

المحامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد القاءها، ويستفيد منها المحامون الآخرون والخطباء.

٤ ـ أن يتصف المحامي بما يلي:

أ ـ أن يكون على شيء غير قليل من أدب اللغة، ليجد فيه بغيته متى أعوزته الحاجة إليه.

ب ـ أن يكون ملما بقواعد علم النفس والاجتماع.

جـ ـ أن يكون ثابت الجنان يملك زمام نفسه عند المفاجآت، فلا يسد عليه انفعاله مسالك التفكير.

٥ ـ الهدوء التام، ومجانبة الغضب، والاجتهاد في ضبط نفسه، وعدم مسايرتها في سبيل الغضب. فإن المناقشات التي يسودها الغضب تدفع إلى المهاترة، والمهاترة نوع من الحمق والجهل، وإذا استرسل المحامي في غضبه ضاعت حجته. وربما أدى هذا إلى الغلبة عليه [١].

ثم أن الخطبة القضائية مصدر ثقافة قانونية، وفي قليل من الأحيان تجد المحامي باحثا عن الحق داعيا إلى طرق العدالة متعاونا مع القاضي في إحقاق الحق ودفع الظلم، وربما لا يوجد هذا إلا مع محامي حكومي، فالحكومة كما يقولون: خصم شريف أما المحامون المأجورون، فإنهم لا يعنيهم إلا نجاحُهم ولهذا يلجأ الواحد منهم أول ما يلجأ إلى تجريح الشاهد، أو التماس فارق بسيط بين أقوال الشهود ثم يطيل في خطبته لإقناع موكله أنه بذل جهدا، مع العلم بأن المحاماة لم تشرع لمثل هذا العمل [٢].

خطب الصلح بين الخصوم:

تتعلق خطب الصلح بين الناس بالخطب القضائية، في أن كلاً منها قد نجم عنها ما يهتم بمصالح الناس وراحتهم، والحفاظ على حقهم من الضياع، وإنصاف المظلوم من الظالم، وهذا النوع من الخطب كان موجودًا لدى اليونان، ثم الرومان، كما كان

(١) الخطابة واعداد الخطيب ص ١٧٨ .
(٢) المرجع نفسه ص ٨٧ .

موجودًا عند العـرب قبل الإسلام مشهورًا في مجـتمعاتهم يقررون فيـها شؤون الديات والقصاص والمغارم.

وهذه خطبة في الإصلاح بين الخصوم :

لهاشم بن عبد مناف :

سببـها : مـا نشب بين قريش وخـزاعة من خلاف أدى إلى قـطع أواصر الرحم بينهما، وأثار فيهـا خصومة اشتدت، وعُنفت حتى كادت تجـر عليهما أوخم العواقب، مع أنهما يلتقـيان في النسب، وينتميان إلى أصل واحد، وأدرك عـقلاء القبيلتين الخطر الذي يتهددهما، فنفروا إلى هاشم بن عبد مناف لسـيادته، ومكانته فخطب فيهم الخطبة التالية، ليصلح بينهم ويستل ما في الصدور من أسباب العداوة والبغضاء. قال:

«أيها الـناس : نحن آل إبراهيم، وذرية إسمـاعيل، وبنو النضـر بن كنانة، وبنو قصي بن كـلاب، وأرباب مكة[١] وسكان الحرم لنا ذروة الحـساب[٢] ومعـدن المجد، ولكل في كلٍّ خلف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق[٣] عشيرة وقطع الرحم.

يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كُسر أوحش صاحبه[٤]، والسيف لا يصان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه ومن أغضبه اللجاج[٥]، أخرجه إلى البغي ثم قال:

أيها الناس: الحلم شرف، والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد[٦]، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غِيَرٌ[٧]، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله، فاصنعوا المعروف تكسبوا الحـمد، ودعوا الفضول[٨]، تجانبكم السفهاء، وأكـرموا الجليس يعمر

---

(١) ذو الشأن فيها .

(٢) ذروة الشيء أعلاه، والحسب الشرف.

(٣) العقوق عدم البر بها، وجر الشر عليها.

(٤) شعر له بالوحشة والانفراد.

(٥) المبالغة في الخصومة .

(٦) السؤدد : الشرف .

(٧) أي متقلب.

(٨) مالا فائدة فيه ولا طائل من ورائه.

ناديكم، وحابُّوا الخليط[١] يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم[٢]، يوثق بكم وعليكم مكارم الأخلاق، فإنهـا رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة؛ فـإنها تضع الشرف، وتهدم المجد، وإن نهـنهة الجاهل[٣] أهون من جزيرته، ورأس العشيـرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به.

فقالت قريش: رضينا بك أبا نضلة وهي كنيته[٤].

التـعليق: قال الإمام الماوردي بعـد إيراد هذه الخطبة في كتابـه أعلام النبوة: فانظروا إلى ما أمـر به من شريف الأخلاق، ونهى عن مساوئ الأفـعال، هل صدر إلا عن غزارة فضل، وجلالة قدر وعلو همـة، وما ذاك إلا لاصطفاء يراد، وذكر يشاد لأن توالي ذلك من الآباء يوجب تناهيه في الأبناء.

فنلاحظ هنا أن خطب الصلح عـمل قضائي يحـاول الخطيب إحلال المودة مكان الخصام، وهذا العمـل كان معروفًا قبل الإسلام، واستـمرت هذه الخطب في الإسلام، لأنه يأثر الصلح على القضـاء لما فيه من إزالة الشحناء، ولقـد تفاءل رسول الله ﷺ بالحسن بن علي ﷺ وقال:

«إن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين» أو كما قال ﷺ .

ومازال هذا النوع من خـطب الصلح مستـعملاً في المنـازعات بين قبـائل الوجه القبلي، وبين أهل الريف في الوجه البحري، والدلتا.

وقد يعقد الخطيب خطبـة خاصة في يوم الجمعة يكون موضـوعها الإصلاح بين الناس يحضرها أهل الطائفتين، ومن يناصر الخير من أهل الخير.

وتركز خطب الصلح على ما يلي :

١- الدعوة إلى العفو والتسامح في الصفح.

٢- عدم الانتقام والتشفي لأن عاقبتهما وخيمة.

---

(١) المخالط : المعاشر.

(٢) كونوا منصفين عادلين، ولو على أنفسكم.

(٣) زجره.

(٤) بلوغ الأدب للألوسي جـ ١ ص ٣٢٢ .

٣ـ التحذير من تجدد المعارك وسفك الدماء.

٤ـ يستشهد الخطيب بمواقف رسول الله ﷺ مع قومه عندما عفا عنهم، وقد أساؤوا إليه، وموقفه من أهل الطائف، وغيرهم مشهور ومعلوم [١].

كما يذكر ما نال الإمام أحمد رحمه الله على يد المعتصم العباسي، والواثق من التعذيب والسجن، ثم مسامحته لهما!!

٥ـ دراسة علم النفس تفيد كثيرًا في مثل هذا الموقف حيث إن الشخص الذي ينتقم من خصمه يشعر بسعادة وقتية سُرعان ما تنتهي، ثم يحل محلها تأنيب الضمير.

٦ـ توريث المحبة بين الناشئين والذرية البريئة خير من توريث الشحناء والبغضاء، والمطالبة بالثارات.

٧ـ حياة الأمن والطمأنينة خير من حياة كلها قلاقل واضطرابات بسبب الحروب والخصام، ولا ريب أن الخطيب يسعفه في مثل هذه المواقف آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم ﷺ.

وهذه خطبة للأحنف بن قيس:

سببها: أن فتنة نشبت بين قبائل العرب في البصرة، واشتركت فيها تميم، ضد الأزد، والأحنف تميمي فقال: «يا معشر الأزد وربيعة: أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام فإن استشرى شنآنكم وأبى حَسَك [٢] صدوركم ففي أموالنا وأحلامنا سعة لكم» [٣].

ثالثا: الخطب الدينية:

جاء الإسلام بنظام شامل لأقطار الحياة، فكان لابد من معرفة به وبما جاء وبما أن الإسلام دين، فلكل دين تعاليم، وأول من شرف بتعليم هذا الدين هو محمد ﷺ

(١) راجع للمؤلف فجر الدعوة الإسلامية فصل خروج النبي ﷺ إلى الطائف.
(٢) الحسك الشوك يريد الحقد.
(٣) راجع العقد الفريد، والبيان والتبيين، والخطابة وإعداد الخطيب ٨٩، ٩٠ .

علمه جبريل عليه السلام﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾ (١)

وكان لابد من تبليغ هذا الدين، إلى الناس جميعا، وهكذا ظل الإسلام يعرف من جيل إلى جيل يحمل مسئولية تبليغه العلماء من الخطباء والوعاظ والمعلمين..

ومن ثم كان للخطب الدينية أهميتها في تفهيم الناس دين ربهم..كما يظهر من هذه النقاط:

أولا: تألقت الخطابة الدينية في عهد النبوة والخلافة الراشدة تألقا عظيما، ثم جاءت الدولة الأموية وكثر فيها التكالب على الخلافة والزعامة، فكانت الخطابة السبيل الموصل إلى الهدف المنشود، ثم جاءت الدولة العباسية، واحتاجت أن تقنع الناس بأحقيتها بالخلافة من الأمويين، فلجأت إلى الخطب الدينية.

ثانيا: كانت الخطابة بيد الملوك والأمراء، فكان أكبر همهم حث الناس على السمع والطاعة لهم، والاستنهاض إلى محاربة الأعداء بحق أو بغير حق، وقل من ينظر منهم في أحوال الناس وأمراضهم النفسية فيعظهم من ناحيتها، ثم تركها الملوك والأمراء لترفعهم، أو لانشغالهم عنها، ووكلوا أمرها إلى أئمة المساجد، وساروا فيها على أهواء الملوك والأمراء﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ حتى وصلت إلى أيدي من لا يجيدها ما عدا القليل من الخطباء.

ثالثا: أصبحت اليوم عبارة عن كلمات تحفظ وتلقى، ومعظمها يدور حول الدنيا، وذمها، والناس ملوا مثل هذه الأساليب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعبارات مجملة، لا تغني من أمراض النفوس شيئا، ولا تصل إلى أعماق القلوب، وبعضها يخلط الأوامر وبالنواهي، يجمع بين أمور كثيرة، ولا يستوفي الكلام على واحد منها، فيحذر من ترك الصلاة، وشرب الخمر، والزنا، والربا، وما إلى ذلك من المنكرات كل ذلك في خطبة واحدة.

وما يسمعه الناس اليوم يسمعونه غدا، وما يلقى في هذا العام، يدور مع العام القادم..وهكذا

---

(١) النجم: ٤، ٥ .

رابعا: الغرض من الخطب الدينية دعـوة الناس إلى الهدى ودين الحق، وإحياء كل فضيلة وإماتة كـل رذيلة، وإصلاح فساد قلوبهم، وتطهيرهم من الأمـراض النفسية والاجتماعية أما الخطب المجملة فلا تفيد الجمهور شيئا؛ لأنها لا تلتمس مواضع الداء، ولم تهد إلى الدواء [١] .

فمن الأقوال المجملة هذه العبارات:

إن المعاصي تزيل النعم، ما للمساجد خربت وبيـوت اللهو والفسوق عمرت، ما للقلوب لا تتألم، وقد انتهكت الحرمات، وتعديتم الحـدود وأغضبتم الجبار فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فـمن يقول هذه الجـمل من الخطبـاء يكون حـاله كحـال الطبـيب الذي يخطب الجمـهور في قـواعد الصحـة العامـة وفيـهم المسلول، والمحموم والمجـذوم والمبطون، وصاحب الرمـد الصديدي، والبلهارسيـا، والمصاب بالسيلان، أو الزهري، ومـا شاكل ذلك من الأمراض المـعدية التي تحتـاج إلى داوء خاص وعـلاج خاص وعناية خـاصة، ويقـول: نظفـوا غـرف النوم وقللوا مـن الغـذاء، واحـترسـوا من الـرطوبة، لا تأكلوا المغلظات، وما شاكل ذلـك، فمثل هذه النصائح ليس لها أدنى تأثـير؛ لأنها لم تلمس موضع الألم.

خـامسا: يجب على الخطيب الديني أن يختار موضـوعا، ثم يتكلم فيه ويحلله تحليلا دينيا أخـلاقيا واجتماعـيا، فإذا تكلم مثلا عن الإشـراك بالله والعياذ بالله، دلل على أنه نتيجة الغفلة والسـقوط من رتبة الإنسانية، مهما كان صـاحبه من أكابر العلماء في الشرق أو في الغرب، أو كـان عبقريا مختـرعا وصانعا ماهرا في مجـال تخصصه؛ لأن من لم يعقل هذه العوالم الكبيرة المنظمـة والآثار البديعة المحكمة، ولم يهتد بالسنن الكونية إلى وجوب وجـود الصانع الحكيم سبحانه يـكون كالأنعام بل هو أضل، وذلك واضح من أن الله عز وجل لا يـغفر أن يشـرك به لأن المشرك قد عطل مـواهبه، وكل حواسه من النظر في الكائنات، وانكب في الشهوات على وجهه.

يقـول الله تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيـراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ

---

(١) فن الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٠٧ .

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ (٢).

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(٣)

وإنما كانوا أضل سبيلا من الأنعام؛ لأنها تنقاد لمن يتعهدها، وتحبه وتأنس به، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتنفر مما يضرها.

وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون أحسانه الظاهر للعيان، من إساءة الشيطان ولا يتقون غضبه وهو أشد المضار..

كما أن جهالة الأنعام لا تضر بأحد، وجهالة هؤلاء تفضي إلى إثارة الفتن، وصد الناس، وانشالغهم عن الحق قال سبحانه في وصف الكفار:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

ولماذا كانوا شرا من الدواب؟

لإبطالهم ما ميزوا به، وهو العقل الذي يبحث عن دليل يوصله إلى خالق الكون. (٦)

كيف تكون خطيبا؟

لتحقيق هذه الغاية عليك معرفة ما يلي معرفة جيدة:

أولا: غاية الخطابة، ومكانتها:

غاية الخطابة عند الحكماء: الحصول على قوة التمكن من الاقناع، والتأثر لدى السامعين بما سبق دراسته.

(١) الأعراف: ١٧٩ .
(٢) الفرقان: ٤٣: ٤٤ .
(٣) الأنفال: ٢٢ .
(٤) فن الخطابة: ص١٠٨ .
(٥) الأنفال: ٤٦ .
(٦) فن الخطابة ص ١٦ .

والشيء إذا عرف مكانتــه السامية ســعى لديه الإنسان بكل طاقتــه، وتظهر مكانة الخطابة من شرفها وفـضلها، ولقد حازت الخطابة على الفضيلة والشرف معـا، ففضلها عظيم وشرفـها جسيم، فالعلوم تـفضل ويظهر شرفهـا بظهور غايتهـا، وللخطابة غاية عظيمة، فهي إرشاد الناس إلى الحقائق، وحملهم على ما ينفعهم في العاجل والآجل.

وهي معدودة من وسائل السيادة، والزعامة، وكانوا يعدونها شرطا للإمارة، فهي تكمل الإنسان، وترفعه إلى ذري المجد والشرف.

قال العلامة ابن سينا في الشفاء:

إن الخطيب يرشـد السامع إلى مـا يحتـاج إليه من أمـور دينه ودنياه، ويقـيم له مراسيم لتقـويم عيشه، والاستعداد إلى مـيعاده. وحسب الخطابة شرفا أنهـا وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين صلوات الـله وسلامه عليهم أجمـعين، ومن على شاكلتهم من العلماء وعظماء الملوك وكبار الساسة.

ثانيا: فوائد الخطابة وأهيمتها:

فهي:

أ ـ تعرف صاحبها كيف يمتلك القلـوب، ويستميل النفوس، ويحرك العواطف، ويهيج الخواطر نحو ما يريد.

ب ـ بنورها يستضيء موارد الدليل، وتتضح مصادر الحجة لإنقاذ كل أمر جليل، وإدراك كل غاية شريفة.

جـ ـ وقوانينها ترشد الطالب إلى مواضع الضعف وشعب السهو والزلل فيقوى على دحض حجة المناظر وتزييف سفسطة المكابر.

د ـ تثير الحـماسة في النفوس الفاترة، وتهدىء الـنفوس الثائرة، وهي التي ترفع الحق وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم.

هـ ـ تهدي الضالين إلى طريق الهدى والرشاد، كـما تقطع الخصومات وتفض النزاعات، وتصلح بين الأسر، وتشد أواصر الأخوة بين أفراد المجتمع.

و ـ براعة الخطيب تـظهر عندما يقف بين ذوي المنازع المخـتلفة والآراء المتـضاربة

فيظل يبين لهــم النافع من الضار، والصواب من الخطأ حـتى يجعل الجـميع في قبـضة يده، والخطيب البارع يقوم بين طائفتين اسـتعرت بينهما نار العدواة والبغـضاء فيذكرهم بقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١) .

وينذرهم عواقب التقاطع، ويخوفهم نتائجه السيئة، فإذا القلوب مؤتلفة والنفوس متآخية.

أما عن أهميتها فيقول العلامة ابن سينا:

إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جدا؛ لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفـضل نفعـا. وأعظم من أضدادها فـائدة والإنسـان لا يعيش وحـده، فكان لا محـالة محتـاجا إلى التعامل، والتجـاور، وهما محتاجـان إلى أحكام صادقة، وهذه الأحكام تحتـاج إلى أن تكون مقررة في الـنفوس ممكنة في القلوب، والبرهـان تنيل الجدوى في حمل الجمهور على الحق، فالخطابة هي المعنية بذلك. ا هـ بتصرف.

لأنها تقوم على التأثير والاقناع، فليس كل الناس يـحتاج إلى البرهان خاصة في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها(٢) .

ثالثا: أصلها.

أصل الخطابة: النظر، والاختبار: ذلك أن الله تعالى فطر بعض بني الإنسان على قوة البيان، وملكة التـأثير، فاقتدروا بها على حمـل غيرهم على ما أرادوا منهم، فلحظ الأمر غيرهم ممن لم ينالوا تلك الملكة، واستخـدام القلوب فدونوا نتيجة أبحاثهم ووسعوها حـتى جاء أرسطو(٣) في القرن الرابع (ق.م) فضـم شارد هذا الفن، وجمع شتاته في كتاب ضمنه قواعد هذه الصناعة سماه (الخطابة).

---

(١) الأنفال: ٤٦ .

(٢) فن الخطابة ص ١٦ .

(٣) أو أرسطاليس ٣٨٤ - ٣٢٢ ق م مربي الاسكندر، فـيلسوف يوناني نقل مؤلفاته إلى العربيـة إسحاق بن حنين أهم مؤلفاته: المقولات، الجدل، الخطابة، كتاب ما بعد الطبيعة، السياسة، النفس. انظر المنجد قسم الأعلام.

ثم عربه بشر بن متى، ولخصه ابن رشد، وعنه أخـذ فلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي، وفي القرن الثالث الهجري نقل إلى العربية فـعده كثير من الفلاسفة أنه جزء متـمم للمنطق كابن سـينا، ومن هنا كانت صلة الخطابة بعلم المنطـق من حيث إن علم المنطق خـادم له، وأن بعض قوانـين الخطابة يعتـمد علـى مبـادىء المنطق، وأن الخطابة مخلوقة مع الإنسان، وأن البـحث عنها كان قبل الجاهلية والإسـلام، وأن تأثير البلاغة في النفوس لا يخص أمة ولا جيلا [١] .

رابعـا: مطابقة الكلام لمقتضى الحال: ملائما لما تدعـو إليه حاجة المستمعين ومن أحب أن يكون نصحه نافـعا، وإرشاده مفـيدا فلينظر إلى المنكرات الشائعة المتفـشية في الناس، والأمراض النفسيـة المنتشرة فيهم، والحوادث الحاضرة الحـديثة العهد بينهم، ثم يكّون منهـا موضـوع خطابته، ثم يحـصي مـا في ذلك من الأضرار الماليـة والبدنيـة، والخلقية والاجتماعية، ويعدها واحـداً واحداً في ذهنه، ويدونها بقلمه، ثم يستحضر ما جـاء في الموضوع من الآيات الكريمة والأحـاديث الصـحيـحة، وآثار السلف، وأقـوال الحكماء، مع الفهم والشرح قدر ما تمس الحاجة إلى شرحه، ثم يسرع في تدوين الخطبة إذا أراد ذلك مضـمنا لها آثار هذا المنكر ومـا جاء فيـه عن الشريعـة الغراء مراعـيا في أسلوب الخطبة ما يلائم عقول السامعين. .

ثم إذا فرغ من تدوين الخطبة، فإن شاء حـفظها عن ظهر قلب، ثم ألقاها، وإن شاء تكلم عـلى مضمـونها بما لا يخـرج عنه إلا بمقدار ما يعن له حـالة الأداء مما يزيد الموضوع بيانا وجمالا، والأحسن بالخطيب أن لا يتقـيد بعبارة خاصة، بل الأليق به بعد استحضار المعاني:

أن يؤديها بما يستطيع من العبارات والأساليب المتاحة عنده، وهذا بالطبع يستدعي منه القراءة المستمرة الواعية المدققة حتى يقف على مواطن القوة في اقناع الناس.

أما الخطبة الثانية، فينبـغي أن تكون كالأولى تشرح حديثا، أو آية لم يتسع وقت الخطبة الأولى، فهي متممة لها، ومتعلقة بها، فهي تساعد الأولى على إصلاح النفوس ومداواة القـروح. . ، ففي الشرع الشـريف أغذية كـبيرة للعـامة وأدوية للخاصـة، فلا

---

(١) فن الخطابة صـ ١٦، ١٧ .

يصعب على خطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات والأحاديث، أو الآثار أو الحكم البليغة ما يناسب موضوع الخطبة، طالما كان محبا للقراءة دائبا على الاطلاع وسوف يهديه الله عز وجل إلى ما ينشده من موضوعات مناسبة تفيد مستمعيه.

خامسا: إن الخطابة أثر انفعالات تنشأ عن حوادث تمس الجماهير، ونوازل تعرض للأمم والشعوب، ولم تخل الأمة العربية في جاهليتها من حوادث على هذا النحو، فتثور بينهم لذلك محاولات شديدة وجدال عنيف، وكانت الحرب بينهم لا تكاد تضع أوزارها. كما كان في القوم قوة بلاغة، وفي نفوسهم طموح إلى السيادة، وفي ألسنتهم قوة على الجدل وشدة في المحاورة.. وفي بلادهم أسواق بضاعتها من بديع أفكارهم فلا عجب أيضا أن يلدوا خطباء نجباء يقرعون الأسماع بذكر مفاخرهم، ويثيرون العواطف إلى الدفاع عن كرامتهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم (١).

سادسا: ارتفاع شأن الخطابة على الشعر.

عني العرب قديما بالشعر دون الخطابة لصعوبة حفظ النثر، فلم يصل إلينا أحوال خطبائهم الأوائل عند التأدية..، كما لم يعن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلا بعد أن وصلت الخطابة إلى منزلة أسمى من الشعر، لابتذاله بتعاطي العامة والسفهاء له، واتخاذهم له وسيلة للعيش والطعن على الحرم، والخوض في الأعراض فعلا بذلك شأن الخطابة واشتهر بها الأشراف.

وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر يحفظ عليهم مآثرهم ويفخم من شأنهم، ويهول على عدوهم، بل كان لكل واحد منهم في نفسه خطيبا (٢).

سابعا: أثر الخطابة في النفوس:

كان الخلفاء في صدر الإسلام يخطبون الناس عند طروء كل حادث جلل بلا تقييد بوقت، ولا تكلف لقول، فكانوا يجمعون المسلمين إلى المسجد تارة لإعلان خبر، وتارة لاستشارتهم، ووقتا لتحذيرهم، وآخر لوعظهم وتذكيرهم..

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه.

وكانت الكلمة تنطبع في القلوب، وتعيها الآذان حق الوعي..

فما أعظم مكانة الخطيب في النفوس، وأنفذ كلامه في القلوب، وأشد إثارته للعواطف، إذا كان الخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم، وتحدق به أبصارهم، وتلتف حوله قلوبهم، وتترامى إليه آمالهم.

يستلينهم بالقول إذا قسوا، ويستخضعهم به إذا عصوا، ويمتلك نفوسهم بالرغبة تارة وبالرهبة تارة أخرى. وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكونها بين يديه، ويلين لهم القول، فإذا طلب منهم الأموال هبة بل الأرواح وهبوها له.

تالله إن مكانة الخطيب لمكانة سامية انحط عنها الأمراء على غير علم، وسلطان نافذ القوة في الأرواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية في الأجسام، وكيف يضارع الروح الجسم؟[1] .

فهل تحب أن تكون خطيبا؟

صفات الخطيب الناجح:

إليك صفات الخطيب الناجح لتترسم خطاها، وتحققها في نفسك فتنال رضا الله سبحانه ثم الناس.

أولا: أن يكون من العلماء بالله وبدينه.

ثانيا: أن يكون عارفا بزمانه.

ثالثا: وأن يكون صاحب بيان قوي إن قال، أو كتب.

فإنه إذا كان عالما بالله عز وجل كان من أهل الخشية، فيلزم الجادة، والاستقامة فيقود الناس إلى ما يرضي الله سبحانه، وإذا كان عالما بزمانه أن يكون مع الناس كالطبيب الماهر يعرف طب الأمراض، فيصف لها الدواء، فيكون بذلك قد وضع يده على الداء فيحصل الشفاء بإذن الله تعالى.

---

(١) المرجع نفسه.

أما قوة البيان: فهي روح الخطابة وقوامها، فإن الخطيب إذا كان عالما بالله، وبدينه ملما بأحوال زمانه، ولكنه ألكن [١]اللسان، أو تمتام، كان لاقيمة لعلمه فوق المنبر.

أما إذا كان قوي البيان:

فنظم أسلوبه، ونسق حجته، ووضع الدليل في موضعه، واستوى على المنبر فهو حلية من حلي الدنيا، وزينة من زينة الوجود وروضة للأبصار تتمتع بالنظر إليها، ولذة للأسماع تطرب بسماعها، وغذاء بالغ النفع للأرواح تتغذى به، كيف لا وهو إذا نطق كان كالبحر ينثر اللآلىء والجواهر على من حوله، فلا يسعهم إلا التسابق إلى التقاط ما ينثر، يتدفق تدفقا، ويسيل سيلا.

لا يهجم على رذيلة إلا قضى عليها، وصورها في نفوس السامعين بصورة بشعة مخيفة، من رآها لا يسعه إلا أن يفر منها فرارا، ولا يعطف على فضيلة إلا أنعشها وأحياها، وجعل قلوب السامعين تكاد تطير من شوق إليها، وما أجدر خطيب المسلمين أن يكون هكذا [٢].

مادة الخطابة الدينية:

تتكون مادة الخطابة الدينية مما يلي:

أولا: العقيدة الإسلامية: وهي عقيدة الوحدانية، وبيانها من القرآن الكريم، وبيان أسماء الله الحسنى أو صفات الذات العلية، كما وردت في القرآن الكريم من غير سلوك لطريقة علماء الكلام، ومن غير مناقشة للفلاسفة، أو غيرهم فإن المجادلة لهم في آرائهم تلقى بالعقل الفطري في متاهة يضل سالكها ولا يهتدي ورسالة محمد ﷺ جزء من العقيدة الإسلامية، وتؤخذ معاني الرسالة من القرآن الكريم الذي هو المعجزة الكبرى.

وعلى الخطيب أن يبين أن العقيدة الإسلامية دين الأنبياء جميعا.

---

(١) الكن فلان لَكَنًا ولكنة: عيّ وثقل لسانه، صعب عليه الافصاح فهو الكن وهي لكناء. المعجم الوسيط: مادة لَكِنَ.

(٢) انظر منتهى آمال الخطباء، ومنار المسترشدين النبلاء المقدمة للأستاذ مصطفى أبو سيف الحمامي رحمه الله المقدمة ١٣٥١ هـ.

وأن على المسلمين معـرفة هؤلاء الأنبياء، ومـعرفة الملائكة، واليـوم الآخر، وما يكون فيه من حساب وعقاب، وثواب.

وعلى الخطبـاء والدعاة أن يشددوا في الإيمـان بالبعث، والغيـب، فإن ذلك لب الإيمان وجوهر الدين، وكل من لا يؤمن بالبعث لا يؤمن بأي دين.

وعلى الجملة، فإنه يـعتمد في بيان العـقيدة على القرآن وحده، وأدلتـه القاطعة التي هي غذاء النفوس وشفاء القلوب.

ثانيا: الإيمان الجازم بالقرآن، وأنه منزل من عند الله تعالى، وأنـه أعجز العـرب من أن يأتوا بمثله، ويتلى عليـهم مـرتلا، وتتلى عليهم آيـات الإعجـاز مبـينة موضحة بلغاتهم فـتتلى الآية بنصها العربي فلا قرآن إلا ما هو بـالبيان العربي، وتعرف لهم مـعـانيـهـا بلغـاتهم ويذكـرون اللـه تعـالى في خلق الكون، ومـا فـيـه من زرع وثمار، وسماء زينها ربها بالنجوم وما فيها من خلق الكون الذي يدل على الخالق.

إن القرآن فيه علم الدين، وفيه الأدلة، وفيه الموعظة الحسنة فيختار من آياته ما يكتب فيه النص، ويكتب بتفسيـره، على أن هذا التفسير ليس الـقرآن، بل على أنه بعض ما يدل عليه[1]، وعليه أن يدلل على أن القرآن الكريم هو ما بقي من وحي في هذه الدنيا، وأنه الكتاب الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ البقرة: ٢ .

مـاشانه نـقص ولا شابتـه زيادة منذ نزل إلى يـوم الناس هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا، فهو محـفوظ بحفظ الله مصـون من أهواء الناس ووساوس الجن والإنس..!

وأن في بقاء هذا القـرآن هو العزاء الوحيـد عن ضياع مـواريث النبوات الأولى؛ لأنه استوعب زبدتها، وقدم في هداياته خلاصة كافية ﴿**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ الأعلى: ١٨، ١٩ .

وعلى الخطيب أن يطلـع الأجيـال المتـأخرة على هذا القـرآن، حتى إذا استوعبت

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام للشيخ محمد أبي زهرة. من بحوث المؤتمر السابع لمجمع البحوث الإسلامية ص ١٢٣، ١٢٤ . ١٣٩٢ هـ.

أهدافه فكأنها وعت ما قـاله المرسلون السابقون[١] عليهم الصلاة والسـلام فهذا القرآن ـ كما قال بعض العلماء :

رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعـهوده ونداءاته لنتدبرها في الصلوات، وننفذ ما فيها من تعاليم في حياتنا الدينية والدنيوية[٢] .

وعلى الدعاة أن يـعلموا الناس أن قُرَّاء القرآن حـملة سر الله المكنـون، وحفظة علمه المخزون خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته، وخيرته وأصفياؤه[٣] .

ثالثا:السنة:

وهي المصدر الثاني بعد القـرآن الكريم، ينتقي منها الخطيب الأحاديث التي تبث في الناس روح التـقـــوى والبـر، ويهـز النفـوس، ويبـغـضـهـم في الشـرور والمآثم والانحرافات.

رابعا: ذكر السيرة النبوية الطاهرة، وينبه إلى مواضع العبرة في هذه السيرة مما يدل على أنه صادق، كما ينبه على النواحي التي تدل على الصدق والأمانة والخلق الكريم.

خامـسا: بيان الأهـداف الإسلاميـة وأثرها في الأفراد والجمـاعات مما يدعـو إليه الإسلام في:

الكرامة الإنسانية، والعدالة في الحكم بين الناس، والعدالـة الإجتماعية والدولية وما يدعو إليـه من مساواة، وحرية، وتعـاون بين الناس على البر والتقـوى، ونهيه عن التعاون على الإثم والعدوان، وما يدعو إليه من محـو للتفرقة العنصرية، وما يدعو إليه من التعارف الإنساني[٤] .

---

(١) انظر للشيخ محمد الغزالي : كيف نتعامل مع القرآن ؟ ص ٢٥ .
(٢) انظر للإمام الغزالي : إحياء علوم الدين ١/ ٥١٦.
(٣) انظر الإمام القرطبي صاحب التفسير الجامع لأحكام القرآن : ١ / ١ ط الشعب.
(٤) ـ د. مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع
ـ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام والرحيق المختوم لصفي الرحمن المبركفوري.
ـ فيف طبارة : روح الدين الإسلامي.

حقيقة الخطب الدينية وأثرها:

تتبوأ الخطب الدينية في نفوس المسلمين مكانا طيبا، لعناية الأزهر والدعاة بها، وتكريس جهودهم لها، ونعني بالخطب الدينية، كل خطبة تدعو إلى عمل ديني بحت:

كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى إقامة أركان الدين الخمسة، وأركان العقيدة وتعريف الإحسان أو قراءة القرآن أو التعريف بحكم شرعي، أو الإصلاح بين متخاصمين، أو التذكير بالموت والدار الآخرة.. وحقيقة الخطبة الدينية أنها تشمل كل شئون الحياة، لأن الدين الإسلامي، يقوم على العقيدة، والعبادة، والمعاملة، وبه قانون شامل لكل ما يقابل الناس في حياتهم من زراعة وصناعة، وبيع وإيجار وشركات، وهكذا.

وخطب النبي ﷺ هي المثل الذي يحتذيه الخطيب الديني الموفق، وهي في جملتها تهون من شأن الدنيا، وتذكر بالآخرة، وتحث على مكارم الأخلاق، وحسن المعاملة، وهي خليقة أن تكون دستور المسلمين، وقانونهم الذي لا يخالف أي شيء منه.

وهي في واقعها بناء للأمة، وسعادة ورفع شأن لأبنائها، ولا يزال علماء الأخلاق وزعماء الإصلاح يجدون فيها مددا لهم، وهاديا ومرشدا.

وقد كان لرسول الله ﷺ خطب في الشئون الأخرى، وكلها تتسم بأنها عمل لله تعالى وقربى إليه...

وأثر هذه الخطب، أن كثيرا منها يصل إلى أعماق القلوب، ويترك أثرا عميقا في النفوس، فيستقيم به السلوك المعوج.

وتأنس الغرائز الجامحة، ويعدل العصاة عن ارتكاب الذنوب، وتكون هذه الخطب أبلغ في النفس إذا كان صاحبها مقتنعا بها ذا رغبة في نشرها وإذاعتها بين الآخرين، وقد قالوا: «ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وما كان من اللسان لا يجاوز الآذان» وهو كلام حق لا جدال فيه.

والعنصر العام الفعال في هذه الخطب المؤثرة هو التذكير بالموت، وأنه حتم على

كل حي، وأن متاع الدنيا زخرف موقوت، وعرض زائل، وأنه من يفعل خيرا يجز به خيرا، ومن يفعل الشر يلق عقوبته في الدنيا والآخرة(١) .

وإليك بعض نماذج من الخطب التي اتسمت بالايجاز:

خطبة لرسول الله ﷺ أوردها ابن قتيبة(٢) :

قال بعد الثناء والحمد:

«أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الآخرة دار إلا الجنة أو النار».

وقال ﷺ في خطبة أخرى(٣) :

«أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب، وكأن الذي نشيع من الأموات سُفْر(٤) عما قليل إلينا راجعون نبوئهم أجداثهم، ونأكل من تراثهم، كأنا مخلفون بعدهم، ونسينا كل واعظة(٥) ، وأمنا كل جائحة.

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن زكت نفسه وحسنت خليقته، وطابت سريرته، وعزل عن الناس شره طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

هذه خطبة وجيزة لا يغيب عن الخطيب أن يبسط شرحها للناس مستخرجا منها ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٩٦ .

(٢) عيون الأخبار: ١ / ٢٣١ .

(٣) نقلا عن الخطابة إعداد الخطيب ص ١٩٧ .

(٤) أي مسافرون، سفر على وزن سُرُب.

(٥) كل نازلة أو حادثة بها عظة.

والخطبة الجامعة التي لا يجوز أن يغفل عنها خطيب أو واعظ هي خطبة الوداع، وقد ذكرت لك فقرات منها أما الخطبة كاملة فارجع إليها في سيرة ابن هشام[١]، والطبقات [٢] لتزداد بها معرفة وتحيط بها علما.

ومن الخطب المؤثرة خطبة لمعاوية ﷺ يقول فيها:

«أيها الناس:

سافروا بأبصاركم في كر الجديدين [٣]، ثم أرجعوها كليلة عن بلوغ الأمل[٤]، فإن الماضي عظة للباقي، ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز عن الجد، فتنقطع حجتكم في موقف الله سائلكم فيه ومحاسبكم عليه فيما أسلفتم.

أيها الناس: أمس شاهد فاحذروه، واليوم مؤدب فاعرفوه، وغدا رسول فأكرموه»[٥].

فالماضي سجل أعمالنا وهو شهيد علينا،

والحاضر مجال اختبارنا، والمستقبل رسول لما يصل [٥].

ومن خطبة للحجاج [٦] في تهوين الدنيا، والتذكير بالموت:

أيها الناس:

«قد أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ [٧]، رب دائب مضيع [٨]، وساع لغيره والموت في أعناقكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لما بين أيديكم [٩]. فكأن ما قد مضى

---

(١) جـ ٤ / ٢١١، وراجعها في ص ٢٣١ من هذا البحث

(٢) جـ ٢ / ١٢٤.

(٣) الليل والنهار، والسفر بالأبصار أبعاد التأمل، أي تأملوا في تقلبات الأزمان. الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٩٧. هامش (٥).

(٤) أي ترجت عاجزة عن الوصول إلى معرفته.

(٥) الخطابة وإعداد الخطيب.

(٦) نقلا عن الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٩٩.

(٧) الأعمار في تناقص بمرور الزمن أما أعماليه فمحصية علينا.

(٨) رب شخص لا ينقطع عن العمل وهو فقير، أو لا أجر له عند الله.

(٩) ما في أيدينا: هو الدنيا، وما بين أيدينا: الدار الآخرة؛ لأنها مستقبلة.

من الدنيا لم يكن (١) .

وكأن الأموات لم يكونوا أحياء، وكل ما ترونه فإنه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود، وقرون كثيرة بين ذلك. هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم، وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم، أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة المتكبرون؟

المحاسب الله، والصراط منصوب، وجهنم تزفر وتتوقد، وأهل الجنة ينعمون، في روضة يحبرون، جعلنا الله وإياكم من ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ .الفرقان: ٧٣ .

وهذا وعظ قوي يبعث على الزهد، استفاد قائله من خطب النبي ﷺ ونهج القرآن في المزاوجة بين النعيم والعذاب، وحال أهل الجنة وأهل النار والحق أن أمثال معاوية، والحجاج لم يكونوا عصاة ولا جاحدين لتعاليم الإسلام وكانوا يرون أن أعمالهم السياسية إنما هي لخدمة الإسلام، وأكبر أخطاء معاوية رضي الله عنه، توليته يزيد ابنه عهده على ما كان فيه.

أما الحجاج فعلى شدة قسوته وجبروته خدم الإسلام، وقطع دابر الفتن والثورات، ولو أن الأمة الإسلامية ظلت على تفرقها ومطالبة كل حزب بالخلافة لنفسه لقضى ذلك عليها، أو على الأقل عاق فتوحاتها، ووقفت الدعوة الإسلامية في محيط محدود (٢) ، ولا يخفى على الخطيب أهمية الخطب الدينية فيجعلها نصب عينيه حتى يظل الإسلام حيا في قلوب المسلمين، وأنوار القرآن والسنة يضيئان عقل المسلم ووجدانه في هذه الحياة.

رابعاً: الخطابة العسكرية:

هي التي تلقى في ميادين القتال، يلقيها قواد الجيوش يحضون فيها الجند على قتال الأعداء.

والهدف منها: بث روح الشجاعة، والحماسة، وإثارة النخوة والحمية، وتهوين

(١) لأنه مضى سريعا، دون أن نعتبر به.
(٢) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٢٠٠ .

الموت دفاعا عن العقيدة، والوطن لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

ومن ثم فإن شأنها كبير، وخطرها عظيم، فكثيرا ما يتوقف عليها إحراز النصر، فإن الجندي الواثق من قائده المحب له، إذا أمر بأمر نشط له، وظهرت براعته، ليفوز بإحدى الحسنيين: الظفر والغنيمة، أو الموت والشهادة.

كان الإنسان قديما يعتمد على القوة المادية وحدها، ولما ارتقى في تفكيره بدأ يحتاج إلى القوة المعنوية[1]، ولمكانة الخطباء في عصر اليونان كانوا يعينوهم في الجيوش، فكان (ديموستين) رئيسا في حرب فيليب، و (كليون) قائداً للجيش، وعند العرب كثر فيهم الشعراء والخطباء الذين كانوا يحضونهم على القتال والأخذ بالثأر.

ولما جاء الإسلام دعا إلى الجهاد العادل لمحاربة كل من تسول له نفسه بالاعتداء على المسلمين أو الوقوف في وجه الدعوة فقال سبحانه.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .الأنفال: ٦٥ .

والواجب في الخطب العسكرية أمران:

الأمر الأول: أن يستنهض همة الجندي بأن يعظم في نفسه شأن العقيدة وحب الوطن ليتصدى للدفاع عنهما في عزة وكرامة، وأن الثواب الجزيل ينتظره عند الله سبحانه حيا، أو شهيدا.

الأمر الثاني: أن يبغض إليه الهزيمة، أو الفرار، إلا متحرفا لقتال، أو متحيزا إلى فئة كما يخوفه من انتصار العدو، الذي يعقبه إذلال، وأسر، وسيطرة على خيرات البلاد واقتصادها، وفي هذا ضياع وتأخير إلى الوراء مئات السنين، بالإضافة إلى أسر النساء والذراري، ما يجر وراءه خزي الدنيا والآخرة.

(١) قال نابليون: إن نسبة القوة المعنوية إلى القوة المادية في الانتصار كنسبة ٣:١، وقال قائد ألماني محنك: لا تزال القوة المعنوية هي العامل الحاسم في الحروب في العصر الحاضر، كما كانت في الغابر، ولا ريب في أن الخطب العسكرية لها الأثر الواضح في تقوية الروح المعنوية. انظر الخطابة. الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٠ ط الثانية.

صفات الخطب العسكرية:

تخضع هذه الخطب لصفات منها:

أ ـ فخامة اللفظ، وقوة الأسلوب، والتأثر الشديد ليملأ نفوس السامعين بالأصرار على الإقدام، والثبات في الميدان.

ب ـ وضوح العبارة بحيث تكون واضحة قريبة من مستوى فهم الجند.

جـ ـ أن تكون موجزة؛ لأن الوقت، وتطلع النفوس للمستقبل، وما يجيش في داخلها لا يدع مجالا، للإطالة.

د ـ أن يكون لدى الجند عقيدة إيمانية راسخة يدافعون، بعزم وإخلاص، فإذا

لم تكن عندهم عقيدة إيمانية تجمعهم ضاعت قوتهم، وانفرط عقدهم كما حدث في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ .والتي مازلنا نعاني من آثارها حتى اليوم.

فإذا توافرت هذه الصفات خرجت الكلمات من فم الخطيب كشهب النار الملتهبة، وعملت في نفوس الجند عمل السهام الصائبة، والنبال الراشقة، فيتهافتون على نزال العدو غير مبالين بالموت [١]، . . . .

وخطبة طارق بن زياد خير دليل وأعظم برهان، إذ قبل فتوح الأندلس بلغ طارق ابن زياد دنو (لذريق) لملاقاته، فقام في أصحابه يحرضهم على الجهاد فماذا قال؟

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

أيها الناس: أين الفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق [٢] والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لاوزر [٣] لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من دعوكم. . .

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرْبانا، ورضيكم

---

(١) فن الخطابة وإعداد الخطيب ص ٨٥ .

(٢) الشدة .

(٣) الوزر القوة، والملجأ والمعتصم المعجم الوسيط مادة وَزَرَ .

لملوك هذه الجزيرة، وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة. . .

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله.

ويلحق بالخطابة العسكرية خطب التحريض، والتقريع.

فخطب التحريض، والحث: هي الخطب الحماسية التي يقصد بها تهيج النفوس إلى فعل النافع وترك الضار، ومنهاجها ما يأتي:

أ- إثارة الأمل ببيان الثمرات الأدبية التي يجنيها المرء من وراء العمل كنيل العز والشرف، وحسن الذكرى في هذه الحياة، والأجر العظيم من الله في تلك الحياة [(١)].

ب- أن يبعث فيهم الشوق إلى ذلك الفعل، ويحببه إليهم ببيان فوائده وما تضمنه من المنافع المادية.

جـ- توريطهم بالمدح وذكر مآثرهم العظيمة، وشمائلهم الكريمة، ولا سيما إذا كانوا ورثوها عن الآباء، فإن ذلك مما يستميلهم ويقوي همتهم نحو العمل.

د- أن يغرس في نفوسهم فضيلة المنافسة بذكر ما وصل إليه سواهم من الأمم وما يفعله الواحد منهم من الخير وحبه لأمته.

وخطب التقريع هي التي تلقى على سبيل التوبيخ واللوم والإنكار لحمل المخاطب على الإقلاع عن القبيح والتخلق بالحسن لدفع المخاطب إلى قصد عظيم كطاعة بعد عصيان وجد بعد كسل، وعمل بعد فشل [(٢)].

---

(١) فن الخطابة . . ص ٨٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٧ .

خامسا: المحاضرات العلمية:

نوع من فنون القول تمد جماهير المتعلمين بالبحوث العلمية تنويرا لأذهانهم، وتثقيفا لهم، وترقية للرأي العام، ونشرا للثقافة في ربوع البلاد، ولا تنشر هذه البحوث التي تهم مصالح البلاد إلا على أيدي رجال يهمهم مصلحة بلادهم، ولأن هذه المحاضرات، تقرب المسائل العلمية، وتسهل الأفكار، وتجتذب الأسماع، ومن ثم عدت من أنواع الخطابة، وإن لم تكن بحوث الموضوعات منها:

وللمحاضرات العلمية خصائص منها:

أ- ألا تفقد صيغتها العلمية، ولاروحها الفكرية، فهي لا تستدر الدموع، ولا تثير العواطف، ولا توقد نار الغضب والحماسة؛ لأنها كلام علمي صناعة وبحثا فهدفها تنمية العقول، وشد انتباهها إلى أهمية البحث العلمي.

ب- عدم سيطرة مظاهر الخطابة على الحقائق العلمية فتطمسها أو تبعثرها وسط الجو الخطابي، وإنما اتخاذ الخطابة لتثبيت المعلومات، وإثارة الانتباه، وإيقاظ الشوق إلى ما يقول.

جـ- الابتعاد عن المصطلحات العلمية، والعبارات التي قد لا يفهمها إلا المتخصصون.. فإلقاء المحاضرة بالعبارات العلمية الجافة الغامضة على غير أهلها موجد لسأمهم.. وإنما عليه تقريب البحث العلمي إلى الأذهان بضرب الأمثال [١].

د- فالمحاضرة هنا نوع من الدرس يلقى في النوادي العلمية والأدبية على الجمهور وقد لا تخلو من مسحة خطابية بحسب الموضوع والمحاضر، والمقصود منها: الإفادة والاقناع بالمواضيع العلمية على اختلاف أنواعها كقول الإمام الشيخ محمد عبده:

إنما ينهض بالشرق مستبد عادل:

مستبد يُكره المتناكرين على التعارف، ويلجيء الأهل إلى التراحم، يقهر الجيران على التناصف يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة.

---

(١) الخطابة... الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٢.

عادل لا يخطو خطـوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبـه الذي يحكمه . . .فـهو لهم أكثر مما هو لنفسه يكفى لإبلاغهم غاية لايسقطون بعدها خمس عشرة سنة .

وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فـيها الفكر الصالح، وينمـو تحت رعاية المربي الصالح ويشتد حتى يصرع من يصارعه، خـمس عشرة سنة يثنى فيها أعناق الكبار إلى ما هو خـير لهم ولأعقـابهم، يعالج ما اعـتل من طباعهم بأنجع أنواع العـلاج، ومنها البتر، والكي إذا اقتضت الحال وينشىء فيهـا نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه، ويسدد نياتهم بالتـثقيف يتعهدها كـما يتعهد الغارس شـجرة بضم أعواد مستقـيمة إلى سوقهـا لتنمو على الاستقامـة، خمس عشرة سنة تحـشد له جمهورا عظيـما من أعوان الإصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه وآخرين رهبوه فاتبعوه وغيرهم رغبوا في فضله فجاوروه .

حـتى إذا عرفت الأفكار مـجاريها بالـتعـريف، وانصـرفت إلى ما أعـدت له بالتصـريف، وصح الشعور بالتعليل، واسـتقامت الأهواء بالتعـديل أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضـمه، والناقه من المرض هضمه، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المحالس البلدية أو ما يقوم مقامها ثم بعد سنين تأتي مجالس الإدارة لا على أن تكون آلات تدار، بل على أن تكون مـصـادر للآراء والأفكار، ثم تتـبعـها بعـد ذلك المجالس النيـابية . .نعم ربما لا يتـيسر لرجل واحـد أن يشهد هذا الأمـر من بدايته إلى نهايته، ولكن الخطـوة الأولى هي التي لها ما بعدها، ويكفي لمدها خـمس عشرة سنة، وما هي بكثير في تربية أمة .

فهل يعدم الشرق كله مستبدا من أهله، عادلا في قومه يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرنا؟ [١] .

هـ ـ يستحـسن بعض المحاضرين أن يلقى محاضـرته من قرطاس؛ لكيلا تذهب الحقائق العلمية في تيار الحماسة الإلقائية إن اعتمد على الخطابة من غير قرطاس. . .

ويرى بعض المحاضرين أن أحـسن إلقاء للمحاضرة أن تكون من غـير قرطاس، ليستطيع الإشراف على السـامعين، فيتبع حركات أفكارهـم، ويستطيع اجتذابهم. . . ،

---

(١) فن الخطابة. . ص٧٠، ٧١ .

وحتى يبـعد المحاضر السـأم عن المستعـمين والمشاهدين إذا كان يقـرأ من القرطاس، أن يتركه من وقت لآخر، ليـستطيع الإشراف على السامعين، وليتـصل بهم روحيا، ليمنع سأمـهم، وعند القراءة يجب أن يجـعل بعض نظراته فيمـا يقرأ وبعـضها يتـجه به إلى المسـتمـعين، فـيبـدأ بأول الجـملة، ونظرة على القـرطاس، وينتـهي منهـا ونظره إلى السامعين، وهكذا في كل جملة، وبذلك يجمع بين الحسنيين من كلتا الطريقتين.

وينبغي التقليل من الإشارات والحركات أثناء المحاضرة العلمية [١] .

* * *

كـان من دعاء يوسف عـليه السـلام: «يا عـدتي عند كربتـي، ويا صاحـبي في وحدتي، ويا غياثي عند شدتي، ومفـزعي عند فاقتي، ورجائي إذا انقطعت حيلتي، يا آلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب: اجعل لي فرجا ومخرجا واقض حاجتي» [٢] .

---

(١) الخطابة . . ص ٢١٣ .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة كتاب الزهد.

سادسا: الخطابة المحفلية

وهي تشمل خطب: التكريم، والرثاء، والتأبين، والتعزية.

أ- خطب التكريم: وهي التي تلقى في حفلات التكريم لمدح شخص جزاء فضله وما قدم من عمل، أو مناسبة ترقيته، أو سفره، أو إحالته على المعاش، أو فوزه... الخ وسميت بهذا الاسم؟ لأنها تتعلق بمدح المحتفى به وتكريمه.

وهذه الخطب أرقى أنواع الخطب الاجتماعية؛ لأن الخطيب يبذل فيها جهداً كبيرا من أجل الوصول إلى قلب من يوجه الخطبة إليه.

وتشترط العرب في هذا النوع:

الإعداد الدقيق، والدربة الطويلة يقول الجاحظ:

«إن ابتليت بمقام لابد فيه من الإطالة فقدم أحكام البلوغ في طلب السلامة من الخطل قبل التقدم في أحكام البلوغ في شرف التجويد، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا. فإن قليلا كافي خير من كثير غير شاف» (١).

وفائدة خطب التكريم أنها تضفي على الشخص المكرم سعادة وبهجة، وعزة نفس، وعلى غيره من المستمعين حيث يحرصون على العمل الجاد لينالوا التكريم والتقدير مثله.

وخصائص هذا النوع من الخطب تتميز بما يلي:

أ- الاهتمام بعمل انفرد به المحتفى به ليكون محور الخطبة، وبيان أثر هذا العمل، ودعوة الناس إلى محاكاته، أو إكماله، أو ابتداع شيء مثله، فإذا كان له عدة أعمال جليلة مر بها الخطيب سريعا، أو سردها بإجمال، ثم وقف عند عمل أو اثنين لتحليلهما وبيان آثارهما.

ب- أن يكون لدى الخطيب معرفة ومعلومات خاصة عن المحتفى به، ودراية بأعمال قيمة له فيكشفها، ليرفع قدره (٢).

(١) البيان والتبيين: ١ / ١١٢ ..

(٢) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٩٦، ٩٧ .

هذا فلان.. قد عاش بيننا مثال الخلق والجد والنشاط، لم ينشب بينه وبين أحد من مشادة أو خلاف، ومرد ذلك أنه يعطي أكثر مما يأخذ، ويتنازل عن كثير من حقوقه ولكنه لا يهمل ما عليه من واجبات، وهذا هو خلق المعلم "الذي يرشد إلى الأخلاق الكريمة، والذي يفيد بعمله كما يفيد بلسانه..

كثيرا ما خرجت من درسي وأنا مرهق كليل أتهالك على مقعدي ملتمسا شيئا من الراحة ثم أنظر إليه..بجانبي منهمكا في تحضير درسه، أو تصحيح كراسات أمامه فيبعث في نفسي نشاطا وحفزا على العمل،وربما تراخيت عند بدء الدرس لكنني أجده حريصا على أن يدخل فصله في الوقت المعين، فأستحي أن أكون دونه..فترى في مثل هذه الكلمات دعوة إلى مبادىء قويمة للمعلمين، هذا إذا كان الخطيب صادقا في كلامه، وإلا كان مثار سخرية زملائه وأولهم المحتفى به.

جـ - قد يبدأ الخطيب بالقاء عدد من الأسئلة التمهيدية كأن يسأل لماذا نحتفي بهذا الشخص؟ وما هي أهم أعماله؟

مثال هذه الخطب لها صلة قوية بالأدب، وقد يقع الخطيب في حرج فلا ينقذه إلا إطلاعه الأدبي وثقافته الخاصة.

دخل واعظ قرية، أو حيا من أحياء المدينة فوجد الناس يكرمون أحد النواب البرلمانيين لنجاحه في الانتخاب، وهو لا يعرف عنه شيئا فبماذا يتحدث؟

في مثل هذه المناسبة يجمل به أن يقول:

إن المنصب النيابي..ليس أمراً هينا إنه أمر خطير حقا، لا لأنه يعطي صاحبه حق استجواب الوزراء والكبراء، ولا لما يبذل فيه المرشحون من جهد وعرق ومال..بل إنه منصب شرف وتكريم..يكفى من ينجح..أنه أحرز الثقة من أبناء دائرته..لقد وثقوا في عقله وتفكيره، كما وثقوا في أمانته وضميره، وفي جرأته ومثابرته وعطفه عليهم وحبه لهم.

وبقدر ما نولي نوابنا من ثقة نبني عليهم الآمال، ونتقدم لهم بكل مطالبنا ونحن واثقون مطمئنون، ليس هذا المنصب تكريما فقط، ولكنه مسئولية وجهاد وكفاح لصالح الوطن والمواطنين.

سيدي النائب المحترم: إننا من قبلنا نصبناك قائدا لنا، وإماما قدمناك وتراجعنا، بقي أن نطلب منك ما أملنا، واعتقد أننا وفقنا فيما اخترنا، واهتدينا إلى الحق في اختيارنا، ونسأل الله أن يوفقك في النهوض بما يلقى عليك من أعباء.

بهذا ينجو الخطيب من الثناء على ما لم يعلم، وقد تحدث عن المنصب أكثر مما تحدث عن شاغله، وصادف كلامه القبول وخطبته النجاح [١].

ب- خطب التأبين

تدخل ضمن خطب المحافل، ولا تقال إلا في أشخاص لهم لهم مكانة اجتماعية عند وفاتهم، وفاء لهم على ما أسدوا من جميل وحسن صنيع، وحثا للسامعين على اقتفاء آثارهم، وعزاء للمصابين، أو مشاركة في الحزن لهم...

وفي تأبين الموتى الذين بعد زمن موتهم يلجأ الخطباء إلى تحليل أعمالهم، وتعليل حدوثها والظروف التي لابستها، وكثيرا ما ينقدون لهم أعمالا، آراء ويخالفونهم في اتجاهاتهم ولكن هذا لا يناسب رثاء ميت يوم موته، أو عقب موته بقليل فالناس في هذا يذكرون المزايا، ولكن لا يبالغون،..

وفد واعظ على بلد ما فوجد سرادق عزاء مقام، والناس يتناوبون فيه الخطابة، وهو لا يعرف عن المتوفي شيئا، فماذا يقول؟

وإليك ما يمكن قوله: [١]

إن الموت لغز سيظل الناس في حيرة منه، ما هذا الروح الذي ينسل من جسم الإنسان، فإذا هو جثة هامدة، لا تفكر، ولا تتحرك، ولا تعمل شيئا، يقف المفكر، أو الفيلسوف، أو المخترع، فيكشف من خبايا الكون وأسرار النفس، وغوامض القوى في الكون ما يحير العقول، ويبهر الفكر، ويظل كل يوم يأتي بجديد فإذا نزل به الموت، وفارقت روحه جسده، ذهب كل هذا التفكير، وامحت كل تلك القوى، ومالم نسرع إلى مواراة هذا الجسد تحت التراب أسرع إليه البلى، وهدده الفناء كل هذا بسبب فراقه الروح وهي أمر خفي لا نعرف عنه شيئا:

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٩٦، ٩٧.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [١] . .

ثم يطرح سؤالا:

مـاذا يحـدث لـو أن الناس لا يموتون؟ ترى هل تتـسع الأرض لكل هذه الأجيـال من عـهد آدم عليـه السلام إلى اليـوم؟ إن الموت سنة طبيـعيـة، والموتى يفسحون لمن يأتي بعدهم من الأجيال الوافدة التي لا ينقطع سيلها.

سبـقنا إلى الدنيـا فلو عاش أهلهـا ... منعنـا بهـا مـن جيئـة وذهـوب

ونحن ننظر إلى مـقابر الموتى من حـولنا فإذا هي تزاحم مـساكن الأحـياء، وهم موتانا الذين لم يمض عليهم إلا زمن محدود فأين ترى قبور آبائنا من آدم إلى اليوم؟

ليخيل إليّ أنه لا توجـد ذرة من تراب الأرض إلا وهي من رفات أجدادنا، وأجسام آبائنا السابقين:

صـاح هـذي قبـورنا تملأ الرحبـ ... ـب فأيـن القبـور من عهـد عـاد؟

وقد نسـتحي أن نطأ الأرض بأقـدامنا، نحن نشعـر أنها من أجـسام الذين سبقـونا ولكننا لا نستطيع أن نطير في الجو، فـلا أقل من أن نرفق بهؤلاء الأجداد حين نمشي على رفاتهم:

خـفـف الوطء مـا أظـن أديم الـ ... أرض إلا مـن هذه الأجـسـاد

طر إن اسـتـطعت في الـهـواء رويدا ... لا اخـتـيـالا على رفـات العـبـاد

وقد نحزن ونرثي للآنية الفـخارية التي نستعملها نأكل فـيها ونشرب، وهي ليـست إلا عجـينة من أجسـامنا، وترى في أي بلد عـجن هذا التراب ومن كـان صاحبه؟

لـعـل إناء مـنـك يـصـنـع مـرة ... فـيـأكـل فـيـه من يشـاء ويشـرب

وينقـل من أرض لأخـرى ومـا درى ... فـواها له بـعـد الـبلى يتـغـرب

---

(١) الإسراء: ٨٥.

هذه حياتنا ما أرخصها، وما أقصرها إنها لا تغلو ولا تطول إلا بأعمال فأين هم الذين يدركون رخص الحياة وقسوتها وهوانها؟

والخطيب هنا استطاع أن يعطي صورة واضحة عن لغز الموت، والفضل يرجع للأدب وسعة القراءة، والمحفوظات التي عنده.

ولا يغيب عن الخطيب أحداث التاريخ الماضية ففيها ما يسعفه في مثل هذه المواقف، فهو يتذكر وفاة إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، وما اعترى والده من حزن وكآبة، وما تحلى به من صبر جميل.

وماذا حدث من أبي جعفر المنصور حين فقد ولده، وما فعل المأمون عندما فقد أخاه يعقوب، ثم مقتل علي وعمر وعثمان ﷺ، وماذا فعل الحجاج عندما جاءه وفاة ولده وأخيه في يوم واحد.

هكذا نجد في أحداث التاريخ مددا مشوقا ومفيدا (١) .

خطبة السيدة عائشة ﷺ (٢)هذه الخطبة التي قالتها يوم وفاة أبيها الصديق ﷺ بين النساء قالت؟

«. . .نضر الله يا أبت وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأكبر الأحداث بعده فقدك إن كتاب الله ليعدنا بحسن الصبر عنك حسن العوض منك، وأنا منتجزة من الله وعده فيك بالصبر عنك ومستعينة كثرة الاستغفار بك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على قضاء الله فيك».

ورثى الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ولده فقال:

«رحمك الله يا بني، فقد كنت براً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي بك مسرورا، ولا والله ما كنت أشد سرورا بك ولا أرجى لحظي من الله فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه: فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عمله وتجاوز عن

(١) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٩٧ ـ ٩٩ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٠٧ .

سيئاتك ورحم الله كل شاهد يشهد لك بخير».

ومات ابن الحجاج محمد، وأخوه محمد باليمن، فوفاه نعي ابنه صباح اليوم، ونعى أخيه مساءه، وقد فرح أهل العراق وقالوا: هيض جناحه، فخرج إلى الناس وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«.. أيها الناس محمدان في يوم واحد: أما والله ما كنت أحب أنهما معي. في الحياة الدنيا، لما أرجو لهما من ثواب الآخرة، وأيم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرض منا، كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا، وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها، وشربنا من مائها، ثم تكون كما قال تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُم مِّنَ الأجْدَاثِ إلى ربِّهِمْ ينسِلُونَ﴾[1].

ويحسن بدارس الخطابة، وممارسها أن يرجع إلى الأمثلة في مراجعها[2] ليزاد بها علمًا، ولها صحبة ووفاء.

وخطب التأبين قسمان: قسم تحليلي تدرس فيه نفس الرجل، وأخلاقه وأعماله، وآثاره العقلية، أو غير العقلية، وهذا من قبل المحاضرات العلمية فلها خواصها ومظاهرها، وقسم لمجرد الثناء والمدح، وذكر المناقب ولواعج الألم، وأحسن مسالكه:

أ. أن يبدأ الخطيب خطبته بتلاوة آية من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو بيت شعر، أو حكمة تشير إلى زوال هذه الدنيا، وأن ما فيها إلى زوال.

ب. ثم يبين الألم الذي نال الناس بفقده، والكارثة التي شملت الجميع لفقده.

جـ. أن يتجه إلى مناقب المتوفى فيذكرها، ثم يعرج على آثارها التي تركها في مجتمعه.

د. توضيح الذكر الحسن الذي أعقبه، واللسان العطر الذي يتحدث الناس عنه.

هـ. حث السامعين إلى اقتفاء أثره، والسير على طريقه، وبهذا يختم كلمته، ويلاحظ أن ألفاظ الخطبة التأبينية تكون من الألفاظ السهلة لا الألفاظ الفخمة،

---

(١) يس: ٥١.

(٢) نقلاً عن الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٠٨.

والأساليب العذبة، لأن الرثاء حديث النفس بالألم والحزن.

كما ينبغي أن تكون نبرات الصوت ما يشعر بالحزن العميق، وينبئ عن الألم الدفين[١] .

خطب التعزية : لا يشترط فيها قريب للمتوفى أو بعيد، بل تكون من كليهما ومن ثم فإنها تتسم بالمبالغة التي يتقرب بها الخطيب لأهل الفقيد، ويظهر فيها التكلف والصنعة، كما يلاحظ أن بعضهم يخرج بها عن المقام الذي قيلت فيه إلى مقام السياسة والوعظ، وهذا خروج عن المناسبة، إذ الواجب هو التركيز على جلال الحديث؛ لأن الموت يهز النفس، ويحرك الوجدان، والتركيز عليه فيه فائدة للمستمعين، والتعريف بالموت أكبر خادم لصلاح الحياة[٢] .

و **«وكفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنى»**[٣] .

و **«كفى بالموت مزهدًا في الدنيا، ومرغبًا في الآخرة»**[٤] .

والفرق بين التأبين، وخطب التعزية واضح، والرثاء نوع من التأبين كما سبق في رثاء الشيخ محمد عبده.

والفرق بين النوعين: أن التأبين يتناول الحديث عن الميت، والتعزية فيه توجه إلى آله وذويه.

وعلى الخطيب أن يفرق بين خطبة التأبين التي تلقى يوم وفاة الميت، أو أثناء أيام العزاء فيه، وبين الأخرى التي تلقى يوم الأربعين من وفاته كما هي العادة الجارية عند بعض الأسر، ثم إن الخطب التي تلقى في مجتمعات العزاء، وعقب وفاة الشخص لا يجوز أن يوجه أي نقد له، أو ذكر أي عيب من عيوبه[٥] .

حدثني أبو مسعود الدارمي، قال حدثني جدي عن أنس بن مالك قال: جاء فتى

(١) الخطابة . . ص ٢١٤ .
(٢) قواعد الخطابة . . ص ١٣٨ .
(٣) رواه الطبراني في الكثير عن عمار. الجامع الصغير: ٢/ ١٥١».
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده عن الربيع بن أنس . الجامع الصغير : ٣/ ٥١».
(٥) الخطابة . . ص ١٠٢ .

من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وقال: إن أمي تكثر البكاء وأخاف على بصرها أن يذهب، فلو أتيتها فوعظتها، فذهب معه فدخل فقال لها في ذلك، فقالت: يا رسول الله أرأيت إن ذهب بصري في الدنيا ثم صرت إلى الجنة، أيبدلني الله خيرا منه؟ قال: «نعم» قالت: فإن ذهبت بصري في الدنيا، ثم صرت إلى النار، أفيعيد الله بصري؟ فقال النبي ﷺ «إن أمك صديقة» [١].

* * *

من أنواع هجر القرآن

هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

ثانيها: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

ثالثها: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

رابعها: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

خامسها: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره.

ويهجر التداوي [٢] به، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ سورة الفرقان: ٣٠ .

وقال ابن الجوزي رحمة الله عليه أيضًا : «لم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن» [٣].

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة كتاب الزهد.

(٢) راجع للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: الفوائد صـ١١٢ . دار الريان للتراث: القاهرة. ط الأولى: ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ٨ .

سابعًا: خطب المدح والشكر

المدح: هو الثناء على الممدوح بما له من الصفات الطيبة.

وهذه الخطب قسمان: قسم تاريخي تقريري كمدح عظماء الرجال في حياتهم لا للزلفى إليهم، والتقرب منهم بل دراسة لأحوالهم، وبيانًا لصفاتهم، وتقريرًا لمذاهبهم، وهذه إما عملية تحليلية إذا كان الغرض منها البحث والتحليل، ورد الأمور إلى أسبابها، والمقدمات إلى نتائجها، وإما سياسية إذا كانت للدعوة لمذهب العظيم السياسي.

والأولى: تلحق بالمحاضرات العلمية، فلها طرائقها ومسالكها.

والثانية: تلحق بالخطب السياسية، فلها خواصها، وطرق النجاح فيها.

والقسم الثاني من قسمي المدح يكون بذكر المناقب والصفات إعلاء لشأن الممدوح وتشريفًا له، لابتغاء منفعة منه، أو لإظهار شعوره نحوه، وما يكنه له من إجلال واحترام.

وعلى الخطيب المادح أن يسلك من الطرق ما يراه أقرب لوصف ممدوحه وصفاً حقيقيًا، فإن أنقل أنواع المدح ما كان الكذب فيه ظاهرًا.

فعليه أن يبين:

أ- سجاياه وأخلاقه وصفاته التي رفعته وأحلته في تلك المنزلة السامية.

ب- بيان فضل الممدوح وأياديه البيضاء على الجماعة التي عاش بينها.

جـ- ولا مانع من أن يذكر شرفه النسبي وفضل أسرته، ونبلها وكرمها، وما اشتهرت به من صفات سامية جليلة القدر إذا كان لهم شرف نسبي(١).

أما خطب الشكر: فهو الثناء بالجميل على المتفضل به بتعديد مناقبه، وذكر إحسانه قال في العقد الفريد: الشكر المتعارف بين الناس هو إظهار النعمة والتحدث بها، وبسط اللسان بالحمد والتعظيم للمنعم بها والتنويه بذكره ورفع قدره، وهو برهان على الاعتراف بالجميل وعدم نكران المعروف، وذلك من أخلاق الكرام وسجايا الفضلاء ذوي الحسب الرفيع، فإن الأصول الكريمة هي التي يملكها الإحسان(٢).

(١) الخطابة . . ص ٢١٦ .

(٢) فن الخطابة . . ص ٧٧ .

وخطيب الشكر يسلك فيها نفس هذا المسلك، ويزاد عليه أن يطنب في ذكر النعمة التي أسداها الممدوح إلى الشخص، وطريقة إسدائها، ووقته، وتصدر تلك الخطبة عادة بذكر نعم الممدوح وفضله عليه.

خطبة رسول الله ﷺ في الشكر:

قال رسول الله ﷺ بعد حمد الله والثناء عليه:

«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير.

ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب»، ثم قرأ قوله تعالى:

﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾.

ثم قال رسول الله ﷺ:

«من أوتي ثلاثاً فقد أوتي مثل ما أوتي داود عليه السلام: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى»[1].

الخلاصة:

إنه بالتأمل في المحاضرات العلمية، وما ألحق بها يتبين أنها تتشابه موضوعاً وتختلف حسب الأقدار والأعمار وقيمة العمل، أو المآثر التي للمحتفل به على أمته وبلاده، على أن التكريم الصحيح الذي يكون لأعمال جليلة القدر حقيقة النفع يعطي الخطيب من الموضوع نفسه مصدراً للوحي فيجمع الإخلاص في البيان إلى فصاحة اللسان[2].

ومن ميادين الخطابة أيضاً:

الـدرس: فن من فنون القول يخدم الخطيب الداعية بما يثيره من قضايا تعرف الناس بخالقهم سبحانه، وقد جرى عرف الدعاة إلى الله أن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله جل وعز، أو حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ معنى هذا أن الدرس الديني لابد وأن يمثل مدرسة منظمة لها خطة، ومنهج. أستاذها هو الداعية المدرس

(١) حياة الصحابة: جـ ٣ ص ٤٥٥.

(٢) فن الخطابة.. ص ٨١..

وطلبتها هم الجمـاهير الذين يجدون المسجد مفتوحًـا أمامهم على قدم واحدة وبلا أدنى تكلفة [(١)].

ما يشترط في الدرس :

١-أن يكون آية من كتاب الله جل وعز، أو حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ .

٢-الدرس أشق من المحاضرة، أو الخطبة، وبعبارة أحكم: الدرس أحوج إلى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة.

٣-يقوم الداعية أو المدرس : بتحضير مادته مسبقًا تحضيرًا جيدًا، وأن لا يستطرد كثيرًا، وهو يلقي موضوعه لأن الاسـتطراد يبعد السامع عن أصل الموضوع، ويبعث في نفسه السآمة [(٢)].

٤-الدرس يتعدي موضـوعه بسبب روح الاستطراد الموجودة فيـه، وبسبب أسئلة المستمعين ومن هنا نجد فيه الدقة وعمق التأمل، والوجوه المتعددة في النظرة الواحدة.

٥-الدرس : يخـاطب العقل والروح وفـائدته أشمل، لأن المسـتمع يتـمكن من الاستفسار عما يجول بخاطره فيستريح.

ويجب أن يشمل الدرس على التمهيد، والافتتاح، والتسلسل والخاتمة، وعليه أن يشتـمل على الرقائـق والقصص. وقد سـمي القدمـاء مجلس الدرس بمجـالس الوعظ والذكر.

٦-الخطبـة : تلتزم بموضوع واحـد، وتخلو من الاسـتطراد، واستغـلال الدليل للمـوضوع فقط، وليس كـذلك الدرس في شيء، وهذا النوع ينبـغي على الخطيب أن يجيده ليؤثر في مستمعيه فيفيدهم ويستفيد [(٣)].

٧-عند التعرض لتفـسير آية من القرآ الكريم، يستحـسن أن يكون بالقرآن نفسه، فما أجمله القـرآن في موضع فَصّله في موضع آخر، فإن لم يجـد هذا البيان في القرآن

(١)انظر تذكرة الدعاة البهي الخولي ص ٣٠٠، وأصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان : ص ٤٥٨ ، وقواعد الخطابة ص ١٤٩ .

(٢)انظر : أصول الدعوة ص ٤٥٨ .

(٣)انظر قواعد الخطابة ص ١٤٩ .

تحول إلى السنة، فإن لم يجد ففي أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين، وكذلك يفعل في تفسيره الحديث النبوي، وعند كلامه في الفقه الإسلامي يستحسن أن يبين الحكم الفقهي الراجح إن كان من ذوي القدرة على تمييز الأقوال الفقهية الراجحة من المرجوحة، فإن لم يستطع ذلك فعليه أن يبين الحكم وفقًا لاتجاه أحد المذاهب الإسلامية. دون أن يذكر الخلافات الفقهية في كل مسألة يتعرض لها، لأن ذكر هذا الخلاف يشتت أذهان السامعين[١] .

٨- يعد الدرس الديني أكثر فائدة من الخطبة، أو المحاضرة، لأنه ميسور في كل وقت، فما عليك إلا أن تجلس في ناديك أو مسجدك لتلقي درسك على من يحضر من خلق الله، وهذا لا يكفي في المحاضرة أو الخطبة.

٩- ألا ينسى في درسه أن يسوق بعض الأمثلة التي توقظ الأفهام وتحرك أذهان السامعين، فقد حدث سلمان الفارسي ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه فقال: «**يا سلمان. ألا تسألني لم أفعل هذا؟** قلت: لم تفعله؟ قال: «**إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه، كما تحات هذا الورق، وقرأ**﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾[١] .

المحاضرة:

هي الأخرى فن من فنون القول، ولكنها تخضع لكيفية اختيار الموضوع إذ ينبغي أن يكون من صميم ما تجري به الحياة، وهذا يقتضي من الداعية المحاضر أن يكون متصلاً بهذه الدنيا منفعلاً بما يجري فيها من خير وشر معروف ومنكر، فما كان من صالح رضي به، وحمد الله عليه، وما كان من فاسد قام له، وأخذ في علاجه وتغييره بوسائله الحكيمة وموعظته الحسنة، وللمحاضرة سمات لابد من توفرها:

١- إنها تعالج موضوعًا معينًا باستقصاء وإحاطة وذكر الأدلة والبراهين، ذكر ما قيل حول الموضوع وإبراز الصواب من هذه الأقوال، وعلى المحاضر أن يكون دقيقًا في كلامه، فلا يكثر من العبارات العاطفية، لأن مجالها الأصلي الخطبة، وليس المحاضرة، وعليه أن يقيم المقدمات لما يريد الوصول إليه على مسائل واضحة جلية مشهورة، وأن

(١) أخرجه الإمام أحمد واستدل به الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره جـ ٢ ص ٤٦٤ ط . الحلبي .

يتجنب المسائل الدقيقة والمشتبهة والتي تقبل الأخذ والرد . . فإذا أراد تناول موضوع البعث مثلاً فيكفيه أن يلفت الأنظار إلى ما نشاهد من موت وبعث في عالم الحيوان والنبات . . إلخ[1] وقد جاء هذا المثل في قوله تعالى :

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾[2] .

فالحياة بعد الموت أثر مشاهد محسوس: أرض ميتة لا نبت فيها ولا حياة ينزل الله عليها المطر فتهيج ويخرج منها نبات حي بألوانه المختلفة وطعومه المتنوعة، إن الله الذي أحيا هذه الأرض هو الذي يحيي الموتى بعد أن خلقهم من ماء مهين، من نطفة نعرفها، ونراها، فإن الإعادة كما هو معلوم أسهل من الابتداء.

وعلى الداعية ألا يكون جافًا في محاضرته، وإنما عليه أن يضفي عليها شيئًا من التحريك العاطفي الوجداني بما يذكره من حقائق الإسلام، ومعاني العقيدة الإسلامية وهذا التحريك الوجداني يقوم على ما في النفوس من معاني الإيمان[3] .

٢ـ على الداعية المحاضر أن يدرس موضوعه دراسة وافية، حتى يفضي في النهاية إلى خاتمة يحسن السكوت عليها، فإذا تكلم عن العزة ـ مثلاً ـ وهي أهم موقومات الإنسان الفاضل فعليه أن يفهم المستمع أن له رسالة في الحياة يعمل جاهدًا لتحقيقها، أما الرجل الذليل، أو الذي يعيش بلا غاية معينة، ولا مبدأ معروف فهو من السوائم الهمل وأخيرًا لابد له بعد العزة والرسالة من العلم ليكون من أمره على هدى وبصيرة ومن لا علم له لا بصيرة له[4] .

المقصود من العلم هنا

العلم بالله تبارك وتقدس عن طريق التأمل في السماء وما فيها من عجيب صنع الله وآياته، والأرض وما أحدث فيها من كائنات وآثار، وما بين السماء والأرض من ظواهر كونية وما أفاض علينا من نعم في أبداننا وأرزاقنا، وأسرار نفوسنا وطباعنا وغير ذلك مما يفضي بنا النظر والاعتبار إلى الله جل وعز وهذا هو العلم الحق الذي

---

(1) انظر تذكرة الدعاة ص ٢٩٤، وأصول الدعوة ص ٤٥٩، ٤٦٠، وقواعد الخطابة ص ١٤٥ .
(2) فصلت ٣٩ .
(3) انظر تذكرة الدعوة ٢٩٤ ، وأصول الدعوة ص ٤٥٩، وقواعد الخطابة ١٤٥ .
(4) انظر تذكرة الدعوة ص ٢٩٥ ، قواعد الخطابة ١٤٥ .

يجب أن تتجه إليه جهود الإنسانية .

وكل علم لا يوصل إلى الله فهو علم لا بركة فيه، وليس معنى هذا أننا لا نتعلم الصناعات، أو طرق معالجة الأشياء لنعيش، ونأكل بل الغرض الأعلى مما نعرفه ونشتغل به، إنما القصد منه معرفة الله تعالى.

٣-يلزم المحاضر أن يفهم الناس أنهم يجنون ثمرة عملهم في الدنيا، كما يجنونها في الآخرة إذا كانت نياتهم خالصة له سبحانه فإن :

«قانون الوجود لا يتخلف فلكل شيء ثمن، ولكل عمل أجر، ولكل جهد بدني ونفسي ثمر من جنسه في الدنيا والآخرة وهو من قوانين الله التي لا تتخلف في حياة الأفراد ولا في حياة الجماعات والأمم، والكسل لا يهب إلا الحرمان، والفوضى لا تورث إلا الخيبة، والأنانية لا تعقب إلا التنازع والتفكك والفشل[1].

٤-كما يلزمه «إحياء المشاعر الإلهية، وبث خواطر الخير والتقوى في القلوب، فكل موضوع يجب أن يعالج على هذا الأساس، بل يجب أن يكون للداعية في موقف المحاضر هدفان أساسيان:

أ-علاج موضوعه الخاص.

ب-إحياء هذه المشاعر القلبية إحياءً ربانيًا، على أن يكون الغرض الأول مقصودًا لذاته، ومقصودًا كوسيلة للغرض الثاني، ويجب لهذا أن يساق للسامع ما يشعره بأنه مسؤول ومحاسب، وبأن عين الله ساهرة تطلع عليه وتحيط بظاهره وخفي سريرته. وأن الإنسان قادر على أن يجعل ما يدور في هذه السرائر خيرًا محضًا يرضي الله ويسعد العباد والسعيد من جعل نفسه زكية مطهرة[2] ﴿قد أفلح من زكاها﴾ الشمس ٩ .

٥-على الداعي المحاضر أن يتوصل إلى حقيقة هامة وهي :

أن المحاضرة لا تتضح في ذهن الداعية إلا بمرور الزمن وكثرة الإلقاء، مرة ومرة ومرة.. في أماكن مختلفة، وعليك أن تنقد نفسك عقب كل مرة تلقي فيها محاضرتك، ووازن بين موقفك في كل مرة وسابقتها، فهذا يكسبك ثباتًا وقدرة هائلة على التوضيح، وسهولة في سياق العبارات والألفاظ، ثم إن كثرة الترديد.. تعين على

(١)انظر تذكرة الدعوة ص ٢٩٩ هامش ١ .
(٢)المرجع نفسه ص ٢٩٨ .

اختمار المعاني فيلد بعضها بعضًا، وتزداد سموًا وقيمة، فلا تخشى من نفسك أن تقول لك إن تكرير المحاضرة الواحدة في الأماكن المتعددة عي وعجز . . فإن الحقيقة لا ينقص من قدرها أن تتكرر، ولا ينقص من قدر صاحبها أن يكررها، فحسب الإنسان أن يكون على حق، وأن يدعو إلى حق على أن من مزايا الإعادة أن يزيد الداعية إيمانًا وتضلعًا وتعلقًا بما يقول. أما إن أجهد الداعية نفسه في تحضير المحاضرات الكثيرة المتعددة النواحي لكي يقنع غيره بأنه بحر لا ساحل له من المعارف، يتكلم في كل بلدة بما لا يتكلم به في غيرها، فذلك منهج في الدعوة لا يثمر، ولا يفي بإقناع الناس بحقيقة من الحقائق فضلاً عن أنه من إملاء الأنانية والرياء والسمعة، وحسبك أن تعلم أن رسول اللهﷺ أمضى حقبة من عمر رسالته في مكة يقول إذا عرض نفسه على القبائل قولاً واحدًا لا يغيره : «**أدعو إلى أن تعبدوا الله وحده، وأن تخلعوا هذه الأوثان التي تعبدونها من دونه، وأن تمنعوني حتى أبلغ عن ربي**».

وذلك لأنه إنما يبلغ حقيقة ويدعو إليها، وليس من همه إثارة إعجاب الناس وملكاته العقلية واللسانية[1]، لكن الرسولﷺ نوع في دعوته وأخبر بما أمره الله، والقرآن خير شاهد على ذلك فهوﷺ لم يقف مثلاً عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده، أو عن قصص الأولين، بل كلمهم عن الألوهيات، والنبوات، والغيبيات. كما كلمهم عن الخلق، والإحياء والإماتة، والحساب والنشور . . إلخ فكيف يوصف من ينوع في أسلوب محاضراته بأنه من إملاء الأنانية والرياء والسمعة كما قال المرحوم البهي الخولي، ثم إذا كانت المحاضرة تختار وتعد أليس في أختيارها أن تكون مطابقة لمقتضى الحال؟ ثم أن الرسولﷺ كان يتمسك بالدعوى إلى الناس بأسلوب واحد في فترة معينة لقبائل كانت عقائدهم مشابهة في فهم الألوهية فأرادﷺ أن يزيل هذا الخطأ الذي حجب عقولهم أولاً ثم يسوق بقية أوامر الله وأخباره تعالى تباعًا، وهو ﷺ في هذا كله مرتبط بالمنهج القرآني أي أنه لم يتصرف من قبل نفسه، ومن ثم فهو ﷺ كان مراعيًا لمقتضى الحال كما أراد الله، والمحاضر الداعية عليه أيضًا أن يراعي مقتضى الحال.

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

الفرق بين الخطبة والمحاضرة :

تبين مما سبق أن هناك فروقا بين الخطبة والمحاضرة منها :

١ - موضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة، لأن التقسيم يبدأ في المحاضرة أولاً ثم تقسم إلا عناصر، بينما الخطبة تقسم إلى عناصر ابتداء، ومن ثم فإن المحاضرة أقرب إلى البحث العلمي من الخطبة.

٢ - يغلب على المحاضر سوق الحقائق وتثبيت المعاني والاعتماد على المنطق والتحليل والتوضيح. أما الخطبة فيغلب عليها صيغة إثارة العواطف والمشاعر والانفعالات.

٣ - عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والمبادئ الأساسية، أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة.

٤ - المحاضرة تستغرق وقتًا طويلاً، ومن الممكن تقسيمها على عدد من الأيام، أما الخطبة فوقتها قصير، كما أنه لا تصلح إلا في وقت معين.

٥ - غالبًا ما يكون جمهور المحاضرة من الخاصة، بينما جمهور الخطبة يضم جمهور الناس من مختلف الطوائف.

المناقشة والجدل :

فن من فنون القول له أصوله، وتطبيقاته، وفوائده جاء في مقدمة كتاب فن المناقشة :

«إن علماء النفس الاجتماعي توفروا على بحث فن المناقشة، ووضعوا له أصولاً محكمة، حتى كاد أن يكون علمًا مستقلاً، وبينوا مسؤوليات كل من الرائد والأعضاء وحقوقهم، والشروط التي بها تسير المناقشة سيرًا مثمرًا، ووضعوا الوسائل العلمية التي يمكن بها ضبط اتجاهات المناقشة، وتقويم نتائجها»[1] .

القرآن . . . وفن الجدل :

بين القرآن الكريم كيفية فن المناقشة والجدل في أكثر من آية منها قوله سبحانه :

---

(١) قواعد الخطابة ص ١٤٢، وأصول الدعوة ص ٤٦٠، وانظر تاريخ الجدل للشيخ محمد أبي زهرة.

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(١). ففي الآية تنبيه على أن الجدل يكون بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة... والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر.

وهذا هو منهج الدعوة ودستورها، كما جاء في القرآن، مادام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة (٢).

وفي سورة الكهف : يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٣). لماذا؟ كي يطامن الإنسان من كبريائه ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً (٤).

وفي سورة العنكبوت : يقول الله تعالى :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٥)

ففي هذه الآية الكريمة نلمس الهدف من مجادلة أهل الكتاب وأنها لا تكون إلا بالحسنى، «لبيان حكم مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله الموافقة لما قبلها من الدعوات، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر. ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية، وأشركوا بالله، وأخلوا

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) انظر الظلال جـ ٤ ص ٢٢٠٢ .

(٣) الكهف : ٥٤

(٤) الظلال : جـ ٤ ص ٢٢٧٥ .

(٥) العنكبوت : ٤٦

بمنهجه في الحياة. فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة. وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة»[(١)].

فعلم الجدل والمناقشة قعد له القرآن، ووضع له المعالم، والأهداف قبل أن يولد علماء النفس، والاجتماع، فمن أراد أن يعرف الجدل الحق فعليه بالقرآن، وينبغي والحالة هذه أن نستدل بما جاء في القرآن حول هذه المادة أولاً ثم ما ذكره علماء الاجتماع مؤخرًا، والكلمة (جدل) بعد هذا تفيد : المنازعة في الرأي، كما تطلق على شدة الخصومة واللدد فيها[(٢)].

والمناقشة والجدل لا يكونان إلا بين اثنين، أو أكثر بحيث يعرض كل جانب وجهته فيما يراه ويعتقده من أمور، والغرض من الجدل: إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال.

- ٥٢ السبب في ظهور الجدل والمناقشة :

يرجع وجود هذا اللون من الفن إلى أن الداعي عندما يدعو غيره إلى أمر ما قد لا يقبل المدعو دعوته، فيقبل على جدال الداعي ومناقشته، ومحاجته.

وقد ورد ذكر هذا الفن في القرآن كثيرًا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[(٣)].

فالمدعو في مناقشته، وجداله مع الداعي قد يصل إلى حد اتهام الداعي بالضلال المبين فلا يعجب الداعي من ضلال المدعو له، ولا يخرجه عن هدوئه واتزانه، شفقته عليه، كما هو واضح من جواب نوح عليه السلام.

ولمزيد من الوضوح يأتي التعبير القرآني الكريم أيضًا فيقول:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

---

(١) الظلال جـ ٥ ص ٢٧٤٥ .

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم : مجمع اللغة العربية مادة: جدل، وانظر تاريخ الجدل.

(٣) الأعراف : ٥٩ ـ ٦٣ .

عذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . هود: ٢٥ - ٣٤ .

ففي هذه الآيات يظهر ضيق المدعوين من نوح عليه السلام حتى قالوا: ﴿جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنهم لا يكترثون بشيء، حتى وصل بهم اليأس أن يتحدوه عليه السلام ومع ذلك وكلهم إلى الله ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

رد غاية من اللطف والأدب من أحد أنبياء الله، يلاحظه الداعي في جداله ومناقشته فيتأثر بالقرآن وأدبه فالمناقشة بالحسنى، وبالكلام الطيب والأدب الجم، والتواضع والهدوء وعدم رفع الصوت، وعدم إغاظة المقابل له تعطي ثمارها، وعليه أن يبقى كلامه معه على مستواه العالي الرفيع اللين الخالي من الفظاظة والخشونة، مع قوة الإقناع ووضوح الحق[1] ، وهذا ما دعا إليه الإسلام في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] .

ومن الإنصاف للخصم هذا التوجيه الإلهي لرسول الله ﷺ وللمؤمنين في قوله

(١) انظر أصول الدعوة ص ٤٦٠ .
(٢) النحل : ١٢٥ .

تعالى : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

ويظهر وجه الإنصاف في أن الآية تقول للمخالفين للإسلام: لا تسألون عما أجرمنا فنسب الإسلام الإجرام إلى أتباعه، وكان القياس أن يقول: ولا نسأل عما تجرمون، ولكنه عدل فقال: ولانسأل عما تعملون، إنها لمحة كريمة مهذبة تبدأ بتوجيه الأمر لرسول الله ﷺ«قل» ضمن مقولات متلاحقة كالمطارق:

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ . . .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . .

﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا . . .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا . . .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ . . .(٢).

وكلها تصدع بالبرهان في قوة وسلطان، وفي هذه الآية التي معنا رد على اتهام المشركين بأن الرسول ﷺومن معه هم المخطؤون الجارمون! وقد كانوا يسمونهم «الصابئين»أي المرتدين عن دين الآباء والأجداد. . كما يقع الاتهام من أهل الباطل لأهل الحق في كل زمان فيتهمونهم بالضلال ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فلكل عمله، ولكل تبعته، ولكل جزاءه، وعلى كل أن يتدبر موقفه، ويرى إن كان يقوده إلى فلاح أو إلى بوار.

وبهذه اللمسة يوقظهم إلى التأمل والتدبر والتفكر. وهذه هي الخطوة الأولى في رؤية وجه الحق، ثم في الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة (٣).

فإذا أصر المدعو على باطله ولج في عناده، وأصبح الكلام معه عبثًا فليقطع الداعي الجدل، وليتذكر قوله الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾(٤).

(١) سبأ : ٢٥ .
(٢) راجع الآيات : ٢٢ ـ ٢٧ من سورة سبأ .
(٣) انظر : الظلال جـ ٥ ص ٢٩٠٥ .
(٤) يونس : ١٠٨ .

وقـــوله جل ثناؤه : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وهذا المسلك، وهو قطع الجدل مسلك سديد؛ لأن بعض الناس لا ينفع معهم الجدل، لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحق، وإنما غرضهم المكابرة والعناد والجحود[2].

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3] .

علاقة الخطبة بالمناقشة :

تتفق الخطبة مع المناقشة في أمور ويختلفان في أمور :

أما مواضع الاتفاق فهي أن:

١ـ كلاهما قول معد يهدف الإقناع والإثارة .

٢ـ كلاهما يخاطب الناس لأنه يعايشهم ويعيش مشاكلهم.

٣ـ كلاهما يحتاج إلى إخلاص النية، وسعة الأفق، ومحبة الجماعة.

أما ما يختلفان فيه فهو أن :

أـ الخطبة يؤديها شخص واحد، بينما المناقشة يؤديها أكثر من واحد بحيث لا تزيد عن عشرين.

بـ الخطيب هو الذي يعد خطبته، ويقيمها بعد إلقائها؛ بينما المناقشة ينظمها الموجه ويدون عليها تعليقاته.

٣ـ إذا أورد الخطيب في خطبته قصة جدلية بين فلان وفلان عُدّت هذه من قبيل المناقشة المألوفة التي تخضع لشروط الجدل والمناقشة.

٤ـ أدلة الخطيب تكون أمورًا محفوظة، أو مكتوبة يقرؤها الخطيب، بينما أدلة المناقشة تكون هكذا وتكون بصور أخرى كالرسوم الإيضاحية، أر الخرائط، أو

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) أصول الدعوة ص ٤٦٠ وما بعدها.

(٣) الأنعام : ٧ .

المتجلات (١) . . إلخ

الغرض من المناقشة :

إنها توفر أكبر قدر ممكن للدراسة الجماعية، ولتبادل الأفكار حول موضوع يهم الجماعة وإيجاد الحلول المناسبة له. ولكي تنجح المناقشة اشترطوا لها وجود موجه، وملاحظ مع الجماعة.

والموجـه : هو قائد مجموعة المناقشة، ويجب أن يكون مخلصًا للفكرة محبوبًا عند الجميع مع سعة في الأفق وقوة في التدبير وحسن تخلص في ساعات الحرج.

أما الملاحظ : فدوره تسجيل كل ما دار في المناقشة من أجل تقييمها في النهاية.

المناظرة والجدل والمكابرة :

تخضع هذه الأمور، وتندرج تحت فنون القول . . فما مدلولها؟

تدور على الألسنة عبارات: المناظرة والجدل والمكابرة :

فالمناظرة : يكون الغرض منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت أنظار المتناقشين فيه. ويطلق عليها في اللغة: المجادلة، تقول: ناظرته مناظرة جادلته مجادلة، وعند الأصوليين: توجه خصمين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب.

والمناظرة البيانية عبارة عن تأليف أنيق، يوجه الكلام لمتخاصمين يفاخر أحدهما الآخر، وتكون بالجمع بين شيئين متضادين، أو متباينين في صفاتهما، وآثارهما، بحيث تظهر خواصهما بالمقابلة، كالحجاب والسفور، والصيف والشتاء، والسيف والقلم، والحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر.

والمكابرة : لا يكون الغرض منها إلزام الخصم، ولا الوصول للحق، بل اجتياز المجلس، والشهرة، أو مطلق اللجاجة، أو غير ذلك من الأغراض التي لا تغني في الحق فتيلاً.

ويلاحظ هنا أمران :

الأمـــر الأول : أن المناقشة الواحدة قد تشتمل على كل هذه الأنواع الثلاثة،

(١) انظر قواعد الخطابة ص ١٤٣ ، ١٤٤ بتصرف .
(٢) فن الخطابة . . ص ١٥ .

كيف؟ قد يبدئ المناقشان متناظرين طالبين للحق، فينقدح في ذهن أحدهما رأي يثبت عليه، ويأخذ في جذب خصمه إليه، وإلزامه به، وحينئذ تنقلب المناظرة جدلاً.

وقد تدفعه اللجاجة إلى التعصب لرأيه، وتأخذه العزة بالإثم، تبدو له الحجج واضحة على نقيض رأيه، ويسوق إليه خصمه بالدليل تلو الدليل، فلا يحير جوابًا، ومع ذلك يستمر في لجاجته، فينتقل الجدل إلى مكابرة [١].

وقد تشتمل المناقشة على جدل ومناظرة، كأكثر المحاورات السقراطية.

كان سقراط يبتدئ بمجادلة خصمه فيما يدعيه، حتى يفحمه، فيقتنع بجهله ثم يناقشه حتى يأخذ بيده إلى الحق.

الأمر الآخر إن الجدل قد يطلق في اللغة ويراد منه المناظرة كقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣].

وقد تطلق المناظرة، ويراد منها الجدل، أو المكابرة لغة.

كقول الغزالي في رسالة (أيها الولد):

أيها الولد إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلها مني لئلا يكون علمك خصمًا عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة: أما اللواتي تدع:

فإحداها: ألا تناظر أحدًا في مسألة ما استطعت؛ لأن فيها آفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها إذ هي منبع كل خلق ذميم، كالرياء والحسد، والكبر والحقد، والعداوة والمباهاة وغيرها إلخ .. والمناقشة التي تجر إلى هذه الرذائل إنما هي جدل أو مكابرة [٤].

متى نشأة العناية بالجدل؟

بدأ علماء الإسلام يولون اهتمامهم بالجدل والمناظرة منذ أ نشب الخلاف الفكري بين العلماء ورجال الفكر في أمة الإسلام، وبينهم وبين أهل الكتاب.

ثم توصلوا إلى وضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة، لكي يكونا في دائرة المنطق

---

(١) تاريخ الجدل ص ٥ .
(٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) العنكبوت : ٤٦ .
(٤) تاريخ الجدل ص ٦ .

والفكر المستقيم، أسموها علم الجدل، أو علم أدب البحث والمناظرة.

قال عنه ابن خلدون في مقدمته :

وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعًا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصًا منقطعًا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت، ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي، أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره...

وأول من كتب فيه: البزدوي، والعميدي، ثم كثر التأليف فيه من بعدهما[١].

الفرق بين المناظرة والخطبة :

المناظرة يقوم بها أكثر من طرف كما سبق، بينما الخطبة يلقيها شخص واحد على المستمعين وقد يجد الخطيب نفسه في مناظرة بعد إلقاء الخطبة، والانتهاء منها فعليه مراعاة الآتي :

أولاً : أن يترك كل رغبة في الغلبة والانتصار على مناظره بلا حق، أو باستعمال القهر والسطوة، لأن الهدف من المناظرة العلمية هو الحق[٢].

فالمناظرة تتطلب اتجاه المتخاصمين في النسبة بين أمرين إظهارًا للصواب بينما نجد أن المجادلة مثلاً : هي المنازعة لإلزام الخصم.

أما المحادثة : فهي التي تكون بين اثنين لقصد معرفة خبر أو أخبار.

أما الدرس : فهو توعية دينية تدور حول آية أو حديث، أو موضوع كما سبق، ويحتوي على الأنواع السابقة كلها، لأن المشتركين فيه يسألون ويجادلون[٣].

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) انظر : قواعد الخطابة ص ١٤٨ .

(٣) النظر المصدر نفسه ص ١٠ هامش .

ثانياً: أن يترك الحديث عن النفس، لأن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه. وعليه أن يتحلى بالتواضع والإقبال على الموضوع بفهم وروية[١].

ثالثاً: على الداعية أن يعلم أن للمناظرة أصولاً ينبغي مراعاتها منها:

أ- أن المناظر الأول يأتي بالدليل المستلزم للمطلوب، ويعتمد المقدمة.

ب- وعلى الطرف الآخر أن يرد بنقض الدليل، أو بمعارضته بدليل آخر على نقيضه، أو بمنعه بطلب دليل على مقدمات الدليل، فإذا أراد الداعية أن يصل إلى نتائج طيبة فلا يتحول إلى مجادل لإلزام الخصم فقط، ولا مكابرًا يهدف العناد فقط[٢] بل عليه أن يلتزم بقواعد المناظرة والهدف منها.

المقالة

تعد المقالة من أنواع القول الذي يلجأ إليه الداعية إلى الله لشرح آية، أو حديث، هذا النوع لم يكن شائعًا في صدر الإسلام، حيث لم يتوفر لها المناخ الملائم، ثم أصبح ذا أهمية كبيرة حيث يستطيع الداعي أن يبسط فكرته في مقالة حول دعوة الإسلام بأسلوب بليغ وحجة ساطعة، ومثل هذه الوسائل تخدم الدعوة حيث إنها تصل إلى أعداد هائلة من القراء فتعرفهم بالإسلام ودعوته، ومن ثم كانت الخطبة والمحاضرة والمناظرة والمجادلة بالحسنى والمقالة كلها أدوات تخدم الإسلام إذا أحسن عرضها، وصادفت المحك[٣].

المطلوب من المقالة:

إن ينزل الداعية إلى أفهام الناس كافة عالمهم وجاهلهم، أي إلى المستوى الذي يألفه الجمهور في فهم ما يقرأ أو يسمع مستوى الألفاظ السهلة والأفكار الواضحة. فإن كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة فهي لا شك سهلة واضحة.

ومن الحوار الآتي نتعرف موقع ومكانة المقالة: سأل أحد الدعاة صاحبه ما رأيك في كتابتي؟ فقال صاحبه: إن أسلوبك سما ببضاعتك فوضعها في شرفات الدور الأعلى فرجل الشارع لا يراها ولا يتأثر بها، وإن كان أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون

---

(١) انظر: تذكرة الدعاة ص ٣٠٧ وما بعدها، وقواعد الخطابة ص ١٤٨ بتصرف.
(٢) قواعد الخطابة ص ١٢٨ بتصرف.
(٣) تذكرة الدعاة ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ باختصار.

لها مزاياها، ولو أنك نزلت ببضاعتك فوضتها في معارض الدور الأول، لرآها الجميع، وانتفع بها رجل الشارع فقال الداعية :

إننا مكلفون أن نرفع الجمهور إلى مستوانا لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير . .

فقال صاحبه: لو أنك أستاذ في اللغة والأدب لحق لك أن تقول هذا، ولكنك صاحب دعوة، وقائم على رسالة مكلف بمقابلة الجميع، والتحدث مع الجميع، والتفهم مع الجميع، فإذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم أضعت الوقت، وأخفقت في الرسالة. . ألا ترى التاجر يحتال في عرض تجارته وتنسيقها تنسيقًا مغريًا بالوقوف عليها، أو الشراء منها؟ فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم إليها؟

ليس معنى هذا أن يتبذل الداعية في حديثه، وليس عليه بالضرورة أن يتزمت، وليس من المحتم أن يجري كلامه عاميًا لكن ليس من المحتم أن يجعله كله جاريًا على ما حوت القواميس من الألفاظ اللغوية الصحيحة.

ومما يسهل على الداعية مهمته أنه سيكتب للناس عن واقع الحياة الذي يعيشون فيه، فواقع الحياة اليومية هو تاريخ الإنسانية الحاضر، وهو مستودع أخطائها وصوابها، فإذا أخذ الداعية مادة حديث من صميم ما يجري في هذه الحياة: صوابه وخطأه، وصور كل في صورته الطبيعية وعالجه بروحه الرباني ووزنه بميزانه الإلهي فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة [1].

الحديث العادي :

قد يلجأ الداعية إلى الجمهور حيث إن بضاعته تروج بينهم، ومن ثم فهو في حاجة إليهم، ومطالب بأن يتلطف في الحديث معهم والتقرب إليهم بعكس جمهور المحاضرة الذي يكون غالبًا منصرفًا عن الدعوة وعما تدعو إليه، ولا يسع الداعية والحالة هذه إلا استخدام الحديث الرقيق والكلام اللين، على عكس ما يقال في المحاضرة، والدرس، والخطبة، والمقالة، أما في الحديث العادي فهو ألزم وأظهر . . .

ففي الناس شذوذ وفيهم تعال وكبرياء، وفيهم ميل إلى تنقص أصحاب المبادئ وبخسهم أشياءهم.

---

(١) المرجع نفسه .

وعلاج هذا كله، أن يتغاضى عنه، ويلتـزم جانب الرقة في الحديث، واللين في الخطاب.

وعليه أن يتبع الآتي:

١- أن يترك الرغبة في الغلبة والانتصار على مناظره.

٢- أن يترك تحدي الناس بما لدعوته من فضل، وما لمبادئها من سمو..

٣- أن يترك التعالم والتفـاصح على الناس، وعليه أن يتواضع، وأن ينسى علمه وفصاحته، وليقبل على الناس بفضل الله سبـحانه لا بفضل نفسه فيفتح الله له ما يشاء من القلوب، والعقول، والله ذو الفضل العظيم[١].

* * *

قال محمد بن بشر العبْدي قال حدثنا بعض أشياخنا قال: اعتمر علي ﷺ فرأى رجلا مـتعلقا بأسـتار الكعبة وهو يـقول: يا من لا يشغله سـمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يمله إلحاح الملحين: أذقنـي برد عفوك وحلاوة مغفـرتك، فقال علي: والذي نفسي بيده، لو قلتها وعليك ملء السماوات والأرض ذنوبا لغفر لك[٢].

ومن دعـاء النبي ﷺ: «اللهم اجـعلني لك شكّارا، لك ذكّارا، لك رهّابا، لك مطيعا إلـيك مخبتاً، لك أوّها منيـبا، رب تقبّل توبتي واغسل حـوْبتي، وأجب دعوتي وثبّت حجتي واهد قلبي وسدد لساني»[٣].

(١) المرجع نفسه ص ٣٠٦

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة كتاب الزهد صـ ٢٨٥..

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة كتاب الزهد صـ ٢٩٠

أهمية خطب الوعظ والإرشاد

مقدمة:

هذا الفن من الخطب له دور كبير في تقديم اعوجاج كثير من النفوس، لأنه يلقى حديثه بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وهو يعتمد على:

(١) **الأمر المعروف، والنهي عن المنكر**، وهذا أصل من أصول الدين، وهو واجب على ما سيأتي بيانه، ومن يخالط الناس يعرف عن كثب ويشاهد ما يحدث بينهم من المنكر، ومن يسكت فقد عصى الله سبحانه ورسوله ﷺ .

قام أبو بكر الصديق ﵁ خطيبا، وقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [١] . وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب) [٢] وقال ﷺ : «إن الله ليسأل العبد حتى يقول له: ما منعك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وخفت الناس» [٣] .

(٢) **مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** «هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد» [٤] .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجب كل مسلم في حدود طاقته، وعلمه ومحيطه، وقد اجتمعت الأمة على وجوبه، وقد دلت على هذا الآيات، والأخبار والآثار:

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥] .

(١) المائدة الآية رقم ١٠٥ .

(٢) الحديث في الإحياء ص ١٠٥، قال عنه الترمذي: حسن صحيح ط الشعب.

(٣) الحديث في الاحياء ص ١٠٥ .

(٤) الخطابة ص ٥٩ .

(٥) آل عمران: ١٠٤ .

فالآية أشارت إلى الوجوب في قوله: ﴿ **وَلْتَكُن** ﴾ وهو أمر ظاهر والأمر يفيد الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ .

وهذا بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به البعض سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ** ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة.

قال الله سبحانه: ﴿ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [١] .

والآية تفيد أن الله سبحانه لم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال سبحانه:

﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾ [٢] .

فقد وصف الله المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين الموصوفين في هذه الآية، ومن ثم فإن الله شدد النكير على هؤلاء في قوله تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [٣] .

وهذا غاية التشدد إذ علل استحقاقهم للعنه بتركهم النهي عن المنكر.

أما فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتطالعها في هذه الآية الكريمة:

﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [٤].

---

(١) آل عمران: ١١٣، ١١٤ .

(٢) التوبة: ٧١ .

(٣) المائدة: الآيات من ٧٨ إلى ٧٩ .

(٤) آل عمران آية ١١٠ .

فتبين مــن هذه الآية أن المسلمين كانوا به خير أمــة أخرجت للناس، والآيات في هذا الموضوع كثيرة (١) .

وأما الأخبار فمنها ماورد عنه ﷺ : «**إياكم والجلوس على الطرقات**، قالوا: ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحـدث فيها قال: **فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطـوا الطريق حقها**، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: **غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»(٢).

وأما الآثار: فمنها مارواه أبو الدرداء ﷺ لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عـليكم سلطانًا ظالمًا، لا يجل كبيـركم، ولا يرحم صغيـركم، ويدعو عليه خياركم، فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم».

وسئل حذيفة ﷺ عن ميت الأحياء فقال:

الذي لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه..

وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبـر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثـواب من الله لم يجد مس الأذى، فمن آداب الخطيب أو الواعظ أن يوطن نفسه على الصبـر ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف.

فقال حاكـيًا عن لقمان الحكيم: ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ** ﴾(٣).

قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك بين قومك؟ قال: حسنة، قال: إن التوراة تـقول: إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر سـاءت منزلته عند قومه.

فقال أبو مسلم: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

الرفق في الموعظة:

روى أبو أمامة أن غلامًا شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للإمام الغزالي فصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة لقمان آية رقم ١٧ .

فصاح الناس به؟، فقال النبي ﷺ : «**قربوه، ادن** فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ : «**أتحبه لأمك**» فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: «**كذلك الناس لا يحبون لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟** فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: «**كذلك الناس لا يحبون لبناتهم، أتحبه لأختك؟**، وزاد ابن عوف: حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقول في كل واحد لا جعلني الله فداك، وهو ﷺ يقول: كذلك الناس لا يحبونه، وقالا: جميعًا في حديثهما أعني ابن عوف والراوي الآخر، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «**اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصِّن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه منه**» «يعني الزنا».

قال محمد بن زكريا الغلابي: شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة، وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله. وإذا في طريقه غلام من قريش سكران، وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس يضربونه فنظر إليه ابن عائشة فعرفه، فقال للناس: تنحوا عن ابن أخي، ثم قال: إليَّ يا ابن أخي: فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه، ثم قال له: امض معي، فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار، وقال لبعض غلمانه: بيته عندك، فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به، فلما أفاق ذكر له ما حدث فاستحيا منه وبكى وهم بالانصرف فقال الغلام: قد أمر أن تأتيه، فأدخله عليه فقال له: أما استحييت لنفسك؟ أما استحييت لشرفك؟ أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه، فبكى الغلام منكسًا رأسه ثم رفع رأسه وقال: عاهدت الله عهدًا يسألني عنه يوم القيامة، أني لا أعود لشرب النبيذ، ولا لشيء مما كنت فيه، وأنا تائب، فقال: ادن مني فقبل رأسه وقال: أحسنت يا بني، فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك ببركة رفقه.

ثم قال: إن الناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويكون معروفهم منكرًا فعليكم بالرفق في جميع أموركم تنالون به ما تطلبون[1].

(٣) موقف السلف الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يروى أن الحجاج[2] جمع بعض علماء العراق، وفيهم الحسن البصري، والشعبي

(١) الإحياء: ٢/ ١٢٣٦». ط/ الشعب.

(٢) ولد الحجاج بالطائف سنة ٣٨، أو ٤٠هـ . .حفظ القرآن الكريم، وروى الحديث، وتعلم الرماية=

يحادثهم، فذكر علي بن أبي طالب ﷺ فنال منه وجاراه من معه تقربًا له، وأمنًا من شره، إلا الحسن البصري، فصمت على مضض وعض على إبهامه، إذ غلى مرجل غضبه، فالتفت إليه الحجاج، وقال: يا أبا سعيد مالي أراك ساكتًا؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني في أبي تراب؟ قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿**وما جعلنا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ فعليٌّ ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول:

ابن عم النبي ﷺ، وختنه على ابنته، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات، سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعليٍّ هناة فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا فبسر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضبًا، فدخل بيتًا خلفه وخرج الجمع فقال عامر الشعبي: أغضبت الأمير، وأوغرت صدره فقال: إليك عني يا عامر يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطانًا من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر: هلا اتقيت إن سئلت، فصدقت، أو سكت فسلمت.

قال الشعبي:

يا أبا سعيد قد قلتها، وأنا أعلم ما فيها.

قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك، وأشد في التبعة. وهكذا تكون قوة الإيمان في شهادة الحق، وهي الفريضة الواجبة على العلماء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

=وركوب الخيل لدرجة الإجادة، وكان في أول حياته يعلم الصبية القرآن، وهو الذي وطد ملك المروانيين، وأعاد للدولة الإسلامية وحدتها بعد أن كادت تعصف بها المطامع السياسية والأهواء المذهبية، والذي ساعده على هذا اتصاله بروح بن زنباع رئيس شرطة عبد الملك بن مروان، فقد عمل معه وما زال يترقى حتى حل محله، ثم قاد جيشًا لقتال عبد الله بن الزبير في الحجاز فسار إليه وحاصره بمكة، ثم قتله وأزال ملكه.

فولاه عبد الملك العراق الذي كان في تلك الآونة أتونًا يستعر بالحروب بين الشيعة والخوارج، فاستن سياسة القوة حتى استتب الأمر لعبد الملك، وبقي الحجاج في خدمة ابنه الوليد إلى أن مات سنة ٩٥هـ عن عمر ناهز الأربع والخمسين سنة.

راجع صور من الأدب والأدباء في شتى العصور.. لسليمان. الأغاني ص ٤٧، والخطابة وإعداد الخطيب.. ص ٢٣٤ وما بعدها.

(٤) مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لخصها الإمام الشيخ محمد عبده في ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى :

دعـوة هذه الأمة سـائر الأمم إلى الخيـر ليشـاركوهـم فيـما هم عليـه من النور والهدى، وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين فقال تعالى في وصفهم :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[١].

المرتبة الثانية :

دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر، ببيان طرق الخير، وتطبيق ذلك على أحوال الأمم، وضرب الأمثال، ويقوم بهذه وسابقتها العارفون بأسرار الشريعة وهم الذين قال الله فيهم : **﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾** سـورة التوبة: ١٢٢ .

المرتبة الثالثة :

تكون بين آحاد الأمـة علماء وجهلاء بالتـواصي على الحق، والتناهي عن المنكر كل بما يعرفه، فـإذا رأى أحد المسلمين مسلمًا يتردى في موبقـة هو يعلمها ولو لم يكن من الخاصـة تصدى لنصـحه وإرشـاده، وبيان ما أمـره به الدين وما ينهـاه عنه في هذا المقام.

مما سبق تعلم مـقدار عناية الدين الإسلامي بالأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن بناء الأمم وحـفاظ الجـماعات في الإسـلام يمنعها من التـردي في مهـاوي الضلال والفساد.. وإن شـعور كل امرئ مسلم بأن عليه من الجـماعة من له كالرقيب العـتيد، يحصي عليه سيئاته ويعد له حسناته يدفعه إلى الكمال ويسير به في طريق الرقي[٢].

---

(١) سورة الحج آية رقم ٤١ .

(٢) د . عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة. وانظر: الإحياء: فصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٥) إن الجماعات الإنسانية لا تصلح إلا بالدين، ولا يقوم شأنها بغير هدايته، ولا تستقر إلا بقوته، لأن الدين يهذب العالم، والجاهل وذا العقل القوي وصاحب العقل الضعيف، فالجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها تخضع للدين.

قال العلامة «جوستاف لوبون» في كتابه الآراء والمعتقدات :

وإذا نظرنا إلى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية، فإننا نراه ذا تأثير في الفنون، والآداب السياسية، ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة. .ولا شك في أن سيطرة التفكير الديني على البشر ستمتد زمنا طويلا. .ا.هـ.

إن الدين هو الذي يربي الوجدان الفاضل، ويهذب الضمير، ويوقظ شعور الإنسان بالفضيلة، ويحي الضمير، لأنه يمس مواطن الإحساس في النفوس ويؤثر فيها أبلغ تأثير، ومن ثم فإنه ستمتد سيطرة الدين إلى يوم الدين، لأنه سلوان الجماعات وعزاء اليائسين وعزة المغلوبين.

ومما يجب أن يتحلى به الخطيب أو الواعظ أن يكون:

(١) على حظ عظيم من الشجاعة المعنوية، يصرح برأيه، وبالحق الذي يراه في الدين واجب الرعاية، لا يهمه في ذلك أغضاب، أو ارضاء أحد من البشر فليس موقفه موقف ارضاء أو أغضاب، بل موقف اصلاح وهداية، ولا يهم أذى المخلوق، ما دام يعمل لارضاء الخالق سبحانه، قال الإمام الغزالي في الاحياء، أوصى بعض السلف بنيه فقال:

إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى. ولذا قرن الله الصبر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حاكيا عن لقمان الحكيم: ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ (١) ؛

وليس معنى هذا أن يجافى الخطيب أو الواعظ الناس ويخاشنهم، كلا، فإن الموعظة الحسنة والحكمة هما طريق الدعاية الإسلامية الأولى قال سبحانه: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ**

(١) سورة لقمان آية رقم ١٧ .

سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (١).

فليأخذهم بالرفق في القول، ولكن لا يسايرهم فيما لا يرضاه الدين، بل يصدع بالحق، ولا يرجو لغيره وقارا، فإن لان ففي سبيله، وإذا اشتد فإنما لينصر كلمة الله.

(٢) الورع والتدين والعفة عما في يد الناس، فإن خالف قول الواعظ أو الخطيب فعله ظنوا فيه الظنون.

فمن يتصدى للخطابة أو الوعظ عليه أن يتسربل بسربال التقوى، وعليه أن يجتهد في ألا يكون في ظاهره ما يخالف الدين بأي نوع من المخالفة، لأن منصبه خطير، وعمله جليل، والعيون إليه شاخصة، ولأعماله كاشفة، فإن وقع في معصية فليعمل على سترها ما ستره الله.

قال الإمام الغزالي في إحدى رسائله:

أما الوعظ فلست له أهلا، لأن الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به غيره، متى يستقيم الظل والعود أعوج، وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام:

«عظ نفسك، فإن اتعظت، فعظ الناس، وإلا فاستحي مني».

وقال نبينا ﷺ: تركت فيكم واعظين، :(ناطق، وصامت): فالناطق هو: القرآن الكريم، والصامت هو: الموت، وفيهما كفاية لكل متعظ، ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره، ولقد وعظت بهما نفسي وصدقت وقبلت قولا وعقلا وأبت وتمردت تحقيقا وفعلا... ومن هذا ترى أنه يشترط لجواز الوعظ الاتعاظ، ولكن نراه في الإحياء يوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على المرتكبين - أي لبعض المعاصي - ويقيم على ذلك الدلائل القاطعة، ومنها ما رواه عن سعيد بن جبير وهو قوله: إن لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، إلا من لا يكون فيه شيء، لم يأمر به أحد، والتوفيق بين هذين النصين أن نقول:

إنه أراد بالأول من قام للدعاية، ونصب نفسه للوعظ..

وأراد بالثاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب على الكافة لا على الخاصة وهو المرتبة الثالثة في المراتب التي ذكرها الأستاذ الإمام محمد عبده. رحمة الله

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

عليه. والذي **يشترط في الواعظ**: التدين الصادق، وألا يكون في ظاهره، ما ينافى الدين من نفاق ظاهر، أو كذب صراح، أو عمل بنقيض ما يدعو إليه، أو مجاهرة ببعض المعاصي بل يكون متدينا لا يصر على معصية، وفيه سمت الصالحين وصفاء المتقين، وصدق المؤمنين(١).

علاقة الخطابة بغيرها من العلوم الإنسانية

كان لتشعب موضوعات الخطابة: ـ التي تجول فيها وتصول ـ ارتباط وثيق بغيرها من العلوم، ولكن الحديث في كل العلوم التي تتصل بالخطابة شيء يطول شرحه، وسنقتصر على بعض العلوم الإنسانية التي لها علاقة مباشرة بهذا الموضوع لأنها تهدف إلى إقناع واستمالة النفس الإنسانية، ومعرفة طبقات المجتمع ولا يتأتى هذا إلا بدراسة هذه العلوم.

قال ابن رشد: «إن كل صناعة إنما هي معلمة، أي مبرهنة ومقنعة في الجنس الذي ينظر فيه لا في جميع الأجناس، وأما الخطابة فهي تتكلف الاقناع في جميع الأشياء في أي مقولة كانت وأي جنس كان، ولذلك ليست إلى جنس خاص».

علاقة الخطابة بعلم الأنساب:

مما يزيد في مكانة الخطيب معرفته بهذا العلم، لأنه ينبغي معرفة حال من سيوجه إليهم الدعوة، واستعداداتهم، وطبائع بلادهم، وأخلاقهم أو بتعبير آخر حالتهم الاجتماعية، وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه أنسب العرب، بمعنى أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها، وتاريخ كل قبيلة، وسابق أيامها وأخلاقها، كالشجاعة، والجبن والأمانة والخيانة، ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر، وما كان اقدامه مع لينه، وسهولة خلقه التي يعرفها له كل أحد حتى الافرنج على حرب الردة، إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة، فلم يهب ولم يخف، وقد خاف عمر، وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين.

علاقة الخطابة بنشأة الأمم وتاريخها:

لكي يكون الخطيب أو الواعظ على معرفة بفساد عقائد الأمم وأخلاقها وعاداتها، عليه أن يعرف علاقة الخطابة بنشأة الأمم وتاريخها ليبنى الدعوة على أصل صحيح،

(١) الخطابة: ص ١٩٥ وما بعدها.

ويعرف كيف تنهض الحجة، ويبلغ الكلام غايته من التأثير، وكيف يمكن نقل أهواء المدعوين من حال إلى حال وأجل كتاب في هذا المقام القرآن الكريم، فهو مملوء بعبر التاريخ، وعقائد الأمم.

علاقة الخطابة بعلم الاجتماع:

علاقة ضرورية، لأنه علم الجماعات يعطيك صورة لتكوينها وتفكيرها، وطرق التأثير فيها، ولا شك أن الخطيب أو الواعظ يتصدى لقيادة جمع من الناس إلى فكرة، أو موضوع يدعو إليها، فلابد أن يكون عالما بنفسية الجماعات والعادات التي تسود بينهم وكيف يعالج جمودها، أو يكفكف من غلوائها إن كانت متهورة نحو غاية باطلة.

يقول الفارابي: «إن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته، وحسن سياسة نفسه في أموره فليتوخ طباع الناس، وتلون أخلاقهم، وتباين أحوالهم».

ويقول **أفلاطون**: لكل أمر حقيقة، ولكل زمان طريقة، ولكل إنسان خليقة، فعامل الناس على خلائقهم، والتمس من الأمور حقائقها، وأجر مع الزمان على طرائقه».

وينادى علم الاجتماع بضرورة الاستفادة بدور العبادة في التوعية، لأن الناس يأتون إليها طواعية، ومن ثم يلزم على الخطيب الالمام بسياسة الناس، وما يجب لكل طبقة من المعاملة، وما يلزم لكل صنف من الناس من خطب، فيجب أن يكون عليما بروح المخاطبين دارسا لأخلاقهم، وعلى هذا فمن الواجب إذن أن تكون قوانين الخطابة، متصلة بقوانين الجماعات وناموسها، ومن ثم يتضح قوة الاتصال بين علم الاجتماع وعلم الخطابة [١]..

علاقة الخطابة بعلم النفس:

مما سبق تبين أن الخطابة تهدف إلى التأثير في نفسية المستمع ووجدانه لاقناعه بصحة ما يقول، ومن ثم يتوصل إلى خواص العقل البشري واتجاه تفكيره والغرائز التي أودعتها النفس الإنسانية، وما كمن في خفاياها، وبهذه المعرفة يستطيع أن يصل إلى هدفه في توصيل الحقائق إلى نفسية المستمع.

ومن ثم يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل الملائمة لقوانين هذا العلم

(١) الخطابة: ص ٨ .

ليكتب لها النجاح والرسوخ.

علاقة الخطابة بعلم الأخلاق:

هذا العلم يركز على الفضائل، والمثل العليا في السلوك، فهو يحاول رسم صورة للمجتمع الفاضل الذي ينبغي أن يقوم عليها، وهو يعين المتدين على فهم شيء كثير من أسرار الدين، بل يستعين بارشادات الإسلام في بحوثه وقضاياه، فالعلم به يعرف الخطيب أو الدارس كثيرا من الأحكام المتعلقة بتكوين الأفراد في المجتمعات، ومن ثم فهو دارسة عقلية، ولا غنى للخطيب عن مثل هذه الدراسة.

علاقة الخطابة بعلم المنطق:

علاقة قديمة، فقد كانت الخطابة تعد أحد فروع علم المنطق، إذ عندما ترجم كتاب الخطابة **لأرسطو** إلى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري اعتبره كثير من الفلاسفة جزءا متمما لعلم المنطق، حتى ابن سينا في الشفاء يذهب إلى أن الخطابة من أقسام المنطق، واستمر ذلك حال الفلاسفة ينظرون إلى المنطق بتلك النظرة الشاملة إلى أن قصر المتأخرون النظر فيه على صور القياس [١]، وأشكاله وأدواته.

فعلم الخطابة له صلة وثيقة بعلم المنطق من حيث أن المنطق خادم له، وأن كثيرا من قوانين الخطابة يعتمد على المنطق في مبادئه، ثم أن المنطق أخذ يسلك مسلكا جديدا بعد أن كان يبحث في القوانين التي تعصم الذهن عن الخطأ أخذ يستنبط ما يرشد الذهن إلى الأخذ بالقوانين السابقة، فهو يبحث عن أهواء النفس، وأطرها، وأسباب الغلط، وتسلسل الخواطر، وكلها أمور تساعد الخطيب في نجاح عمله.

والخلاصة: أن المنطق من ألزم العلوم للخطابة لشدة القرب بينهما، وتداخل المسائل، وتقارب المناهج، حتى عدهما الأقدمون علما واحدا، أما المتأخرون فيجلعونهما أخوين متحدى النسب [٢].

من عوامل ضعف الخطابة الدينية:

هناك عوامل أدت وتؤدي إلى ضعف الخطابة الدينية لابد أن يتنبه لها المسئولون والقائمون على أمر الدعوة من هذه العوامل ما يأتي:-

---

(١) القياس في اللغة: رد الشيء إلى نظيره.

(٢) الخطابة ص ١٠ .

(١) **عدم مواكبة الخطبة لحياة الناس**، والواقع الذي يعيشون فيه، فبعض الخطباء يدور في محيط واحد لا يحيد عنه، وهو الحديث عن الجنة أو النار بينما لدى الناس مشاكل متعددة تستطيع الخطبة أن تحلها، أو تهدف إلى حلها، مع ربطها أيضا بالجنة أو النار..

(٢) **يفترض الخطيب موضوعا** ما ثم يتحدث عنه كمن يتحدث عن التبرج مثلا في قرية كل نسائها محتشمات، أو كمن يتحدث عن الخمر وكل أهل القرية لا يعرفون أكثر من كوب الشاي، وهكذا مع أن مشاكل القرى كثيرة، منها: الأحقاد التي تتفشى بينهم والنزاع الذي يقام بين أفرادهم لأتفه الأسباب، كما يشيع بينهم السحر، والأحجبة.. الخ مع أن القرية اليوم في أشد الحاجة إلى التعاون في الخير والاكتفاء من أجل رغيف العيش الذي أصبح يأكلونه من أيدي فلاحي أمريكا وأربا.

(٣) **تعدد أغراض الخطبة** وهذا أمر يقع فيه كثير من الخطباء، فيتحدث أحدهم مثلا عن صلة الرحم، وبر الوالدين، والرفق بالفقراء والمساكين، حتى تكتظ الخطبة بعديد من الأغراض والموضوعات، وقليل من البحث العميق، والتحليل المستفيض، ولا شك أن مثل هذه الخطبة تذهب من أذهان السامعين، ولا يكون لها أثر يذكر عندهم.

(٤) **تكرر الموضوعات**، بحيث يتناول الخطيب موضوعا ثم يتكلم فيه عدة خطب حتى يمله الناس.

(٥) ضعف **الالقاء** بحيث تلقى بأسلوب رتيب لا يفرق بين صيغ الاستفهام أو التعجب أو الاخبار مما يصرف ذهن السامع عن متابعة الخطيب.

(٦) **العجز في فهم** السيرة النبوية، وشرح الآيات القرآنية، والأحاديث وعدم الاطلاع على مجريات الأحداث من حوله مما يجعل الخطيب في عجز بين عن توضيح الحقائق أمام المستمعين.

من عوامل رقي الخطابة الدينية:

وإذا كان هناك عوامل ضعف الخطابة فهناك عوامل رقيها وتطورها من هذه العوامل ما يأتي:

(١) **معايشة الخطيب لجمهوره**، فخطيب المدينة يستطيع متابعة الأحداث العامة، ويبين رأي الدين فيها فيربط مستمعيه بحاضرهم وواقعهم، ولا ينبغي له أن يحول

الخطبة إلى سياسية، لأن هذا هروب من الخطبة الدينية، فوظيفة الخطيب الديني أن يكيف الأحداث تكيفا دينيا، وأن يوازن بينها وبين ما يشابهها من أحداث التاريخ الإسلامي خصوصا ما كان في حياة الرسول ﷺ . .

(٢) **التركيز على أن تكون الخطبة دائرة حول موضوع واحد** يستكمله بأدلته، وربطه بمجريات الأحداث من حوله، مع وضع الدليل في مكانه المناسب، فمثل هذا التركيز يؤدي إلى رقي الخطابة حتما، ويترك أثرها الطيب في النفوس. .

(٣) **اختيار الموضوع**، وعدم طرقه أكثر من مرة حتى لا يسأم الناس من سماعه، فلا يستطيع تحريك مشاعرهم واستمالتهم، وكثرة القراءة الواعية تساعد الخطيب على اختيار الموضوع المناسب.

(٤) **للخطبة الدينية أهيمتها** في نفوس المسلمين فلابد من العناية بها القاءا، وأسلوبا، فيفرق بين الاستفهام والتعجب والخبر ليشارك معه أذهان المستمعين.

(٥) **ميدان الخطب الدينية ميدان فسيح**، والناس يغشون هذه الميادين لأنهم في حاجة إلى سماع العظات والارشادات الدينية، فعلى الخطيب تحضير خطبته في موضوع واحد، ولا يقتصر على الدار الآخرة وما بها، بل لابد أن يزاوج بين جزئي الدنيا والآخرة، لأن نفوس الناس تتعلق بالنفع العاجل وتخشى كوارث هذه الحياة، وهناك آيات وأحاديث تتوعد العصاة بعقوبات دنيوية ترى هذا في قصص القرآن عن الأنبياء والجزاء الذي نال مخالفيهم في الدنيا وفي هذا ما يرهب النفوس، ويردها عن المعاصي كما في قوله تعالى: ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ [١] .

وقوله سبحانه: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [٢] .

وقوله سبحانه: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** ﴾ [٣] .

(١) لعنكبوت آية: ٤٠ .

(٢) النحل آية: ١١٢ .

(٣) الطلاق آيات: ٨،٩ .

(٦) **لا ينبغي أن تكون الخطبة كلها دائرة على النفع والضرر** فهي بهذا تكون أقرب إلى المادية، وإنما تربط الأعمال دائما بطاعة الله سبحانه، وحب القربى إليه حتى تأخذ صورة العبادة، وعلم النفس الحديث يدعو الخطيب لتجديد خطبته وجعلها ذات مساس بقلوب سامعيه.

(٧) **العناية الكبيرة بالسيرة النبوية**، والتاريخ الإسلامي والفهم الذي يستطيع به شرح النصوص القرآنية واستخراج المعاني العليا من ورائها.

(٨) **الخطيب المبتدىء يحتاج إلى مجهود كبير في الاعداد**، وتحضير الخطبة ولا يكون خطيبا إلا بهذا المسلك، ولكي يظل الخطيب مقبولا عليه بدوام المطالعة، والتجديد في أسلوبه.

والخلاصة: أن حياتنا العامة تواجه فراغا روحيا واسعا، وأن هناك تعطشا كبيرا نحو المعلومات الدينية وقد بدأ الناس يسأمون أكثر تيارات الفكر المادي، وعلى علماء الإسلام، وفي مقدمتهم خطباء المساجد أن يقدموا الغذاء الروحي ما يشبع تعطش الناس، ويسد ما لديهم من فراغ [١].

وهناك أسباب أخرى تعتمد عليها الخطابة اعتمادا كليا في رقيها وهي ترجع إلى:

(١) البيئة الإسلامية التي نشأت فيها وعاشت، ذلك أن حياة العربي كانت خصبة بالتقوى والايثار وقوة الروح، لدرجة أنه أحس بأن ملك كسرى يتزلزل تحت سيفه، وقيصر ينكمش فرارا من قوته، وذلك للدين الذي ارتضاه قلبه وسيطر عليه فأوجد تلك القوة التي تدكدك العروش، وتزلزل القلوب، وتجعل من ساكن الصحراء حاكما لفارس، وملك الروم في الشرق، وإذا كانت الخطابة تستمد قوتها من النفس فلابد أن نذكر الأمور التي كانت في تلك الحياة، وغذت النفوس غذاء نمت به الخطابة، وازدهرت، وقويت ونهضت، وأعظم تلك الأمور شأنا وأجلها في حياة العرب خطرا وفي الخطابة أثرا.

القرآن الكريم: جاء القرآن الكريم فهز النفوس العربية، وأصاب شغافها وقد تحدى أعاظم البلغاء فيهم أن يأتوا بسورة منه ولو مفتراه فعجزوا أن يأتوا..

قال الجاحظ في اعجازه: بعث الله محمدا ﷺ في زمن أكثر ما كانت

(١) الخطابة واعداد الخطيب ص ١١٢ بتصرف.

العرب شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عزة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعـهم من الاقرار الهـوى والحمـية دون الجـهل والحـيرة، حـملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحـرب ونصبوا له وقتل من عليتـهم، وأعمامهم وبني أعـمامهم وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن الكريم ويدعوهم صباحا ومساء إلى معارضته إن كان كاذبا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحـديا لهم بها وتقريعا بعجزهم عنها، قالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعـرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوا ولو مفتـريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعـر . . ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كـانت انقض لقوله وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتبـاعه من بذل النفوس والخروج عن الأوطان وانـفاق الأموال، وظل القـرآن ينزل ثلاثا وعشـرين سنة دون أن يعارضه معارض من العرب أصحاب البلاغة والفصاحة هذا شأن القرآن مع المعاندين له وهم قوم خصمون، فكيف يكون أثره في الآخذين بهديه المقتبسين من نوره؟

لقد أثر القـرآن الكريم فيهم أبلغ تأثير، وأفـادت الخطابة منه أعظم فائدة وجنت منه أكبر الثمرات وكانت الفائدة من ناحيتين:

الأولى: مما اكتسبته اللغة من القرآن الكريم:

(أ) فقـد أكسـبهـا سعة في المعـنى، إذ قد أتى بمعـان لم يتورد العرب مـن قبل مواردها، كانوا قوما حـسيين، ولغتهم حسية فجـاء القرآن الكريم، وحدث عن النفوس ووصفها فأحسن وصفهـا حلل نفس الضال وعلة ضلاله ونفس المهتدي وعريق اهتدائه، صـور تقلبات القلوب وخلـجات النفـوس، وما يؤثر في المـشاعـر فدعـا المسلمين إلى الاغتراف من منهلـه العذب، وسمت اللغة العربيـة إلى مستوى مـا كان يتهيأ لهـا بغير القرآن الكريم.

(ب) جاء القرآن الكريم في لفظ سهل متين خال من الألفاظ الخشنة الجافة يصل إلى الأغراض من أقرب مسالـكها فأعجب بذلك قارئوه وسامعوه، فـحاكوه في نهجه، وإن لم يسـاموه في قـدره، وتهـذبت به اللغـة أتم تهذيب فـهللت عـباراتهـا، ورقت أساليبها، وأستأنست ألفاظها، إذ سن لها نوعا من التعبير لم تنهجه من قبل فكان فتحا جديدا فيها بألفاظه وأساليبه كمـا كان فتحا جديدا في العالم كله بهديه وتقويمه وتأديبه، وأثر ذلك في ألفاظ الخطابة واضح غير خفي.

الأخرى:

إن الخطباء قد أخذوا ينهجون نهج القرآن الكريم في الاستدلال إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الاقناع الخطابي فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن أن يجتمع في أدلة سواها، إذ تجد فيها استقامة المعنى إذا قسته بمقياس المنطق كما تجد فيه مخاطبة الاحساس، وأثارة الرغبة.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ (١)

تجد الدقة المنطقية، وجمال اللفظ ومخاطبة الوجدان قد اجتمعت مع حسن الايجاز، فتعالت كلمات الله سبحانه وتعالى.

وجد الخطباء في القرآن الكريم ذلك فوجدوا فيه معلما لطرق الاقناع والاستدلال لا يقاضيهم اجرا فتأثروا بطريقته، واقتبسوا من عبارته وشاع بينهم الاقتباس منه حتى أصبح أن من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شيء من القرآن الكريم.

قال الجاحظ: كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن الكريم، وتزين بالصلاة على النبي ﷺ بالشوهاء، في الحق وجد الخطباء المثل الأعلى في الكتاب العزيز فنهجوا نهجه في الاقناع وإقامة الحجة واقتبسوا من لفظه، واستعانوا بروحه، فحيا في بلاغتهم وخطبهم حياة جديدة (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢ .

(٢) راجع: الخطابة ص ٢٥٨ بتصرف، وانظر البيان والتبيين.

العَيّ والحَصَر

التعريف:

العي:

العجز عن الأمر، فلم يستطع بيان مراده منه

والعِيّ:

العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى [١] المقصود، وعدم الاهتداء لوجه المراد والعجز عن أدائه.

ويقال لمن لا يحسن ابانة الكلام وشرح ما يريد: عَيٌ.

والحَصَر: العي في النطق وعدم القدرة على الكلام.

وعلى هذا، فالعي والحصر متقاربان في المعنى.

وفي الجانب العملي:

قد يعرض للخطيب، أو المتحدث أن يعجز عن الكلام إما لأنه لا يستطيع شرح ما في صدره، أو لا يجد شيئا يقوله والسبب في ذلك:

(أ) نقص مادة الكلام.

(ب) نقص المعلومات.

(جـ) الهيبة والخوف من موقف الخطابة أو الكلام.

فيظهر لشخص بعض الأشياء محاولا طرد هذه المفاجأة: بشد لحيته، أو عقد أصابعه، أو التنحنح إلى غير ذلك، وقد تصيب هذه الحالة الخطباء الكبار الذين يجيدون الخطابة ولهم دريه ودراية بمواجهة الجماهير، ويرجع هذا إلى حالات نفسية تعتريهم.

قد تكون هيبة طارئة، وقد تكون تعبا جسميا، أو بسبب انشغال الذهن بأشياء أخرى، والمخرج من هذا المأزق أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى كان يقرأ آية قرآنية تمر بذهنه، أو حديثا ثم يعد بأنه سيتكلم في مواقف أخرى حول هذه النقاط، فإن كان زائرا تواضع بأنه ليس أعلم منهم، وقد حرص التاريخ على ذكر خطباء أرتج عليهم وتخلصوا بطرق مختلفة منهم:

---

(١) المعجم الوسيط مادة: عيّ.

(١) عبد الله بن عامر بن كريز جده الأعلى عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خال عثمان بن عفان ﷺ.

ولاه عثمان ﷺ البصرة، فوقف يخطب يوم الأضحى، فارتج عليه، فمكث ساعة لا يتكلم ثم قال: لا أجمع عليكم عيًا ولؤمًا، من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ.

(٢) خالد بن عبد الله القسري:

كان من الفصحاء، وكان إذا تكلم ظن الناس أنه يعد كلامه، ووقف مرة يخطب فسقطت جرادة على ثوبه فقال: «سبحان مَن الجرادة من خلقه، أدمج قوائمها، وطوقها جناحها، وسلطها على ما هو أعظم منها» فأعجب الناس ارتجاله ولكنه وقف مرة أخرى على المنبر فارتج عليه مدة لا يتكلم، ثم مرت على ذهنه هذه العبارة:

«إن الكلام يجيء أحيانًا ويعزب أحيانًا، فيسح عند مجيئه سيبه ـ فيضه وكثرته ـ ويعز عند عزوبة طلبه، ولربما كوبر فأبى، وعولج فنأى لمجيّه خير من التعاطي لأبيه، وتركه عند تنكره ـ غيابه ـ أفضل عند تعذره، وقد يرتج على البليغ لسانه، ويختلج من الجرئ جنانه، وسأعود فأقول إن شاء الله»

هذا الاعتذار الذي ذكره من أصدق وأبلغ ما يعتذر به.

(٣) معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

لما ولي معاوية صعد المنبر ليخطب فحصر. فقال:

«أيها الناس إني كنت أعددت مقالاً أقوم به فحجبت عنه، فإن الله يحول بين المرء وقلبه».. كما قال في كتابه. وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب، وإني آمركم بما أمر الله ورسوله.. وأنهاكم عما نهى الله عنه ورسوله، وأستغفر الله لي ولكم».

والذي أنقذ معاوية في موقفه هذا هو صراحته، وإعلانه الناس بحقيقة أمره كما أسعفه ذكر الآية القرآنية، فإن ما أنقذ معاوية هو شجاعته الطبيعية.

(٤) عثمان بن عفان ﷺ:

ارتج على هذا الخليفة في أول خطبة عقب استخلافه فقال:

«أيها الناس إن أول كل مركب صعب، وإن أعش تـأتيكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرًا إن شاء الله».

وهذا أيضًا اعتذار صادق.

(٥) يزيد بن أبي سفيان ﷺ :

ولاه أبو بكر ﷺ الشام، فلما وقف يخطب الناس أول خطبة له حمد الله تعالى .فأرتج عليـه فسكت ثم عاد إلى الحـمد فأرتج عليـه ثم عاد إلى الحمـد. . . فلما طال الموقف قال:

يا أهل الشام! عـسى الله أن يجعل بعد عـسر يسرًا. وبعـد عي بيانًا، وأنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال، ثم نزل. .

(٦) ثابت قطنة :

صعد ثابت قطنة منبر سجستان، فقال: الحمد لله ثم ارتج عليه فنزل وهو يقول:

فـإن لا أكـن فيهـم خطيبًا فإنني ... بسيفي إذا جـد الوغـى لخطـيب

فقيل له: لو قلتها وأنت فوق المنبر لكنت أخطب الناس[1].

صفات الخطيب الخلقية

يحتاج الخطيب إلى مجموعة من الصفات الأخلاقية من أجل القدرة على النجاح لأن هذه الصفات تعطيه الثقة في نفسه ومنها:

أولاً: الثقة بالنفس:

كثير من الناس حـينما يكلفون بالخطابة يشعرون بأنهم حملوا أمـرًا فوق طاقتهم ويضمون إلى هذا الإحسـاس عجزًا واضحًا حين إلقاء الخطبة حـيث يصابون بالاختلال العصبي، فيـحمر لونهم، ويبلهم العرق، ويصيبهم فـزع شديد. . .يقول خطيب عاش هذه الحالة: «إن أول مـرة حاولت فيـها إلقاء حـديث عام كنت في حالة من الشـقاء، وليس هذا مجرد تشبيه. ولكنه الحق بعينه فقد تيبس لساني في سقف حلقي فلم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة».

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٣٣ وما بعدها.

إن حالة الخوف هذه يجب مطاردتها بحب الخطبة نفسها، لأن الحب الكامل لها يدفع الخوف كله.

يقول عامر بن عبد القيس :

«الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب»[(١)].

ثانيًا : المشاركة الوجدانية :

صفة هامة للخطيب تجعله يعيش حياة الناس يشعر بشعورهم وينفعل مع آرائهم وحياتهم بصدق وفهم... إن المشاركة تضفي إحساسًا عمليًا له قوته في الوصول، والتأثير ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هي الرباط الحريري الذي يصل القلب بالقلب، ويربط العقل بالعقل وبالجسم وبالروح... وليس بدعًا أن القرآن يمتدح المؤمنين الأول لأنهم تركوا أنانية الذات إلى حب الجميع حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقولون: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[(٣)].

فترى الأنصاري ساكن المدينة يحب أخاه المهاجر إليه من مكة بكل صفاء ويؤثره على نفسه خاصة، وسبب ذلك أن وجداناتهم قد آمنت بهذه المشاركة عن اقتناع، فتمكنوا بعد ذلك من تأسيس مجتمع قوي قائم على الحب والخير.

ثالثًا : النفوذ :

من الصفات الخلقية للخطيب، وله أثر كبير في تحريك الميول، وإيقاظ المشاعر فهذه الصفة تجعل صاحبها متحكمًا في أهواء ومشاعر من يخاطبه، حتى قال (جوستاف لوبون) :«يمكن أن يقال: إن النفوذ سلطة، أو عمل أو فكر يستولي بها على العقول، وتلك السلطة النفسية تعطل ملكة النقدية، فتملأ النفس دهشة واحترامًا ..

---

(١) البيان والتبيين «١ / ٨٣».

(٢) سورة الحشر آيةرقم ١٠ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ٩ .

والنفوذ نوعان: (١) نفوذ شخصي طبعي (٢) نفوذ كسبي . .

أما النفوذ الشخصي: فيكون هبة يهبها الله بعض الأشخاص، فيؤثرون بأنفسهم، من غير أي أمر خارجي يعرض لهم، ومن ذلك ما أتاه الله العظماء الممتازين كعمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق ﵄ ونابليون.

وأما النفوذ الكسبي:

فهو ما جاء من سمعة طيبة، أو شجاعة، أو نبل، أو لقب، أو ثروة، وفي استطاعة مريد الخطابة أن يكون من أهلها.

والنفوذ الشخصي الطبعي أقوى عملاً، وأشد تأثيرًا، فمن أتاه الله ذلك النفوذ ملك من النفوس والمشاعر . . . يحكى أن بعض أعداء نابليون ذهب للقائه، فقال لصاحبه وهو ذاهب إليه: أيها الصديق، إن لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيرًا لست أدركه، حتى إنك لتراني إذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير، ويخيل إليَّ أنه قادر على إدخالي في سم الخياط، وإحراقي بالنار . . .

رابعًا اللذة والألم:

هما العنصران المحركان للعالم الإنساني سلبًا وإيجابًا، وتختلف اللذائذ باختلاف الأشخاص، فإنسان لذته حسية عاجلة، وآخر لذته في المعنويات، أو في الحسيات الآجلة، فالمتفنن، والعالم، والمخترع، والشاعر والكاتب، كل الأفعال، أولئك مندفعون بقوى اللذات المعنوية . . نيوتن وجد لذة في كشف قانون الجاذبية، ووجد أينشتاين لذته في كشف قانون النسبية، لا تعدلها لذة في نظره، والصوفي، وقليل من المؤمنين من يطع الله لأنه يجد لذة في الطاعة لا طمعًا في جنة ولا خوفًا من نار.

والخطيب اللبق هو من يعرف هذه الحقيقة فيخاطب الناس بما يثير لذاتهم . .

خطبة طارق بن زياد : حرق السفن، ثم حث أصحابه على القتال فبين لهم أن لا قوت لهم إلا ما أخذوه من عدوهم بسيوفهم، وأنهم قد صاروا كالأيتام على مأدبة اللئام وكان علي بن أبي طالب ﵁ يقول :

«إن للقلوب شهوات، وإقبالاً وإدبارًا، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي » . .

وكان الذي يحرك الحروب الصليبية بالإضافة إلى إثارة الروح الدينية، إنهم كانوا يقولون لهم: عن الأرض المقدسة : إنها تفيض لبنًا وعسلاً . .

خامسًا : الغرائز :

ما يحدث بين جمع من الناس من وحدة فمصدرها الغرائز، ومن ثم قال علماء الاجتماع: «إن الزعيم الذي يملك قلوب الكثرة في الأمة لا يخاطب الذكاء، بل يخاطب الغرائز، لأنها الوحدة الجامعة، والقدر المشترك لدى الجميع».

تعريف الغريزة :

ميل فطري في النفس يدفع الإنسان لأن يسلك مسلكًا خاصًا أو لتصدر عنه حركات مؤتلفة تؤدي إلى غاية معينة، وإن لم يشعر بها الإنسان نفسه.

فالغريزة سلوك فطري، يكون من غير خبرة سابقة، وللغرائز أنواع منها:

غريزة الهرب - المقاتلة وحب الخصام - الأبوة والأمومة - والاستغاثة - والاستطلاع - والسيطرة وحب الظهور، والثناء، والاجتماع، والضحك [١] وغيرها.

فغريزة المقاتلة - مثلاً - يستطيع الخطيب استفزاز الجماهير لمقاتلة أعدائهم وعن هذه الغريزة قال الاستاذ قنديل في كتابه : «أصول علم النفس» هي التي تدفع الأفراد والقبائل إلى الكفاح، والاستماتة في الحرب لأحقر الأسباب وأتفهها، ولا تزال كذلك فعالة قوية فيهم.

ظاهرة كل الظهور في الأطفال وفي الكبار أيضًا على الرغم من تغير أشكالها ومظاهرها، تحت تأثير الرقي الاجتماعي، والعقل المدرب والوازع القانوني والخوف، ولكن أثرها مع ذلك لا يزال يبدو واضحًا في الجماعات أكثر منه في الأفراد، فقد يثير حفيظة الأمة وغضبها سبب ما ، فتندفع جميعًا طالبة غسل الدم بالدم، ففي أحضان هذه الغريزة الراسخة في النفوس نشأت الجماعات المتحضرة اليوم [٢].

سادسًا : بواعث الانتباه :

كل ما يجذب السامعين إلى الخطيب والإنصات لكلامه، وتوجههم إلى فكرته، من شأنها أن تبعث ميولهم إليه.

---

(١) الخطابة : ٧١ وما بعدها .

(٢) نقلاً عن المصدر السابق ص ٨٠ .

ومن بواعث الانتباه هذه يخرج منها :

أ) الجدة، والغرابة، والتغيير :

فـفي الجدة تكسب الـفكرة طلاوة وتدفع عن النفس السـأم، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من ضرب الأمثال الغريبة الشائقة التي تثير خيالهم، وتغير الكثير من الملل الذي يخيم على عقولهم.

ب) التكرار والتوكيد :

وهذان الأمران لهمـا أثر كبير في إثارة الأهواء والمـيول، إذا استعملهـما الخطيب بمهارة ودقة جَذَبَ السامعين إلى رأيه.

وفائدة التكرار : أنه يطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعـال الإنسان وهذا هو السـر في تأثير الإعـلانات العجيـب، حتى يعتـقد في صـحة الإعلان[١].

عن خلف بن تميم عن عبـد الجبار بن كليب قـال: قال لنا إبراهيم بن أدهم حين عرض لنا السبع: قولوا:

اللهم احـرسنا بعينك التي لا تنـام، واجعلنا في كنفك الذي لا يرام، وارحـمنا بقدرتك علينا، لا نَهْلكُ وأنت رجاؤنـا قال خلف: فما زلت أقولهـا مذ سمعتهـا، فما عرض لي قط لِصٌ ولَا غيره.

عيون الأخبار لابن قتيبة كتاب الزهد .

---

(١) المرجع السابق .

اختيار الموضوع وتحضيره

قد ينتاب الخطيب حالة القلق والحيرة في اختيار الموضوع خاصة لمن التزم الخطابة في مسجد واحد، لكن هذه الحيرة تزول بكثرة القراءة وتنوعها، فهي التي تضع أمامه أكثر من موضوع، في أكثر من مناسبة، وسنتحدث عن العلوم التي تهدي الخطيب في عمله عندما نتناول: مصادر الخطيب، وموارده، أما الاختيار فيسبقه قراءات خارجية تتصل بالجمهور الذي يخاطبه، ولعل في قريحة الخطيب المتوقدة ما تهديه إلى موضوع شيق على أثر قراءة عنوان في صحيفة يومية، أو مجلة . . . إلخ، ومع هذا فإن اختيار الموضوع يخضع لعدة أمور :

الأمر الأول :

حالة المخاطبين النفسية :

فمهمة الخطيب نقل المجتمع الذي يتعامل معه من حالة الجهل إلى العلم والمعرفة، من حالة اللامبالاة إلى الاهتمام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعليه فالمهمة الملقاة على عاتق الخطيب ضخمة وخطيرة تحتاج إلى صبر وحكمة، لأنها رسالة النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ولكنهم صبروا على هذه المهمة وأخلصوا لها **﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾**(١)..

وما نرى الله عز شأنه أوصى رسله بشيء أكثر مما أوصاهم بالصبر، وليس معنى الصبر الاستكانة والذلة، والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير في معالجة من يستطيلون الأذى على الأحرار الأبرياء، وليس هناك ما هو أصعب مراسًا على الإنسان، فهو كثير المراء والجدل، سريع الانتقاض والعصيان، شموس(٢) لا يسلم زمامه إلا لهواه، ومن هنا كانت مهمة الخطيب شاقة، فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه إنسان إلى خطوة واحدة يكرهها، لكن ما أطوع الإنسان لنداء قلبه ومخاطبة نفسه وروحه، لكن كيف نخاطب القلب؟ وبأي أسلوب نعرض عليه المعاني الربانية؟ لقد كشف الله سبحانه الحقائق سافرة فأنت ترى هذه الحقائق في البحر والجبل، والزهر والشجر، والشمس والقمر، وفي الكون من حولك، وغرائز الإنسان مسطورة في كتاب

(١) سورة الأنعام آية رقم ٣٤ .
(٢) الرجل الشموس : النفور العسر الصحبة .

الطبيعة وإذا أردت أن تدعو إلى فضائل، وتهدي إلى حضارة صالحة، فاتبع سنة الله في عرض المعـاني وأعرض دعـوتك في صورة عملـية، تمشي على قدمين، وتـسعى على الأرض، وتؤثر في الناس، فتدب الحياة في القلوب، والحركة في العقول[١].

الأمر الثاني :

عقلية المخاطبين :

إن كانت الإحاطة باتجاهات نفس الأفراد تمكن من الموضـوع المفيد، فإن الإحاطة بعقليتهم تمكن الخطيب من اختيار نوع الدليل، وعلى هذا فالناس ذو عقليات ثلاث:

(أ) نفوس مشرقـة قوية تنجذب نحو المبادئ العاليـة، وهؤلاء أصحاب العقل الراقي في الناس. .

(ب) عوام الناس، أصحاب نفـوس كدرة راكدة ضعيفة الاستـعداد للمعاني، شديدة الإلف بالمحسوسـات قوية التعلق بالرسوم والعادات، قـاصرة عن درجة البرهان وهؤلاء يستثارون بسهولة ولا عناد عندهم.

(جـ) قوم معاندون مجادلون بالبـاطل. تقصد دحض الحق لما غلب عليها من تقليد الأسلاف، ورسخ فيها من العقائد الباطلة[٢].

يقول ابن رشد : «الناس على ثلاثة أصناف: صنف ليس هو أهل التأويل، وهم المخاطبون الذين هم الجمهور الغالب ،وذلك أنه ليس بوجد أحد سليم العقل يعري عن هذا النوع من التصديق، وصنف هو من أهل التـأويل الجدلي وهم الجدليون بالطبع، أو بالطبع والعـادة، وصنف هو من أهل التـأويل اليـقيني، هؤلاء هم البـرهانيـون بالطبع والصناعة»[٣].

وقد ارتضى الإمام فـخر الدين الرازي في تفسيـره هذا التقسيم، وذكـر أن البشر بالنسبة لكمال الطبع: طرفان، وواسطة، فالطائفـة الأولى تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال، والطائفـة الثانية صـاحبة الموعظة هي الوسـاطة، والطائفة الثالثـة المجادلة هي طرف النقصان[٤].

(١) انظر تذكرة الدعاة .

(٢) تفسير الألوسي : «١٤ / ٢٥٤».

(٣) نقلاً عن قواعد الخطابة ص ٣٩ .

(٤) مفاتيح الغيب : «٥ / ٦٦٢».

الأمر الثالث: مراعاة المناسبات: عناصر المادة لا تتألف إلا بالتناسب وكذلك الأرواح، لا تتناسب إلا بالتعارف كما ورد في الحديث «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**».

رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها .

والخطبة إذا جاءت في مناسبتها كان لها وقع في النفوس حسن، لأنها تربط المستمع بهذه المناسبة ووقائعها.

ومن حكمة الله سبحانه أنه أنزل القرآن الكريم منجمًا حسب الوقائع والمناسبات، وسنشرح نزول القرآن الكريم باختصار عند الحديث عن مصادر الخطيب إن شاء الله تعالى، ومما ينبغي ملاحظته أن المناسبات كثيرة منها: الدينية، والوطنية، والقومية، والشخصية، ولا شك أن الخطب تتغاير بتغير هذه المناسبات فخطبة الجمعة تغاير خطبتي العيدين، والنكاح تختلف عن خطبة التهنئة وهي تختلف عن خطبة العزاء، وعلى الخطيب أن يراعي مقتضى الحال في كل مناسبة.

يقول ابن رشد: «من الضرورة أن يقف الخطيب على ما يحتاج أن يشير به في واحد من هذه الأشياء، وليس يحتاج عند الإشارة بالحديث عن النبات أن يكون فلاحًا، ولا في الحيوان أن يكون راعيًا، لكن يكفيه في ذلك معرفته بمقدار الحاجة إليها، لكن يحتاج مع هذا أن يكون عالمًا بالسير المتقدمة في هذه الأشياء، وما عند الناس فيها»[١] .

ولقد كانت خطابة النبي ﷺ تقوم على هذا التناسب الذي نقصده، ونتمناه حتى وصفها الرافعي بقوله:

«إن خرجت قلت: أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت: صورة بشرية من الروح، في منزع يلين فينفر بالدموع ويشتد فينزو بالدماء»[٢] .

ولا غرو، فالنبي ﷺ صنعه الله على عينه، وأدبه فأحسن تأديبه.

ولا يطلب من الخطيب أن يكون على المستوى النبوي، ولكن من سار على الدرب وصل، ومن ثم فإن معرفة الخطيب بأحوال النفس، وعقلية المخاطبين، والوقوف على المناسبات تمكن المتحدث من اختيار الموضوع المثير، وانتقاء الدليل المناسب، ومراعاة مقتضى الحال[٣] .

(١) تلخيص الخطابة ص ٣٦ .
(٢) البلاغة النبوية ص ٣١١ .
(٣) انظر : قواعد الخطابة ص ٤٢ .

تحضير الخطبة

يخضع هذا التحضير لطرق متعـددة، ومتشعبة يحسن بدارس علم الخطابة الإلمام بها وهذه الطرق منها:

أولاً:

أن يكتفي المتـحدث بدراسـة الموضوع دراسة تامـة من حيث جمـع العناصر في خاطره، وترتيبها في ذهنه، واستحضار الألفـاظ اللائقة بالمقام، وهذه الطريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية ،وأمر هذا التحضير له أهمية منها:

أ- عدم الخروج على المناسبة .

ب- عدم الاسترسال بعيدًا عن المطلوب ومن ثم نجد الصديق ﷺ يوم السقيفة، وعمر ﷺ ، أنهما حضرا كلامًا في نفس كل منهما ليقوله كل منهم في هذه المناسبة.

ثانيًا:

أن يكتب الخطيب ما سـيقوله في مـذكرة بعد دراستـه للموضوع، وفهم مـعاني الخطبة، يستصحبها معـه عند الخطبة لتكون مرجعًا له وضابطًا وليحفظ المعاني والأفكار من أن تضيع، ومن مزايا هذه الطريقة ـ أنها : تضـبط الأفكار، وتجمع الخواطر، وفيها أيضًا : إحكام للمعنى، ولا يستخدمها إلا الخطيب المتمرس، والفرق بينها وبين السابقة في أنها:

أ) تفيد ضعيف الذاكرة، ولا يحتاج إليها قوي الذاكرة.

ب) إذا كانت الخطبة طويلة فإنها تكون حسنة حتى لا يقع في التكرار.

ثالثًا:

ومن الخطبـاء من يقرأ الموضوع، ويدرسـه بعناية ثم يتكلم فـيه بينه وبين نفـسه بصوت مرتفع في غرفـة أو مكان خلوي، أو مع الناس، وهذا مثل المطربين وكان يقول بمثل هذا العمل «كالبا» الخطيب الروماني . .

رابعًا:

من الخطباء من يكتـبون خطبهم. . ثم يحفظونها حـفظًا تامًا، ومنهم من يتحلل

أحيـانًا مما حفظ، إن وجد المقـام يدفع إلى غيـره، كما قـال فولتيـر: «إن الألفاظ بريد الأفكار . .» ومنهم من يحفظ ما كتب ويلقيه بدون تغيير كما كان يفعل **فيكتـور هوجو** الذي قال: لا يسـتطيع المرء أن يكون خطيبًا إلا إذا كتب خطبتـه، وهذه الطريقة يتبـعها أكثر المبتدئين في الخطابة.

والطريقة المثلى لراغب الخطابة: أن يبتـدئ مريد الخطبة في حفظها وإلقـائها كما حفظ ثم يأخذ نفسه بالتغيير شيئًا فـشيئًا فيما حفظ حتى إذا شدا في الخطابة، وتقدم في المران كتب الخطبة، واهتم بأن تعلق كل معانيها بقلبه، فأكثر ألفاظها بذاكرته، ثم يتقدم لإلقائها، وقد تحصن بذلك التحضير، فإذا صارت له الخطابة ملكة وعد من الخطباء ممن يكتـبـون خطبـهم . . ثم يحـفظونهـا حـفظًا تامًا، ومنهم من يتـحلل مكتـفـيًا بذلك التحضير [1].

---

(١)الخطابة : ص ١٣٩ وما بعدها . .

الارتجال والنطق

هذان الأمران لهما علاقة وثيقة بالخطيب، إذ هو معرض في بعض المواقف أن يطلب منه كلمة في هذا المقام، وليس المقام متسع لتحضير الموضوع.

والارتجال:

هو الكلام الذي يبتدعه المتحدث بلا روية، وقد اشتهر بهذا الأمر العرب فقد وصفهم الجاحظ بقوله: وكل شيء للعرب فهو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة، ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه[١] إلى الكلام وإلى الرجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي يقصده فتأتيه المعاني إرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحدًا من ولده.. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، أو يحتاجون إلى تدارس، وليسوا كمن حفظ علم غيره، واحتذى كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف، ولا قصد، ولا تحفظ ، ولا طلب[٢].

والمران على الارتجال يبدأ ،والعود أخضر، والعادات لم تتكون، والنفس لم تجمد على نحو من أنحاء القول يخالفها، ولذا قيل لا يكون الارتجال بعد الأربعين، ويصعب أن تتكون بعد الثلاثين، بل تتكون في سن دون هذه السن.

وهناك عوامل مساعدة على الارتجال منها :

(١) الحرص على سماع الخطباء المرتجلين الممتازين، لأن السماع يحفز من عنده استعداد الكلام إليه، ولأن فكر البشر يتغذى بالتقليد، والمحاكاة.

(٢) أن يعود نفسه على الارتجال بالكلام من حين لآخر، ويختار كل يوم موضوعًا لنفسه كل صباح، ولو ربع ساعة.

---

(١) وهم الشيء : دار في خاطره.

(٢) راجع البيان والتبيين .

(٣) ألا يتعود القراءة من ورق، بل يلخص ما كتب، فإذا استمر على ذلك وتته فطرة قوية تعطيه القدرة على الارتجال.

(٤) وعليه أن يطلب من صديق أو رفيق يدله على العيـوب التي قد يقع فيها، وعليه أن يأخذ نفسه بالإصلاح والتقويم وعليه ألا يتـقيد بعبارات خاصة حـتى لا يثير سخرية الناس[١].

أما النطق:

فهـو الدليل المادي على جـودة الخطيب في قوله، وهو الدعـامة الأولى للإلـقاء الحسن، وإذا اعتـرى النطق ما يفسده ضاع الإلقـاء، فضاعت معه الخطبـة وأثرها وفقد الخطيب ما يسمو إليه من وراء البيان، وللنطق الجيد عناصر أربعة لابد من توافرها، فإذا فقد أحدها اختل بنيان الخطبة وهي :

(١) تجويد النطق، بأن يخرج الحروف من مخارجـها الصحيح، فلا ينطق الثاء سينًا، ولا الذال زايًا، ولا الجيم كما ينطقها العامة وهكذا كل مخارج الحروف مع البعد عن التشدق، والتوعر، كأولئك الذين يعلكون ألسنتهم بالقاف مفخمين النطق بها فيبدوا التكلف واضحًا.

(٢) البعد عن اللحن أو الوقوع فيه: فـيحرص على النطق بما يمليه علم النحو حتى لا يوقع السامع في عدم الفهم لما يتحدث به الخطيب .

(٣) أن يصور المعاني بالنطق الصادق: بأن يعطي كل كلمـة وكل عبارة حقها، فالجملـة المؤكدة ينطقها بشكل يدل على التـوكيد في النغم والجـمل الاستفهامـية تحظى بالنطق على شكل الاستفهام، وهكذا في جمل التعجب.

(٤) التأني في النطق : وهو أمر لابد منه للخطيب، فـالنطق السريع له عيوب منها:

أ- أنه يؤدي إلى تشويه المخارج، وخلط الحروف بعضها ببعض لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال من لفظ إلى لفظ.

---

(١) راجع الخطابة ص ١٤٢ وما بعدها .

ب- الإسراع يؤدي إلى أن يهمل الخطيب الوقوف عند المقاطع الحسنة.

جـ- لا يعطي للسامع الفرصة لفهم ما يسمع، وهذا ما يرجى من الخطبة أما التمهل فيعطي للسامعين فرصة الفهم والتأمل لما يقوله الخطيب ومن ثم كانوا يعتبرون أن من رباطة جأش الخطيب: التمهل في النطق، قال أبو هلال العسكري في الصناعتين: وعلامة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهله في منطقه، قال ثمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق، قد جمع الهدوء، والتمهمل، والجزالة والحلاوة ولو كان ناطق يستغني عن الإشارة لكانه.

ولا يعني التمهل هدوء النطق وانخفاض الصوت هدوءًا تامًا، وإلا فإن رتابة الصوت تجعل المستمع يشعر بالملل وعدم الاهتمام لما يلقى عليه.

كما أن عليه أن يجعل صوته مناسبًا لسعة المكان، وعدد السامعين، وألا يكون الصوت بدون ضابط يقلق آذان المستمعين، وتطيش فائدة الخطبة، فليجعل المتكلم من نغمات صوته ما يدل على ذلك التغاير، وهذا التفاوت، وكما تختلف الجمل في دلالتها، تختلف الكلمات أيضًا في معانيها، ومدلولها، وكل معنى يحتاج إلى نغمة صوتية معبرة، فالإشفاق، والتوجع والكآبة، والتردد، والفرح، والضحك، والدهشة، والشكوى، واليأس كلها تحتاج إلى أصوات تناسبها.

هذا وكل جملة فيها كلمة ذات المعنى الرئيسي فيه، فعند النطق يجب أن تعطى شعارًا صوتيًا يدل على شرفها، ويوجه الأنظار إليها:

وأن الخطيب المتصرف المجيد لا يضل في تمييز هذه الأدوات إذا جعل دليله ما يشعر به من هذه المعاني، فليكن في تغييرات صوته صورة مكبرة مزينة مجملة بجيد التعابير[٢].

---

(١) راجع العيوب البيانية ص ٤٣.

(٢) راجع الخطابة ص ١٤٨ وما بعدها.

خصائص الخطيب الفنية، وحسن تصرفه في المواقف

١ـ أن يكون متأثرًا بالقرآن الكريم، والسنة النبوة الشريفة، قارئًا للسيرة، وللتاريخ مطلعًا على ما يجري وما يستجد حوله، ليستشهد على فكرته، بما يناسب المقام.

٢ـ أن تكون عبارته قوية جزلة، وألفاظه قريبة إلى أذهان السامعين.

٣ـ أن يجعل اللفظ مناسبًا للمقام، فإذا كان يتحدث عن الجنة مثلاً ظهر البشر في وجهه، وظهر الصوت الهادئ، وإذا تحدث عن النار ظهر الغضب في وجهه وظهر الصوت الخشن، فإذا تكلم عن حرمات الله التي انتهكت كان صوته خشنًا جافًا غضبًا لله، ولحرماته التي انتهكت.

٤ـ أن يقسم خطبته فيجعلها : مقدمة، وموضوع، ثم خاتمة، يكون فيها خلاصة الخطبة، وكل جزء من هذه الأجزاء يجانس بعضه بعضًا، فلا نفور، ولا تباين بين الخاتمة والموضوع من جهة، ولا بين المقدمة والموضوع من جهة أخرى.

٥ـ أن يتميز أسلوب الخطبة عندما يتناول المعاصي والكبائر بالزجر، والتأنيب والتقريع، وأن يظهر الغضب، والتأثير في وجهه، وتكون عباراته كالسياط التي تلهب أبشار العصاة المذنبين، لينزجروا، ولينزجر من تحدثه نفسه بالانحراف أن يبتعد.

٦ـ ألا تخلو عبارات الخطيب من :

الجمل الفنية التي ترطب ذهن السامع، وتشرح صدره، وتفتح له باب الأمل.

٧ـ ألا تخلو ألفاظ الخطبة من المحسنات البديعية، كالطباق، والجناس، والتشبيهات، والاستعارات، لتظهر هذه الألفاظ، وكأنها لوحة فنية في صورة تعبيرية، يسمعها الناس وكأنهم يشاهدونها واضحة القسمات بينة المعالم، محدودة الأطراف والأبعاد، وذلك مثل قول الحجاج في أهل العراق:

«يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقًا وشقاقًا إلى آخره»، فهو كما ترى قد صور للمستمع وللقارئ بغي العراقيين وتأصل الشر والفساد في نفوسهم في ذلك الحين بهذه الصورة الحسية التي تجعل السامع أو القارئ يتمثل ذلك المعنى أمامه مشخصًا مجسمًا.

٨ـ أن يكون الخطيب صادق الحس فياض العاطفة، حتى يؤثر في نفوس السامعين فيقبلوا عليه بجوارحهم وقلوبهم، فينسى الناس همومهم ومتاعبهم، ولا يشغلهم إلا ما يقوله الخطيب، وما يدعوهم إليه، فهو لا يقول إلا من قول الله عز وجل، أو من قول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو من كليهما معا وهكذا يصل الخطيب بهذه الخصائص الفنية إلى عاطفة المستمعين وقلوبهم، وهذا هو غرض الخطابة الأسمى، وغايتها القصوى، فيؤثر فيهم بمقاله، ويقنعهم بفكرته، أو عقيدته . .

ومن ثم فإن الخطيب يصطنع بعض الأشياء غير الكلامية كالحركات والاشارات وما إليها ليتسنى بلوغ الهدف، وحمل جمهوره وصدقه، وعليه أن يبدأ الحديث بصوت منخفض، يخدر الأعصاب، ثم يعلو الصوت ويرتفع ليوقظ العقول وينبه الاعصاب، وفي هذه الحالة يفيق الناس وأذهانهم خالية من كل شيء، كما لو كانوا نائمين بليل، فإذا بهم يفيقون على تلك الفكرة التي أراد الخطيب أن يوحي بها إليهم، معنى هذا أن البدء بالصوت المنخفض، ثم التزايد فيه وسيلة من أنجح الوسائل التي يستعين بها الخطيب في اقناع السامعين، ولا يحدث مثل هذا إلا إذا كان الخطيب على علم بالنفوس التي يخاطبها، وأدرى بأنجح الوسائل التي تؤثر عليها، ويستحب للخطيب إذا وقف أن يلتزم الصمت قليلا قبل أن يبدأ الخطبة ليسترعى إليه الانظار، ويبعث في نفوس الناس الانتباه والاهتمام [1].

أما حسن تصرف الخطيب، وتخلصه في المواقف التي يدعى إليها، فإننا نسوق هاتين الخطبتين كنموذجين ليتعلم منهما مريد الخطابة، وكيف، يحول وجهة القوم إليه بالبشر والاستحسان بما يقول. والخطبة قد تكون معدة.

وقد تكون مرتجلة، والخطبة المعدة موضوع انشائي يستدعى من الخطيب أن يفكر فيه تفكيرا مناسبا للحادث الذي تلقى فيه الخطبة. فيرتب العناصر كما يرتب العبارات، ولابد له من الرجوع إلى المصادر التي يستطيع أن يستعين بها في تحضير خطبته، وخاصة المبتدئين . .

أما الخطبة المرتجلة فهي صدى لما قرأ، وأعد من قبل، فقد يفاجأ الخطيب بأنه مطلوب منه أن يتحدث في مناسبة ما لساعة، ولم يكن لديه علم أنه سيواجه هذا الموقف فماذا عساه أن يفعل؟

(١) الحجاج: ص ٥٦ وما بعدها بتصرف واختصار.

بعض الناس يصاب باضطراب وتعلثم، فإما أنه لا يجد ما يقوله، أو يقول كلمات عابرة يعرفها جميع الناس، وهذا في الواقع ليس خطيبا، وإنما حل الموقف بطريقة ما. وبعض الناس يقف بثبات، ثم يستعيد ما في الذاكرة، ويستوحى من الموقف بعض جمل وعبارات تعجب السامعين، وهو في هذه الحالة قد ألقى خطبة، وإن كانت قصيرة.

هبك ذهبت إلى حفل أو مسجد، أو مجتمع كبير لتستمع إلى متكلم سيخطب الناس أو يحاضرهم، ثم علم الحاضرون أن المتكلم قد عاقه حادث عن الحضور وأنه لن يحضر أصلا، ومعروف أنك خطيب وطلب منك الحديث فماذا أنت قائل؟ في مثل هذا الموقف لا يكفى أن تلقى بعض الجمل، ومن ثم لا ينقذ الخطيب إلا ما لديه من محفوظات، ومعلومات ثقافية واسعة...، والخطباء.. خصوصا المحامين يحتاجون إلى حضور البديهة، وسرعة الخاطر وربما سنحت للمحامي كلمة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنه يتصيدها بسرعة ويبني عليها مرافعته، ولا تستغني البديهة الحادة عن ذخيرة الثقافة والمحصول الأدبي وقد ينصت الخطيب إلى آية من كتاب الله فتكون محور خطبته، وموضوع حديثه وإليك مثالين لخطبتين كما سبق:

الخطبة الأولى:

ذهب شخص إلى حفل زفاف به جمع من الناس وعدد من الكبراء فطلب إليه أن يتحدث، وأن يهنيء العروسين، فارتبك وأحمر وجهه، ولكنه لم يستطع التخلص من الموقف فقال: إنني مسرور جدا بهذا الزفاف، لأنه ربط بين أسرتين كريمتين ولأني أعلم أن العروسين من ذوي المميزات الإنسانية، وأسأل الله أن يأتي منهما نسل كريم ينفع الأمة كلها. وإني أقدم لهما ولأسرتيهما خالص التهنئة، وأطيب الأماني بمستقبل زاهر وحياة سعيدة رافهة فبالرفاء والبنين، وبارك الله زواجكما ومستقبلكما..

هذا كلام ليس بالضعيف، ولكنه غير كاف ولا جديد فيه..

الخطبة الثانية:

وواجه آخر مثل هذا الموقف فقال: إنني مع ابتهاجي وسروري لاقتران عروسينا، وأسرتيهما أود أن نقدر هذا الموقف قدره، وأن ندرك معنى الزواج.

ليس الزواج مجرد متعة جسدية، ولا عملية نتاج بشري، وإنما هو موقف قداسة وطهارة يشهده الناس على الأرض وتشهده الملائكة في السماء. أنه نوع من عبادة الله والانقياد لتعاليم دينه، تعاون قبل كل شيء على السعادة والخلاص روحين اخلاصا يؤدي إلى الامتزاج في كل شيء في الأرواح والعواطف والميول والأمزجة ومن هنا لا ينشأ مجرد نسل، وإنما بداية أمة لها مميزاتها وخصائصها وهل وجودنا في هذا الكون إلا نتيجة قران بين آدم وحواء عليهما السلام؟

انظر الكون وقل في وصفه كل هذا أصله من أبوين

إنه سر الخلود وامتداد الجنس وبقاء النوع، إنه الفطرة المنبثة في هذا الكون: الطيور، والأشجار وكل الحيوانات والنباتات لها مثل هذه الرابطة فليست مجرد عاطفة، ولا لقاء جنسي عابر ولكنها سر البقاء والخلود، وهذا سر قداسة الزواج وسموه وجلاله..

إن الواحد منا يغار على ابنته، أو قريبته وتثور غيرته وغضبه حين يلمسها شخص أجنبي، أو حتى يخاطبها بكلمة نابية، وكثيرا ما قامت الخصومات والعدوات لأمر بسيط كهذا، ولكنه حين يعقد قرانها تذهب غيرته وغضبه، ويسلمها لقرينها بل يصير زوجها أقرب إليها من جميع ذويها، وقد قال رسول الله ﷺ حين زوج فاطمة **(جدع الحلال أنف الغيرة)**..

إننا الآن نحتفي بآدم وحواء جديدين، وأنه توفيق من الله أن جمعهما فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، باركوا جميعا هذا الزفاف، وادعوا للزوجين بأطيب وأثمن ما تتمنون من الله تعالى.

هذا الخطيب استطاع أن يكسو حديثه ثوباً فلسفياً رفع به قيمة خطبته ومرجع ذلك إلى ثقافته ومحفوظاته الأدبية جميعا.

وقد كان الخطباء في عصور الخطابة القوية المزدهرة وهم ذوو القدرة على الكلام والدراية به يستعدون لخطبهم ويتخوفون اللحن فيها ونقد السامعين لهم، وربما اعترت الواحد منهم هيبة يغيب بها الكلام عن ذهنه ويرتج عليه وكان عبد الملك بن مروان يقول: «شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن»، وقيل له يوما: قد عجل الشيب عليك فقال: كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين [1] . . .

(١) العقد الفريد ٤ / ٢٣٣ نقلا عن الخطابة واعداد الخطيب ص ٥٧ وما بعدها.

وهاك نموذجان لخطبتين منبريتين.

تكريم الله للأمة الإسلامية:

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فإن الله كرم الإنسانية جمعاء فقال:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١).

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢).

وخص أمة الإسلام بالتكريم في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا فقد خصهم بما يلي:

أولا: جعلهم على الحنفية السمحاء ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٣).

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤).

فوضع عنهم الآصار، والأغلال التي كانت على الأمم الماضية.

قال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٥).

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٦).

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٧).

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا

(١) الإسراء: ٧٠.
(٢) التين: ٤.
(٣) الحج: ٧٨.
(٤) النحل: ١٢٠.
(٥) الحج: ٧٨.
(٦) النساء: ٢٨.
(٧) الأعراف: ١٥٧.

طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [١].

يقول القاسـمي في تفسيره نقـلا عن البقاعي: «ولما بشرهم بذلك عـرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبه على الأخف فالأخف على سبيل التعلى إعلاما بأنه لم يؤاخذهم بما اجتـرحوه من سـيئـات نسيـانا، ولا بما قارفـوه خطأ ولا حمل عليـهم ثقلا بل جـعل شريعتـهم حنيفية سمحـاء ولا حملهم فوق طاقتهم مع أن له جمـيع ذلك وأنه عفا عن عقابهم ثم ستـرهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم، ثم رحـمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلا للخلافة فـلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر ويظهر دينهم على كل دين» [٢].

وعن محجن به الأدرع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر».

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا، ولا تنفروا».

ثانيـا: إن هذه الأمة خيـر أمة، وأزكى أمـة عاشت على ظـهر البسـيطة بإشـاعة الفضـيلة، ونأيها عن الرذيلة، وإيمانها العـميق بالله رب العالمين، وقد عـافاها الله من العاجلة بالعقوبة من الخسف، والمسخ، وإرسال الصواعق والرياح العاتية.

قـال جل ثناؤه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٣].

أي أنتم خير الأمم، وأنتم أنفع الناس للناس.

أيها الإخوة الأعزاء: إليكم آية كريمة أخرى.

تدل دلالة صريحة على إيثار أمة الإسلام بالخير على سائر الأمم قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [٤].

عن حكيم بن معـاوية بن حيدة عن أبيـه أن رسول الله ﷺ قـال: «أنتم توفـون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل».

(١) البقرة: ٢٨٦ .

(٢) تفسير القاسمي المسمى: محاسن التأويل. لعلامة الشام: محمد جمال الدين القاسمي آخر سورة البقرة.

(٣) آل عمران: ١١٠ .

(٤) الأنفال: ٣٣ .

وعن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فإذا أمضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة».

وقال ابن عباس ﵄: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ماداما بين أظهرهم:

أ ـ فأمان قبضه الله إليه وهو رسول الله ﷺ.

ب ـ وأمان بقي فيكم قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

أما في الآخرة فإنهم:

أولا: أمة العدل الذين يشهدون للأنبياء أنهم بلغوا رسالات ربهم إلى قومهم، قال جل ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [١] .

أي إنما جعلناكم أمة وسطا عدولا خيارا مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس، لأن جميع الأمم يومئذ معترفة بسيادتها، وفضلها على كل أمة سواها، فتقبل شهادتهم عليهم في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها [٢] .

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق. ما من الناس أحد إلا ود أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل».

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعي قومه فيقال هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله جل ثناءه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

---

(١) البقرة: ١٤٣ .

(٢) النشرة الدينية (٢) الهيئة العامة للأوقاف المكتب الفني (ليبيا) جمادى الأخرة ١٣٩٣هـ ص ٢٣ ـ ٢٥ .

ثانيــا: كما قـادت أمة الإسلام الأمم في الدنيا، وتقدمت مسـيرتها، فكذلك تتقدمها إلى أشرف مكان. إلى النـعيم نعيم الله الخالد، ورضوانه العظيم إلى جنة الخلد وملك لا يبلى.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي».

اللهم اشرح صدورنا بالإسلام، وارزقنا العمل بكتـابك، وحسن الاقتداء بنبيك، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، واجعلنا من الراشدين إنك على كل شيء قدير.

الحديث:

قال رسـول الله ﷺ: «البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يمـوت اعمل ما شئت كما تدين تدان» ويقول أيضا: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». أو كما قال.

حق المرأة في الميراث(*)

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فإن الله جل ثناءه قال:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (١).

إن طمع الإنسان فيما لغيره متوق، وظلمه لأخيه غير محال من أجل ذلك حفظ الله ـ سبحانه ـ الحقوق، ومن عدله سبحانه أرجب الميراث وتولى ـ عز وجل ـ قسمته ـ في أنصبة معينة ليأخذ كل ذي حق حقه من الذكور والآناث على سواء، ولم يترك ـ جل جلاله ـ هذا التقسيم لملك مقرب، ولا لنبي مرسل فقال عز وجل:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ .... ﴾الآية.

ولقد جاءت النصوص القرآنية لتعمل في كل جيل من أجيال البشرية وفي كل بيئة من بيئاتها فلا يأباها إلا جاحد، رضى لنفسه الجحود والعصيان؛ فأما من آمن، فإنه لا يجادل فيها ولا يتحرر منها ومضمون هذه الآية الكريمة واجب التنفيذ وتوزيع الانصباء على الورثة على ما أراد الله سبحانه حق والتعلل للتملص منه حجةداحضة، وفي الكتاب العزيز: ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (٢).

ولقد ركن الجاهليون ومن على شاكلتهم إلى هضم حق النساء في الميراث كما هضموه في غيره، فذكر المولى ـ عز وجل ـ لهن حقوقهن وفي الآية بيان لذلك في الميراث، فذكر النساء ـ في الآية ـ مع الرجال إيذان باستقلال حقهن وإشعار لكل مسلم بهذا الحق وإعلام له به.

وحث على الاعتناء بأمرهن، والزام بإرثهن.

والاشارة ـ من أول الأمر ـ إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والتأكيد على

(*) نشرت بمجلة الأزهر الجزء الخامس جمادى الأولى ١٤١٠ هـ. للمؤلف.

(١) النساء: ٧.

(٢) النساء: ١١.

إبطال أحكام جاهلية كانت قبل الإسلام.

لقد كان لدى العرب في الجاهلية بعض العادات التي تأباها العقول الراشدة والفطر السليمة كالشرك بالله - سبحانه وتعالى - وعبادة الأوثان، والتقرب إليها، ووأد البنات والاستقسام بالأزلام إلى أخر ما عاش في هذا المجتمع حتى هيمن عليه الإسلام. كذلك كانت لهم بجانب ذلك تقاليد متوارثة في المعاملات والبيوع والمناكحات والطلاق والمواريث

فلما بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام دعاهم إلى الهدى ودين الحق ونبذ تلك المنكرات والضلالات، وفصل الأحكام وأقام الحدود وأرسى القواعد هدي للناس وتبصرة.

وكم عانت المرأة من حقوق مضيعة منها الميراث.

فقد كانوا في الجاهلية يتوارثون بالنسب والقرابة ولا يورثون النساء والصغار، وإنما يورثون الذكور المقاتلين الذين يحوزون الغنيمة ويحمون الذمار.

وبهذه النظرة الضيقة والأنانية المفرطة أستباحوا هضم حق المرأة فلما كان الإسلام قامت الشرعة العادلة. فقال سبحانه:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ....﴾ الآية.

ثم بين الله سبحانه هذا النصيب بقوله: **﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾** (١) - فأمر الله تعالى بتوريث النساء والصغار، فدال بذلك ما كان في الجاهلية من حرمانهن من الإرث ولا ريب إن هذا أعدل تشريع وأحكم، وبه انتصف الله - تعالى - للضعيف، ونالت المرأة حقها في الأسرة والمجتمع وأمتعها - سبحانه - بالملك والمال الموروث كما أمتع بهما الرجل (٢).

روى أن أوس بن ثابت الأنصاري توفى وترك زوجته، وثلاث بنات فجمع أبناء عمه ميراثه عنهن على سنة الجاهلية - فجاءت زوجة أوس إلى رسول الله ﷺ فشكت

---

(١) النساء من الآية: ١١.

(٢) راجع لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف: المواريث في الشريعة الإسلامية: ص ٤، ٥.

إليه ما حدث من أبناء عم زوجها، فقال لها: إرجعي حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى فنزلت: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ﴾ الآية.

فأرسل ﷺ إلى ابني عم أوس وأخبرهما أن الله قد جعل للنساء نصيبا ولم يبين فلا تفرقا من مال أوس شيئا حتى يبين فنزل: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾ الآية.

فأعطى رسول الله ﷺ الزوجة الثمن، والبنات الثلثين والباقي لابني العم.

وقوله تعالى: ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ بدل من «ما» الأخيرة بإعادة الجار، وإليها يعود الضمير، وفائدته: دفع توهم تخصيص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل، وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقا من كل ما جل ودق في الميراث ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

نصب على أنه مصدر مؤكد كما في قوله تعالى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي ثبت لهم نصيب كائن مما ترك الوالدان والأقربون حال كونه مفروضا أو نصب على الاختصاص، أي: أعنى نصيبا مقطوعا مفروضا واجبا لهم ولهن، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه [١] فعلم أن النصيب المفروض هو الحق المعين المقطوع به، لا، محاباة فيه وليس لأحد أن ينقصهم منه شيئا..

يقول الشيخ رشيد رضا:ـ

«إن الأوامر والنواهي في أيات المواريث واضحة في بيان حقوق اليتامى والزوجات ومنع ظلمهن فمنع فيها أكل أموال اليتامى بضمها إلى أموال الأولياء، أو بالاستبدال الذي يؤخذ فيه مال اليتيم ويعطي بدله رديئا.

كما منع أكل مهور النساء أو عضلهن [٢] للتمتع بأموالهن أو تزويجهن بغير مهر أو الاستكثار منهن لأكل أموالهن وغير ذلك من ظلمهن. كذلك حرم الله في هذه الآية منع توريث المرأة والصغير [٣].

ومن عجب أن يلجأ اليوم بعض الآباء والأمهات، أو الأخوة إلى حيل غريبة

---

(١) راجع في تفسير أبي السعود هذه الآية من سورة النساء.

(٢) عضل المرأة: منعها من التزوج ظلما وفي التنزيل العزيز: ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾.

(٣) تفسير المنار ٤ / ٣٢٤.

ووسائـل متنوعـة لكي يحرمـوا البنت أو الأخت أو الزوجة من حـقهـا الشرعي فـمن ذلك: أن يرضوا المرأة أولا ببعض المال حتى توقع على تنازل عن نصيـبها، ثم يهملونها والأدهى أن ترضى بعض الأمهات بذلك فتتفق مع أبنائها الذكور على حرمان بناتها من الميراث بحـجة أن تظل أرض مورثهم في حـوزتهم فلا يتملكهـا الغرباء أي زوج البنت وعشيرته، وهم يعلمون أن ابنتهم ترث زوجها المتوفى عنها، فهلا خضعوا لأمر الله!

وآخرون يسطون على ميـراث النساء لتكثر مساحـة ما يمتلكون من أرض يطلبون منصبا قرويا بعينه كالعمدية ومشـيخة البلد. إلى حيل تورث الضغائن والأحقاد، وربما ترتب عليها «زيجات» مصلحة، لا عن رضا ورغبة فتكون النتيجة دمارا شاملا.

فهلا فقهوا قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فأعطوا كل ذي حق حقه لتتأتى العصمة ويحل الترابط.

ومن عجب أن المغتصب إنما يغتصب حق الضعيف، طفلا أو امرأة وفي ذلك من خسـة الخلق وضيعة الأمـانة ما يئول بصـاحبه إلى حرمـانه من الغاية التي يسعى إليـها المؤمنون. الجنة التي هي غاية الغايات ومنتهى آمال العقلاء.

قال عليه الصلاة والسـلام: «من قطع ميراثا فرضه الله سبـحانه وتعالى قطع الله ميراثه من الجنة» [1].

وليس من شك أن فاعل هذا الأثم متشبه بـأهل الجاهلية من العرب وغيرهم من الرومان وبعض قوانين الغرب الحديثة.

راضيا بها ومن تشبه بقوم فهو منهم.

ويؤخذ من الآية الكريمة:

١ ـ أن السبب في الميراث القرابة.

٢ ـ عموم القرابة كيفما تصرف من قريب أو بعيد.

٣ ـ تحذير الآباء من ظلم أبنائهم، أو أخواتهم من البنات.

٤ ـ تحرى الحلال الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وإلى هؤلاء نذكرهم بقول الله تعالى:

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور عن سليمان بن موسى مرسلا. راجع سنن سعيد بن منصور جـ١ ص ٩٦ تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية بيروت ـ ط الأولى ١٤٠٥ هـ.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

حدود الأخلاق

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانا، ومتى قصرت عنه كان نقصا ومهانة.

فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص وهذا كماله، فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار... وللحرص حد، وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس» رواه الإمام أحمد.

فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود، لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك.

وللراحة حد وهو اجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب أثرها.

فمتى زاد على ذلك صار توانيا وكسلا...

والجود له حدين طرفين فمتى جاوز حده صار اسرافا وتبذيرا، ومتى نقص كان بخلا وتقتيرا.

وللشجاعة حد إذا جاوزته صار تهورا، ومتى نقصت عنه صار جبنا وخورا.

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبريء، وإذا قصرت عنه كانت تغافلا ومبادىء دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلا ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبرا وخلقا مذموما، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

(١) إبراهيم: ٤٢ .

مصادر الخطيب، وموارده

كل من يتصدر المجالس بالحديث أو الفتيا، أو القضاء، أو التعليم، أو الوعظ والارشاد أو الخطابة، لابد له من مصادر، ومراجع يعتمد عليها لتكون مورد بلاغته، ومناهل المعاني التي يتدفق بها حكمه أو حديثه، ونحن هنا سنقتصر في الحديث عن الخطيب الذي اتخذ الخطابة عملا، ومن اختار هذا العمل لابد له من مصادر يطلع عليها ليـنمي ملكاته، ووحي روحه، والهام مشاعره النفسية، والتوجيه العملي لسير رسالته، وموارد البناء الشامخ للمجتمع الذي ينشده، وهذه المصادر نذكرها على سبيل المثال، وليس على سبيل الحصر وهي:

(١) القرآن الكريم.

(٢) السنة الشريفة.

(٣) السيرة النبوية.

(٤) تاريخ الأمم والشعوب.

(٥) سير الرجال.

(٦) واقع الحياة الدنيا. .

أولا: القرآن الكريم:

كتاب الله الخالد، والمعجزة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من حكيم حميد لم تكد تسمعه الجن حتى قالت: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ** ﴾ [١]

إنه كتاب الإنسانية قاطبة جاء به خير البشرية محمد ﷺ ليبلغه للإنسانية العالمية تحقيقا لهذه الغاية الكريمة ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾[٢]

وقوله سبحانه: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [٣] ﴿ **وَمَا**

---

(١) .الجن آية ١، ٢

(٢) الفرقان آية ١ .

(٣) الأعراف آية ١٥٨

أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [١] ولقد حفل الكتاب الكريم الكثير من القصص للعظة والاعتبار، وتثبيت قلب الرسول ﷺ ، وأمته.

ومن هذه القصص قصة سليمان بن داود عليهما السلام في المملكة التي حكمها وساسها خير سياسة، وهي قصة يستمد منها كل قارىء ما يحتاج إلية من حكمة، لينتقل من حال إلى حال، وسنطالع هذه القصة في القرآن الكريم وأنه روح، وليس مجرد حروف أو كلمات صماء تقرأ للتسلية.أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٢] .

إن هذه الآية الكريمة تفيد أن القرآن «روح» وليس ألفاظ ومعاني فقط، فكل من اللفظ والروح والمعنى من الله جل جلاله، وهو بكل شيء عليم، ولكن الذي يجب التركيز عليه والاهتمام به ناحية الروح في القرآن فتستولى على قلوبنا وعقولنا، فهو سبحانه يتحدث عن الروح في الكلام فيقول:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

ويقول عن الروح في الأجسام:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [٣]

فعلى الذين يبحثون في القرآن، أن يلتمسوا هذه الروح قبل كل شيء، لان الروح الإلهية اعجازها قائم لا يستطيع مشكك أن يشكك فيها لأنها قائمة في نفسه، وآثارها معروفة في أجسام الكائنات الأخرى المخلوقة، حتى أن الله جل جلاله أشار إلى اعجاز البشر في أنهم لن يستطيعوا خلق ذبابة لماذا؟ لأن الروح التي فيها تحركها لتأكل وتنتقل لا يقدر على خلقها إلا الله سبحانه فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [٤] .

---

(١) سبأ:٢٨ .
(٢) الشورى آية ٥٢ .
(٣) الإسراء آية ٨٥ .
(٤) الحج آية ٧٣ .

فظهور الاعجاز في بث الروح الذي تحيا به الأبدان وينتهي به شأن الكلام.

واعجاز القرآن هنا إنما الحديث عنه بالنسبة لأنه أعظم مصادر الوحي ولنمو ملكات الخطيب ومشاعره لابد له من معرفة ما يلي معرفة صادقة:

١ ـ أن يقرأ القرآن بسر الله فيه، فلا يحاول أن يفسره برأيه حتى لا يقع في المحذور، وأن يقرأ القرآن على أنه روح وللروح آثارها، ومن آثارها: الحياة، والنمو، والقوة، والسمع والبصر. الخ والمراد هنا ايجاد الصلة بين هذا الروح وبين قلبه، حتى تسرى تياراته واشراقاته في كيانه كله فيزيل الحجب التي تفصل بين قلبه وبين القرآن، فإذا زالت وصار القلب أمام القرآن وجها لوجه أحس بالحياة والقوة والنور والخشية والحنان تملأ وجوده، وآية واحدة من كتاب الله كفيلة بهذا لو أحسنا الاتصال بها سلبا وايجابا، عملا واعتقادا، والتزاما بتكاليفها في غير تهاون ولا رخاوة، مع مخالطة روحها لخفايا القلب: يحى الإنسان ظاهرا وباطنا ويجدده وينيره، كالذي يلمس السلك الكهربائي فتسرى فيه الكهرباء ويضطرب [١] فالقرآن حبل الله المتين كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ :

(القرآن حبل الله طرفه بيد الله، وطرفه الآخر بأيديكم)

فأي جزء أخذنا منه بجد وقوة سرى سره في القلوب، فارتجفت به وحيت:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٢]

وليس لعاقل أن يعترض إذا كانت آية واحدة كفيلة بهداية القلوب فلماذا جاء القرآن كله؟

ولإزاحة مثل هذا التساؤل أو الاعتراض: إن مهمة القرآن ليست حياة القلوب فحسب، بل وضع مناهج العمل الذي تنتظم به الحياة حتى لا يضل صاحبها في عمله واعتقاده، أثناء سيره إلى الله، ومن ثم، فإن القرآن روح، به تحيا القلوب، وعقل هذه الحياة الذي يوجهها إلى الله على بصيرة، هو الأحكام الشرعية، ولذا يقول ﷺ :«فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

---

(١) تذكرة الدعاة: ص ٢٤٩ .

(٢) الزمر آية ٢٣ .

وعلى هذا فالأحكام يعلم الله من طبيعة تكويننا أن عـقولنا لا تفقهها، إلا وهي متفرقة في مواضـع شتى، وفي أزمان مختلفة ولو كانت طبيعة العـقول كطبيعة القلوب في تقبلها للحـقائق جملة واحدة في لحظة واحدة، كلمح البصـر أو هو أقرب لساق لنا الأحكام في آية واحدة، ومن هنا يلزم قارىء القرآن بما يلي:

أ) أن تكون التلاوة في سكون الليل حيث يشف القلب وتنكشف أغطية النفس.

ب) قبل التـلاوة سل نفسك هل هواك مع الله سبحـانه أم مع الدنيا؟ واعلم أن أهواء الدنيا حجاب كثيف بـينك وبين الله وبين قلبك وبين القرآن: فحب المال حجاب، وحب البنين حجاب، واعجاب المرء بعلمه، أو ذكائه، أو صلاحه أو قوته أو جاهه من الموانع التي تمنع بين المرء وكـتاب ربه، ومن هنا فـإن المولى بين لنا مكانة قـارىء القرآن فيقول: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ (١)

وبما أن المسلم طالب حياة فلا يبخل بأي جهد يجعله من الأحياء مهما شق ذلك عليه، ومهمة الخطيب لا ينهض بحقها إلا القلب الحي.

جـ) أن يستحضر العبودية لله، فـهل كله طائع مقبل على أوامره بارتياح مجتنب نواهيه باقتناع وإيمان؟ أرأيتم المرءوس مع رئيسه كـيف يطيعه في الدنيا، فطاعة الله أحق وأجدر، ولو استمر المسلم على هذه الحال لا شك في أنه قد استطاع وصل روح القرآن إلى قلب الإنسان.

د) بما أن القرآن كـلام الله، وقد تفرد اللـه بكل صفات الكمـال والجلال، ومن شأن كل كلام ـ حتى كـلام البشر ـ أنه يدل على أسرار صاحبـه وصفات ذاته فإذا أردنا مثلا دراسة شخص ما، اتخذنا كلامه مادة من مواد الدراسة التي تعيننا على فهم مراده، فأولى بنا وأجـدر أن نلتمس أسرار الله في كـلامه سبحـانه وتعالى، ومطالعة صـفات كماله وجلاله فيه، قال جعفر بن محمد الصادق ﷺ:

«لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون»

فإذا أقبل أحـدنا على القرآن واستحـضر من صفات الكمـال في القدرة والعلم، وفي قلبه شعور بهيبة هذه الصفات، وفي نفسه شوق لمطالعتها وفهمها، فإن آيات القرآن

(١) الإسراء آية ٤٥،٤٦ .

ستشف بإذن الله عنها.

أرأيتم لو قرأ أحدنا مقالة لكاتب كبير فإنه يستعد ذهنيا ليتعرف كل نقاط المقالة وما تحويه من خبايا وأحاسيس ومعاني تهدف إليه هذا ـ ولله المثل الأعلى ـ وكتاب الله أحق بالفهم والعناية.

هـ) ولمزيد من الخير لقارىء القرآن أن يتلوه كأنما يسمعه من الله تبارك وتعالى؛ لأن القرآن خاطبنا فيه رب العالمين صراحة فيقول:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

والانصات إلى الله لا يكون بالأذن فقط بل بالقلب وبوعيك كله، وهي منزلة تقتضى الإنسان مرانا ورياضة وتدرجا في مقاماتها الرفيعة.

قال بعض السلف: «كنت أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأني اسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم منَّ الله عليَّ بمنزلة أسمى فأنا الآن اسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت لذة ونعيما لا صبر لي عنهما» (٢).

وهو من مقامات الشهود التي لا قِبَل بوصفها إلا بذكر آثارها، فقد روى عن بعض آل البيت أن حالة لحقته في الصلاة فخر مغشيا عليه، فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال: مازلت أردد الآية في قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها نفسه فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته سبحانه وتعالى. فهذا بعض من فيوضات القرآن التي يصل المسلم روح القرآن بقلبه، فإذا تم الاتصال تمت الحياة، فعاشت النفس عيشة راضية، فأنبتت من كل زوج بهيج، كان مالك بن دينار يقول: (ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض) (٣) وفي الحديث الشريف: «تعلموا القرآن واقرءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكى على مسك» (٤).

---

(١) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) ابو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٥٢٠.

(٣) تذكرة الدعاة ص ٢٤٩ وما بعدها بتصرف.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن. راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٢ طـ الحلبي.

كيف أنزل القرآن الكريم؟

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾

هناك أقوال في كيفية انزال القرآن الكريم [١] نكتفى منها على ايراد هذا [٢] القول الذي جاء فيه: الأصح والأشهر أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجما في عشرين عاما، أو ثلاثة وعشرين على حسب الخلاف في مدة اقامته ﷺ بمكة بعد البعثة.

قال ابن عباس ﵄: أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض.

وقال أيضا: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة، ثم قرأ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [٣] ، ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [٤]

فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا.

وقال ابن عباس كذلك: فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على النبي ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم.

وقال أيضا: إنه أنزل في رمضان ـ في ليلة القدر ـ جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا في الشهور والأيام. قال أبو شامة: قوله رسلا أي رفقا، وعلى مواقع النجوم أي على مثل مساقطها.

يريد أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل ـ على ما وقع ـ مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤده ورفق [٥].

---

(١) من اللوح المحفوظ.

(٢) ولمريد المزيد أن يرجع إلى: الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، وأسباب النزول للواحدي.

(٣) الفرقان آية ٣٣ .

(٤) الإسراء آية ١٠٦ .

(٥) أسباب النزول للسيوطي ص ١٨٧ ط ـ الشعب.

ثانيا: القصص في القرآن:

اشتمل القرآن على القصص الهادف للعبرة والعظة كما قال جل شأنه:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ (١)

والقصة الهادفة تعطي للناس انطباعا صادقا في نفوسهم، ولا يوجد قصص أصدق من قصص القرآن الكريم، وتمتاز القصة بأنها تصور نواحى الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم، وأخلاقهم، وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبيعية والزمنية تعرض عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال عرفت ما يستقر في النفوس، وما يدور فيها من خواطر، فينشرح صدرك لأهل الخير منهم، وينقبض لأهل الشر منهم حتى لكأنك تراهم رأي العين وتسمع منهم سمع الأذن.

فتمتاز القصة أيضا بأن النفس تميل إليها لتعلق حب الاستطلاع بالإنسان وتتطلع الأذن إلى القصصي البارع، لمعرفة ما عنده من الأنباء الخفية، والقصة بهاتين المميزتين من خير الوسائل التي يتوصل الخطيب بها إلى أعماق القلوب، إذ بها يتوصل إلى صورة عملية حية تحرك الوجدان، وترفع نبض المشاعر، فعلى الخطيب أن يتمسك بهذا فهو من سنة الله، والله سبحانه قد سنه في تنزيله العزيز، فقص على رسول أحسن القصص، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتا له ولأمته على الحق.

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

وعلى الجملة أن خير القصص كله قصص القرآن الكريم - شرح الله صدرك له، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى ما فيه -، لقد أحكمت به عروة العقيدة واكتمل به نظام الأخلاق، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية، فكانت أوفى وأكمل الحضارات.

وإليك مثال من قصص القرآن: نسوقه إليك لتستقى منه العلم والمعرفة والحكمة والقدرة إنها قصة سليمان عليه السلام، وملكة سبأ: وليس معنى الحديث عن القصة في القرآن أن المتحدث يستطيع أن يحيط بها كلها خبرا كلا، وإنما يكفيه أن يخرج منها بعدد

(١) يوسف آية ١١١ .

(٢) هود آية رقم ١٢٠ .

من العبـر والعظات والارشادات تهديـه إلى الحق في دياجير الجـهل والأمية، والقـصة تفجر أحداثهـا بمقالة الهدهد لسليمان عليه السلام، فكأن هذا السـبق الاخباري إنما جاء على يد هدهد، ولا غرابة فهـو من مخلوقات الله التي أودعهـا الله سرا لم يطلع أحد عليه.

وخلاصة مـا كشفه الهدهـد أن هناك في سبأ مملكة قائمة عـلى الشرك والضلال فماذا يفعل سليمان عليه السلام ازاء هذا الأمر؟

أرسل إليهم أن يسلموا لرب العـالمين، وحاولوا استرضاءه عنهم بالهـدايا الثمينة فرفض وأنذرهم بإرسال جنود لا قبل لهم بهـا، فاضطروا أن ينزلوا على حكم سليمان عليه السلام، وجاءوه مسلمين لرب العالمين، وفي هذه القصة ـ كما يقول الأستاذ البهي الخولي (رحمه الله).

إن الله تعالى يقرر القواعد الأصلية: المادية والروحية التي لابد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو التالي:

(١): القوة والعلم:

عليهما يقوم الملك العظيم، فهما الدعامتان الكبيرتان الاصليتان:

فالقوة: تجمع قوة الأبدان، وكثافة الجنود المدربين، ووفرة الاسلحة والآلات.

والعلم: هو نور العقول والقلوب، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة لتـسخير ما يمكن تسخيـره منها في منافع الدولة وهذا هو العلم النافع أنه العلم بالله عز وجل.

القوة في قصة سليمان عليه السلام:

أراد الله سبـحانه وتعالى أن يعطي ملكا عـمليا فذكـر هذه الصفات مـجردة ثم أوردها محققة في ملك سليمان، فما القوة هنا؟ وما كثافة الجند؟

اقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ** ـ فهم من كثرتهـم وتزاحمهم ـ **يُوزَعُونَ** ﴾ أي يدفعون حفظا لنظامـهم وابقاء على تنسيق صفوفـهم، فلا يتقدم المتأخـر ولا يتأخر المتقدم، وهذه الجنود تبـعث الرعب في جميع الآفاق حتى تخشى جموع النمل من التحطيم فضلا عن غيره

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ**

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [١] .

وعندما رد الهدية كان واثقا كل الثقة من جنده فيقول ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [٢] .

العلم في قصة سيدنا سليمان: نعرفه في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ ـ ميراث نبوة وعلم ـ دَاوُدَ ﴾. .

وهذا العلم الذي أشار الله إليه يفسره سيدنا سليمان بأنه اللغات، وسائر أنواع العلم في قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾. .

فأما منطق الطير فنفهمه من هذا الحوار:

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [٣] .

أما لغة النمل فهي داخلة تحت قوله:

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ﴾ تفهم هذا من قوله سبحانه:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [٤] .

وأما ما عدا اللغات من سائر أنواع العلم، فهو قوله: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ

(١) النمل آية ١٨ .
(٢) النمل آية ٣٧ .
(٣) النمل آية ٢٠ ـ ٢٤ .
(٤) النمل آية ١٨، ١٩ .

هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

لما أيقن أهل سبأ وملكتـهم أن سليمان عليه السلام ليـس ممن يعملون للمال وأنه لابد آخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا، خرجت الملكة في وفد كبير ذاهبة إليه، فلما كـانوا ببـعض الطريق، أراد عليـه السـلام أن يحدث آيـة تدهش القـوم وتلين قلوبهم للإيمان، فقال لجنوده، وفيهم من أرباب القوى العجيبة وأهل العلم بأسرار الوجود:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ... ﴾ (١)

أرأيت الذي عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل، والإمام الفاضل، والنبي الصـالح؟. .وهذا الذي عنده علم من الكتاب هو ممن تـفضل بهم الله على سليمان ليكونوا في خدمة ملكه، فلما تحقق فـضل الله بتسخير هذا العلم عمليا، اعترف به فقال:

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

وفضل الـله كما تـراه هنا: هو القوى العلمـية بدون شك، لأنك تقـرأ في نفس السورة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾

وفي سورة سـبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (٢) .

فسبحان الله العظيم، مسخر الأسرار للعاملين في الارض بطاعة المؤيدين لسلطانه فيها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٣)

ومما سبق يتبين تسخـير الطبيعة للملك سليمـان عليه السلام وفي آيات أخرى ترى

(١) النمل آية ٣٨ ـ ٤٠ .
(٢) سبأ آية ١٠ .
(٣) الأنبياء آية ١٠٥ .

مثل هذا التسخير كقوله: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر* ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور﴾ (١)

هذا شأن العلم والقوة في هذه القصة.

(٢) ورسالة: لابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها، وتصرف إليها قوتها وعلمها. . .أن الغاية الفاضلة التي يجب أن تعيش لها الدولة الفاضلة، وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة إلى شيء سواها هي: توحيد الله عز وجل وجمع الناس على الإيمان به وحده وتعمل جاهدة لتحقيقها وتطهير الأرض من كل رجس وشرك حتى تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله. . يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل، يجب إقامة النظم السياسية والتشريعية، والعملية التي تكفل استقرار الناس في ظل هذه الغاية. . .هذه الغاية هي التي يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة، وقد أثنى الله على المسلمين، لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله فقال سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

وفي القصة التي نحن بصددها نرى الهدهد يغار على قدسية الله واجلاله وأن العبادة الحقة يجب أن تتوجه إلى الله وحده سبحانه فيقول:

﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ ـ سبأ ـ ﴿وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ (٢)

وهذا ضلال في العقيدة، وضلال في العمل يفسدان على الدولة غايتها، وهل صلاح الحياة إلا عقيدة صالحة، وعمل صالح؟، ثم بين الهدهد العقيدة الصالحة التي يجب أن تعيش عليها هذه الدولة، بل الإنسانية كلها أفراد وجماعات: ﴿ألا يسجدوا لله

(١) سبأ آية ١٢، ١٣ .

(*) عين القطر: عين تفيض بالنحاس المذاب.

(٢) النمل آية ٢٣، ٢٤ .

الَّذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

فيتولى سليمان عليه السلام تحقيق هذه الغاية، وفق ما يحكيه الله عن الهدهد فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز الحكيم يدعوهم إلى الإسلام لله وحده: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

ويصر سليمان عليه السلام في إسلامهم، وازاء هذا الاصرار، يظهر عقل المرأة الأريب في الوقت الحاسم فتعلن أنها أسلمت لله وليس لسليمان فكأنها هي وسليمان عليه السلام متساويان فتقول: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

(٣) إيمان الحاكم ورعايته للقاصي والداني: وهي الحقيقة الثالثة في هذه القصة المباركة، تبين مدى إيمان الحاكم، ويقظته لكل صغير وكبير، ورعايته الشاملة للقاصي والداني بدليل قوله تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ .

إنها يقظة عجيبة، فطنة حساسة - إذ لا يشعر بغياب هدهد وسط ألوف بل ملايين من الخلائق المحشورة فيقف متسائلا:

﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾؟ .

ويذهب موضع العجب إذا علمنا أن هذه الفطنة جاءت من نبي الله سليمان عليه السلام، وعلى كل حال فإن للهدهد مع صغره رسالة، ولكل فرد في المجتمع صغيرا كان أو كبيرا أهمية وعمل موكل به فإذا غاب أو أهمل اختل التناسق في العمل وأدركه الاضطراب والخلل، ومن ثم يتوعده فيقول:

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

---

(١) النمل آية ٢٥، ٢٦ .
(٢) النمل آية ٣٠، ٣١ .
(٣) النمل آية رقم ٤٤ .

فنفهم من هذه الآية أن الذي يحاسب على الأمور الصغيرة لابد أن يهتم بكبارها، وأن الذي يحاسب الحساب العسير، لا يفرط في المؤخذة على الأخطاء الجسيمة.

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة، فيعفو عنه، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال:

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ويأتي موقف الحاكم العفيف، حينما ترسل إليه ملكة (بهدية الملوك) فما كان من سليمان عليه السلام إلا أن أعرض عنها، فعلمت أنه نبي وليس طامعا في ملكها، فقال سبحانه تصويرا لما حدث: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

(٤) إيمان الرعية بأهداف الدولة:

فكل فرد من أفراد الرعية يجب أن يؤمن بغاية الدولة، وأن يجند نفسه لمصالحها، لأن الدولة لا تستطيع العمل بدون الأفراد، فترى الهدهد يعتز بعمله، فيخاطب سليمان عليه السلام وهو حاكم الإنس والجن وهو واثق من نفسه ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . . . الخ

فكلام الهدهد هنا كلام الواثق من نفسه، المطمئن على أداء واجبه مع أنه يخاطب أعظم رجل في المملكة يخاطب سليمان عليه السلام.

فعلى أفراد الأمة أن يعرفوا واجبهم فيؤدونه في اخلاص وصدق، فإن أمة لا يؤدي أفرادها واجبهم فهي أمة لا تساوي هدهدا.

ونرى في هذه القصة كيف انتصرت دولة الحاكم المؤمن على دولة الشرك والضلال ففساد عقيدة دولة سبأ أدى إلى وجود رجال لا عقول لهم ولا حمية، بدليل أنه لما نزل بهم خطاب سليمان عليه السلام جمعتهم لتستشيرهم فقالوا لها: ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

وما جمعتهم لهذا، وإنما جمعتهم لتقول لهم: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فلم يسعفوها برأي تستأنس به، وهذا ضرب من الرجال لا تقوم بهم دولة، ولا تنبته إلا عقيدة زائفة.

وبعد: فقد اشتملت هذه القصة على المعاني والأهداف التالية:

قوة وعلم، رسالة هادفة، إيمان الحاكم، ورعايته للقاصي والداني، إيمان الرعية بأهداف الدولة، وهي قصة عظيمة لاشك هادفة بحق على المسلم أن يقرأها ليعمل بما فيها، . .

وما ورد في هذه القصة فهو نوع من أسرار القرآن المعجز، إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة، بشر، ولا يحيط به إلا الله الذي خلق كل شيء، وأحاط بكل شيء علما، نحن إذا أمام طبيعة القصة في عرضها للمعاني الدقيقة عرضا مصورا في حوادث عملية، رأينا فيها تحليلا عميقا لا يجذب العقل مرة بل ألف مرة ليتدبرها ويعي ما فيها من حكم بالغة [1] .

والآن نتركك مع القصة الكاملة في نسقها الآلهي المعجز قال عز من قائل في التنزيل العزيز: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

(١) تذكرة الدعاة ص ٣٧ وما بعدها باختصار.

لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

أقرأت هذه القصة؟

(١) النمل آية ١٥ ـ ٤٤ .

لاشك أنك بعد تلاوتهــا وتدبرها وجدت فــيها غيــر ما سبق تــقديمه من لطائف دقيقــة، كالنص على حقــيقة المفســدين في الأرض، كما ترى فطنة بلقيس ملكــة سبأ، وتوقد ذكــائها في ادراكها مــعنى المفسدين، وتريثــها في اختــبار حقيــقة سليمــان عليه السلام، فإنها لم تحاول رشوته، وإنما حاولت اختبــار حقيقته، هل يعمل للمال، أم هو من أرباب العقــائد والإيمان؟ ولما وجدته من أرباب العــقائد والإيمان سارت على نهــجه وأسلمت لله رب العالمين.

وكذلك ترى ذكاء (بلقــيس) حينما عرضــوا عليها عرشهــا لم تقل: إنه هو لأنها تركته في بلادها، ولم تقــل: ليس عرشي لأن به كثير شــبه فيما بينه وبين عــرشها ولم تقل: لا أدري لأنه غــباوة، وبلادة ذهن، فــخرجــت من السؤال المحــرج بهذه الإجــابة الكيسة اللبقة التي ما كان يصلح للموقف غيرها.. فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾

كما ترى في القصة غــير هذا من اللفتات اللطيفة الدقيقــة، تركتها خوف الاطالة وحسبك ما قدمته لك من خلاصة وهي هادية ومرشدة بإذن الله [١] تعالى.

---

(١) انظر تذكرة الدعاة ص ٤٨ .

القصص النبوي

يأتي في المرتبة التالية بعد قصص القرآن الكريم، هو قصص كان يختاره عليه الصلاة والسلام من تاريخ السابقين ليشرح ما يريد من المعاني بالأمثلة الحية الواقعية وإليك مثلا من هذا القصص:

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق [١] قبلهما أهلا ولا مالا، فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح [٢] عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت ـ والقدح على يدى ـ انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون [٣] عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب إلي وفي رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين [٤]، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت من الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد

---

(١) لا أغبق: لا أقدم في الشرب قبلهما أهلا ولا مالا من رقيق وخادم.. والغبوق: شرب العشى.

(٢) أرح: أي ارجع.

(٣) يتضاغون: يصيحون من الجوع.

(٤) أي نزلت بها سنة من السنين المجدبة.

إليّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي! فقلت: لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» [١] .

أرأيت هذا الاختيار النبوي لهذه القصة القوية التي صورت جزاء الاخلاص واحضار النية في جميع الأعمال والأقوال.

وفي القرآن ما يؤيد هذا الاخلاص فقال سبحانه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [٢] .

أي: مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام، ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي الملة المستقيمة . . . .

وفي الحديث دعوة المسلم إلى أن يتوجه بالدعاء عند الكرب إلى الله سبحانه كما يفيد التوسل إليه سبحانه بالعمل الصالح، كما يدلنا على فضل بر الوالدين وخدمتهما، وايثارهما على من سواهما من الولد والزوجة، ومكانة العفاف وفضله وحسن العهد، وأداء الأمانة مع السماحة في المعاملة واثبات كرامات الأولياء [٣] .

فليكن القصص النبوي من أساليب الخطيب التي يلجأ إليها في شرح وتثبيت تعاليمه، فإن القصص، من سنة الله في كتابه ومن سنة رسوله ﷺ وعلى الخطيب ألا يلجأ إلى القصص المخترع، أو المدسوس، فإن هذا يعرضه للنقد وانصراف الناس عنه.

سوق المثل:

المثل: جملة القول مقتطعة من كلام، أو مرسلة بذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير مثل: (الصيف ضيعت اللبن)، و«الرائد لا يكذب أهله» [٤]. فهو إذن قول واضح موجز ينتصب صدقه في العقول فيألفه الناس ويجري بينهم، ويشيع في أحاديثهم، وحكمة ضرب المثل: استئناس النفس به، ويلتمع في جوانبهم ضوء من وضوحه، وسرعان ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل القديم

(١) البخاري: ٤ / ٣٦٩، ٣٧٠ ومسلم: ٢٧٤٣ .
(٢) البينة آية ٥ .
(٣) راجع رياض الصالحين: للإمام النووي ص ١٠ تحقيق عبد العزيز رباح وآخر.
(٤) المعجم الوسيط مادة: مثل.

والجديد، هذا بالإضافة إلى أن ضرب المثل يفـيد تجديد الذهن وتنشيطه، بما يمتاز به من خلابة ورشاقة موقعه في النفس وطرافته التي تتجدد ولا تبلى [١] .

قال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مـثلا كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث.

وقال إبراهيم النظام: يجتـمع في المثل أربعة لا تجتمع في غـيره من الكلام: ايجاز اللفظ، واصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية.

وقد أورد الإمـام السيـوطي [٢] من أمثـال القرآن الكريم ما به تهـدينا إلى سواء السبيل، قـال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ [٣] .

وقال جل جلاله: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [٤] .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن نزل على خمـسة أوجـه: حلال وحرام، ومـحكم، ومتـشابه، وأمثـال، فاعـملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال». .

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرا ووعظا فما اشتمل منها على تفـاوت في ثواب، أو على احبـاط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحـوه فأنه يدل على الأحكام. .

أمثال الـقرآن قسمـان: ظاهر مصرح به، وكامن لا ذكـر للمثل فيه، فـمن أمثلة القسم الأول: قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [٥].

الآيات ضرب فيها للمنافقين مثلين: مثلا بالنار، ومثلا بالمطر.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هذا مثل ضـربه الله للمنافـقين، كانوا يعـتزون بالإسـلام فيناكـحهم المسلمـون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه. . .

---

(١) تذكرة الدعاة ص ٥٩ بتصرف.
(٢) الاتقان: ٤ / ٤٤ .
(٣) الروم: آية ٥٨ .
(٤) العنكبوت آية ٤٣ .
(٥) البقرة آية ١٧ .

ومنها قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [١] أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس، قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [٢] وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [٣] وهو اليقين، كما يجعل الحلي في النار، فيؤخذ خالصه، ويترك خبثه في النار، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وأخرج عن قتادة قال: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته، وكذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وربت بركته وأخرجت نباتها، وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار فأذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله، وكما اضمحل خبث هذا الذهب حين أدخل النار، كذلك يضمحل الباطل عن أهله [٤]..

ومن ضرب الأمثال أيضا الظاهرة المصرح بها أن تشبه أمرا دقيقا خفيا، أو به بعض الخفاء بأمر حسي مما يعهده الناس في حياتهم اليومية، وهذا النوع ورد بكثرة عظيمة في القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ.

فمما ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [٥].

هذه صورة من الصور التي تجري تحت سمع الناس وبصرهم. الماء ينزل فيسيل في أودية الأرض، فيجري في كل منها بقدر، فيطفو على وجه السيل زبد كثير، ولكن ما المراد بهذه الصورة؟ إن الله عز وجل لا يريد ظاهر معناها فإنه يذكر في آخر الآية (كذلك يضرب الله الحق والباطل)، ﴿وَكَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ....﴾ فما مضرب المثل هنا؟

جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قوله: «مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة.. الخ».

ورسول الله ﷺ أحق من نأخذ عنه تفسير القرآن العظيم وهو في هذا الحديث

(١) الرعد آية ١٧ .
(٢) الرعد آية ١٧ .
(٣) الرعد آية ١٧ .
(٤) الاتقان: ٤ / ٤٦، ٤٧ .
(٥) الرعد آية ١٧ .

يشبه ما نزل به الوحي من الهدى والعلم بالمطر.

وعلى ضوء هذا التفسير النبوي الشريف نجد في الآية القرآنية أو المثل القرآني هذه العناصر الآتية:

(١) قد جاءنا من الله علم وهدى مثله كمثل الغيث المبارك.

(٢) والذين جاءهم هذا الهدى والعلم كالأرض التي ينزل عليها الغيث.

(٣) وهذا الهدى الالهي يجرى في بواطن أهله وأعماق قلوبهم كما يجري الغيث في أعماق الأرض وأوديتها... وقلوب الناس تقبل من هدى الله وعلمه بحسب طبيعتها من الضيق والسعة، كما يقبل كل واد من أودية الأرض قدرا من الغيث يناسب سعته أو ضيقه..

(٤) وكل ما مضى ليس هو لب العبرة في المثل، إنما لب العبرة يكمن في قوله تعالى: ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾، والزبد رغوة لينة ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء، ثم لا تلبث أن تذهب جفاء تاركة تحتها الماء الصريح النافع.. وذلك تمثيل لحال الحق والباطل: فالباطل في تفاهته وسرعة زواله كرغوة الزبد والحق في أصالة وجوده وعموم نفعه كالماء الذي لا حياة للوادي بدونه [١] ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ هذه أيها القارىء الكريم عناصر المثل باختصار وإذا أردت المزيد فارجع إلى كتب التفسير.

أما القسم الثاني والأخير فهو الأمثلة الكامنة: قال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله «خير الأمور أوساطها»[٢] قال: نعم.. في أربعة مواضع قوله تعالى: ﴿ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ [٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[٤].

---

(١) تذكرة الدعاة ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) الاتقان: ٤ / ٤٨ .

(٣) البقرة: آية ٦٨ .

(٤) سورة الفرقان: آية رقم ٦٧ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [(١)].

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ [(٢)].

المثل:

أخرج الإمام أحمد بسنده عن الحارث الأشعري أن نبي الله محمد ﷺ قال«إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطىء بها فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فأما أن تبلغهن وأما أن أبلغهن فقال يا أخي أني أخشى ان سبقتني أن أعذب أو يخسف بي، قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . .

(١) أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فإن ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق، أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

(٢) وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجه لوجه عبده مالم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

(٣) وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

(٤) وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسي منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

(٥) وآمركم بذكر الله كثيرا، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله» قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة،

---

(١) الإسراء: آية ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء: آية رقم ١١٠ .

والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم» (١).

واخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح: فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح، والدم فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» (٢).

ومن التشابه وضرب المثل:

ما يعمد إليه الخطيب لتقريب الأمور التي يدعو إليها فيأخذها المخاطبون قضية مسلمة لا تحتاج إلى مناقشة، ومن ذلك: كلمة (مصطفى كامل) التي قالها في بعض خطبه الحماسية إذ قال: ألقوا أيها السادة بأنظاركم قليلا إلى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه، ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه، بل هو يرضاهما ضحية للوطن، ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمهما لإعلاء شأن بلاده، ويعد الموت لأجل الوطن حياة، دونها الحياة البشرية، ووجودا دونه كل وجود، فلم لا يكون المصري على هذا الطراز، ووطنه أجمل الأوطان، وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة؟

ومن أبلغ أنواع التشابه الخطابي

قول أبي عبيدة عامر بن الجراح ينذر أهل الشام عند فتح بلادهم: لا يغرنكم عظم مدينتكم، وتشييد بنياتكم وكثرة زادكم وهول أجسامكم، فأننا نزلنا بلادا أخصب من بلادكم، وفتحنا أمصارا ممصرة، ومدائن أحرز من مدينتكم، وخرج علينا أعلاج - الرجل من العجم غير المسلمين - موفرة أقواتهم، مدرعون، مترسون فصلد نجمهم

---

(١) الحديث استدل به ابن كثير في تفسيره وقال: حديث حسن: ١ / ٥٨ .

(٢) اسناده جيد حسن. راجع المرجع نفسه ص ١ / ٥٦ .

وذهب أمامنا ريحهم، ورددناهم على الأعقاب، لا يلوي أولهم على آخرهم.

وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته بذكر مثل خيالي، لا يتصور العقل وقوعه كتلك الأمثال التي تجيء على ألسنة البهائم، ومن ذلك ما جاء في بعض خطب الإمام علي ﷺ قال:

«إنما مثلي، ومثل عثمان كمثل اثوار ثلاثة كن في أجمة [١]: أبيض، وأسود، وأحمر، معهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء، لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإن لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله، صفت لنا الأجمة، فقالا: دونك فكله، فأكله فلما مضت أيام قال للأحمر: لوني على لونك فدعني آكل الاسود لتصفو لنا الأجمة، فقال: دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: اني آكلك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثا، فقال: افعل فنادى: ألا اني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال عليّ رافعا صوته: ألا اني وهنت يوم قتل عثمان» [٢].

وذلك النوع من الأمثال يسوقه الخطيب إذا أراد أن يستتر في بعض كلامه فلا يصرح ببعض الأشخاص، أو يصور المعاني خالية من كل علاقة لها بأشخاص، أو يريد بها تقريب الأفكار من النفوس مع تلميح الكلام وتزيينه..

فهذه الأمثلة والتشبيهات يستطيع الخطيب أن يكون منها خطبة، لأنه سيضع الحقائق سافرة أمام المخاطبين..وهكذا نجد السنة الشريفة مليئة بضرب الأمثال الصحيحة الهادفة، وكذلك الأمثلة الأدبية والتشبيهات..وهذه كلها زاد يستطيع الخطيب الاعتماد عليه..وهناك أمور هامة ينبغي على الخطيب أن يلفت أنظار الناس إليها وهي:

السير في الأرض والنظر فيها:

من صفات الخطيب العقلية العلمية ذات التفكير الواقعي الوقوف على الآثار والأطلال، لا وقوف الجامد الغافل، بل وقوف المتسائل فيستخبرها عما فعل الليل والنهار، ثم ينفخ الحياة في أصحابها..فيخاطب الآثار: حدثينا عن أصحابك! ماذا كانت قلوبهم وعواطفهم وهم ينشؤنك، أكانوا غافلين عن الموت سارحين في لهوهم وآمالهم؟

---

(١) الأجمة: الشجر الكثيف الملتف. المعجم الوسيط. مادة: أَجَمَ.

(٢) الخطابة: ص ٣٨، ٣٩.

أم كانوا ذاكرين شاكرين لله أنعمه؟ مجاهدين في ميادين الخير والطاعة؟ أيها الأحياء: ان هذه الآثار تخبركم أن أصحابها مضوا إلى غـايتهم، وهم أشد ما يكونون تعلقا بالحياة، وإنكم كما سافروا لا محالة مسافـرون فتزودوا لسفركم هذا بتقوى الله عز وجل، ليكن وقوف الخطيب بالآثار وقوف متذكر للمـوت، وما يجري من تصاريف القدر على خلقه في كونه العجيب.

آيات السير في الأرض:

يأمر الله سبحانه عباده بالسير والسياحة في الأرض للعظة والتفكر فيقول:
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١).

ويوضح لنا منهاج التأمل فيقول: ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيـرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيـــنَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢)

ويزيد الله في العبرة فيسوق هذه الآية الكريمة فيقول:
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيـــشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيـــلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٣).

فانظر بتدبر إلى قوله سبحانه: ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ ﴾ كم فيه من عبـرة تلين القلوب والمآقي وتكسـر النفوس للحي الوارث الـباقي ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيـتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنـكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ (٤).

ويشير القـرآن أيضا إلى المساكن والقصور والآثار فـيقول: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

---

(١) النمل: آية ٦٩ .
(٢) الروم: آية ٩ .
(٣) القصص: آية ٥٨ .
(٤) الحجر: الآيات ٢٣، ٢٤ .

الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١)

والملاحظ هنا أن الهلاك إنما يقع بسبب الظلم، أو بطر النعمة التي يعيش فيها الإنسان . .

وكثير ما يصرح الله سبحانه بأسماء هؤلاء السابقين وخطاياهم، فَذكْر الأثر مقرونا باسم صاحبه وخطيئته وعقوبته أبعد غوصا بالموعظة في أعماق القلب، وإليك هذا النبأ غير السار عن قوم لوط كمثال لما نحن بصدده.

أرسل لوط عليه السلام إلى أهل سدوم ـ شرقي فلسطين ـ مكان البحر الميت الآن، وقد كانوا يقطعون الطرق على الناس، ويأتون في ناديهم المنكر، فوعظهم لوط عليه السلام فلم يستمعوا إليه، فأنذرهم وحذرهم فظلوا في طغيانهم وعصيانهم يعمهون فماذا حدث؟ أمطرهم الله مطر السوء، وزلزل الأرض بديارهم فجعل عاليها سافلها، وظلت آثارهم باقية تقص نبأهم على المعتبرين، وفيهم يقول عز شأنه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٢).

فماذا حدث لهذه القرية؟ دمرها الله بما امطر عليها، وبما زلزل بها وفي مكان هذا الزلزال انشقت الأرض فحدثت البحيرة الصغيرة التي تسمى الآن بحيرة «لوط» أو «البحر الميت» وهي تسمية قديمة فهؤلاء الصرعى تحت أنقاض قريتهم سرى اسم الموت منهم إلى البحر الذي غمر أماكنهم بمائه . . وظلت بقايا الأنقاض على شاطئه تطالع المارين بما كان من أحداث خطيرة في تلك القرون (٣) الخاليات.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذا الحدث:

أن الله أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا (٤). .

ويقول المرحوم الاستاذ الشيخ عبد الوهاب (٥) النجار:

(١) الحج: الآيات ٤٥، ٤٦ .
(٢) الحجر: آية ٧٥ . . والمتوسمين أي المتفرسين، والميسم والسمه: العلامه.
(٣) تذكرة الدعاة: ٩٤ وما بعدها.
(٤) راجع تفسير ابن كثير: قصة لوط عليه السلام مع قومه.
(٥) قصص الأنبياء: ١١٣ .

أعتقد أن البحر الميت المعروف الآن ببحر لوط لم يكن موجودا قبل هذا الحادث، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر، ثم تنبه جيدا إلى ما يقوله الشيخ رحمه الله «وقد جاءتنا الأخبار في السنتين الماضيتين» سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١» بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة «البحر الميت» وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. كان العرب يرون هذه الديار المدمرة في سفرهم إلى الشام ذهابا وإيابا، فأخبر الله بذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[1]

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[2]

أنه لمن فضل الله أن نجد هذا القصص في القرآن الكريم لننزجر ونخاف فنبتعد عن معصية الله...

حادثة قوم عاد:

قوم عاد هم أصحاب الأحقاف في جنوب جزيرة العرب. أهلكهم الله بالريح العقيم، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[3]..؟

لم يبق من هؤلاء البائدين إلا مساكنهم، كانت تتراءى للعرب الرحل المسافرين ولكنها طمرت الآن تحت الرمال، بما سفت عليها السوافي، فلعل الله يقيض لها من يكشف عنها، قال عز وجل عن العذاب الذي أرسله عليهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[4].

---

(١) الفرقان: آية ٤٠ .
(٢) الصافات: الآيات ١٣٣ ـ ١٣٨ .
(٣) الحاقة: آية ٧، ٨ .
(٤) الأحقاف: الآيات ٢٤، ٢٥ .

والشاهد في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾.

هذا منهاج كـامل أقره الله ليكون دستـورا للبشر في النظر والاعتـبار إلى الآثار ومن ثم فقـد كان ﷺ يرى أن الوقوف على آثار الظالمـين دون تأمل.. مما يجلب سخط الله وغضبه..

خرج ﷺ إلى غزوة تبوك وفي الطريق إليها مر على مدائن صالح أو ديار ثمود، وهي عبارة عن بيوت منحوتة في الصخـر كما ورد في القرآن الكريم، وكان من شأنهم عصـيانهم لنبـيهم، وتمردهم على حكم ربهم، حـتى أرسل عليهم صاعـقة فـأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

لما اقترب رسول الله ﷺ من ديار تمود ـ وهي لا تزال ظاهرة إلى اليوم ـ ثارت ذكرى الظلم والظالمين بنفسـه وهي ذكرى بغيضة، فسجى ثوبه على وجـهه، واستحث راحلته، وقال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم»..

فـهل هناك وصـفـا أبلغ في الدلالة على الوجـدان المرهف والشـعـور الحي من فعله ﷺ «سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته»؟ لا يحدث مثل هذا إلا من النفس الحية البالغة ذروة الحياة والاحساس.

ولكن أصحابه ليسوا كهيئته ﷺ فهم في حاجة إلى التذكير، وهو يخشى عليهم أن يلفتهم الاعجاب بهذه البيوت والقصور المنقورة في الصخر عن العبرة والتأمل فتقسوا قلوبهم، والقلوب الـقاسـية أهون شـيء على الله وعلى عـدوهم، وقال لهم: «عـلام تدخلون على قوم غـضب الله عليهم»؟ فناداه رجل فقال نعـجب منهم يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

«ألا أنبئكم بمـا هو أعجب من ذلك؟ رجل من أنفـسكم ينبئكم بما كـان قبلكم، وما هو كـائن بعدكم، استـقيمـوا وسددوا فإن اللـه عز وجل لا يعبـأ بعذابكم شيـئا، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا»..

وأهاب بهم جميعـا: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم».

* وهذه لفتة كريمة من سيد الخلق، وتعليم راق، فإن الأثر العجيب إذا كان لظالم،

وأعجب به الإنسـان، فقد أعجـب بالظلم من حيث لا يدري وأدخل على قلبه الفساد والجمود وهو لا يشعـر، وما الإنسان إلا قلبه الحي، وضميره الذكي اليـقظ، فإذا أفقده هان شـأنه. . فانظر يا رعـاك الله إلى حرص رسـول الله ﷺ على حـيـاتـنا، ويقظة بواطننا. .

فإذا كان الالتفات إلى العهود السابقة وما فيها من ذكريات للإنسان وأن فيها حياة للـقلـوب [١]، فعلى الخطيب أن يستـحضرها أمام المستمـعين، ثم يقارن ويفاضل بين العهود ليخرج منها في النهاية بالعبرة والتأمل. .

نماذج مما يراه الإنسان في الأرض:

أراد مـحمـد ﷺ أن يضرب للنـاس مثلا مما يرونه في الأرض من الخـلقة التي خلقوا منها، ومع ذلك فمنهم من يتكبر على الله ومنهم من ينكر وجوده سبحانه ومنهم من ينكر قدرته جل جلاله، وحكمته في الخلق.

قام سيدنـا محمد ﷺ خطيبا فبسط كفه وتفل عليـها، ووضع اصبعه بجانبها، وقال: يقول الله تبارك وتعالى:

«يا ابن آدم أنى تعـجزني وقد خلـقتك من مثل هـذه حتى إذا سويتك وعـدلتك مـشيت في بردين ولـلأرض منك وئيد، فـجـمعت ومنعت، حـتى إذا بلغت التـراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة».

وهذا الحديث القدسي واضح كل الوضـوح لمن تأمله بروية وتفكر لأنه من معين السنة الموضحه للقرآن والتي تعد المصدر التالي بعده فما هي السنة؟

---

(١) انظر تذكرة الدعاة: ص ٩٧ وما بعدها.

السنة النبوية

السنة في اللغة

هي السيرة حسنة كانت أو قبيحة، وفي الحديث عن الرسول ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (١).

أما السنة عند علماء الحديث كما جاء في المختصر الوجيز في علوم الحديث (٢):

فهي كل ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة سواء أكان ذلك قبل البعثة كتحنثه في غار حراء أم بعدها، والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث عند المحدثين.

الحديث القدسي

هو كلام حديث يضيفه الرسول ﷺ إلى الله عز وجل، ونسبة الحديث إلى القدس وهو (الطهارة والتنزيه) وإلى الإله أو الرب، لأنه صادر عن الله عز وجل من حيث المتكلم به أولا، والمنشيء له وأما كونه حديثا فلأن رسول الله ﷺ هو الحاكي له عن الله تعالى بخلاف القرآن الكريم، فأنه لا يضاف إلا إلى الله عز وجل فنقول: قال الله تعالى، ونقول في الأحاديث القدسية: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه (٣).

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي

(١) إن الحديث النبوي نسبته إلى الرسول ﷺ وحكاية عنه.

(٢) وأما الحديث القدسي فنسبته إلى الله تعالى والرسول ﷺ يحكيه ويرويه عن الله عز وجل، ولذلك قيدت بالقدس أو الإله فقيل فيها: أحاديث قدسية وأحاديث آلهية نسبة إلى الذات العلية. وقيدت الأخرى بالنبي ﷺ فقيل فيها: أحاديث نبوية نسبة إلى الرسول ﷺ وإن كانت جميعها صادرة بوحي من الله عز وجل لأن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤).

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: ٢ / ٧٠٥.

(٢) للدكتور: محمد عجاج الخطيب ص ١٦ ط الأولى: ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة بيروت.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠.

(٤) النجم: آية رقم ٣.

مثال الحـديث القدسي ـ حديث أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ فيـما يرويه عن الله عز وجل أنه قال: (يا عـبادي إني حرمت الظلم على نفـسي وجعلته بينكم محـرما فلا تظالموا)[١] .

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي

يتمثل هذا الفرق في:

(١) إن القرآن الكريم معجزة باقية حتى تقوم الساعة محفوظة من التغيير والتبديل متواترة اللفظ في جميع الكلمـات والحروف والأسلوب، لفظه ومعناه من الله عز وجل وبوحي جلي.

أما الحـديث القدسي فلفظه من عـند الرسول ﷺ ومـعناه من عند الله تبـارك وتعالى.

(٢) القرآن الكريم يتـعبد بتلاوته، وكل حـرف منه بعشر حسنات وتتـعين قراءة القرآن الكريم في الصلاة ولا تجزىء قراءة الحديث القدسي.

(٣) حرمة رواية القرآن الكريم بالمعنى، وتجوز رواية الحديث القدسي بالمعنى [٢].

(٤) القرآن الكريم منزل بلفظه ومعناه، وأما الحديث القدسي فمعناه من عند الله.

(٥) القرآن الكريم نزل للتحدى بالأسلوب والتعبد بالتلاوة، والحديث القدسي لم ينزل للتحـدى ولا للتعبد بل لمجرد العـمل بما فيه، وهذه الفائدة تحـصل بانزال معناه، وصيغة الحديث القدسي: (يقول الله تبارك وتعالى. . . كذا) أي أن المقصود نسبة مضمونه ومعناه لا نسبة ألفاظه [٣].

أثر الحديث النبوي الشريف على الخطابة

كـلام النبي ﷺ يلي منزلة القرآن احتراما واجلالا، وقد اجـتمعت فيه فصاحة اللفظ وجـودة المعنى وحسن الأداء حتـى أصبح من البلاغـة ـ في الذروة، ووصل من الروعة إلى القمـة، وهو جوامع الكلم، وفيه روائع الحكم هو القول الفـصل لا فضول فيه، ولا تزيد، أخذ من القرآن الكريم وأوحى إليـه به الرحمن، لكلامه جلال لا تجده

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ٤ / ١٩٩٤ .

(٢) المختصر الوجيز في علوم الحديث ص ٢٢ .

(٣) راجع للدكتور محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ـ ص ١٦ .

فيما سواه، وتحيطه هالة روحيـة ـ تحس منها بشعاع النبوة، وقد أثار ذلك روح العجب والاعجاب في أصحابه ﷺ، حتى قال له أبو بكر الصديق ﷺ: لقد طفت في العرب وسـمعت فـصـحاءهم فـما سـمعت أفصح مـنك فمن أدبك؟ فـقـال عليه الصـلاة والسلام: «أدبني ربي فأحسن تأديبي». .

وصف كلام رسـول الله ﷺ: قال الحافظ فـي وصف كلامه ﷺ: هو الـكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد مـعانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ ـ يا محمد ـ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (١) استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القـصر، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة، وشيد بالتأبيد ويسر بالتوفيق. . لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حـجة، ولم يقم له خـصم، ولا أفحمـه خطيب. . . ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفـعا، ولا أحسن لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجـمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا ولا أحـسن موقعا، ولا أسهل مخرجـا، ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ (٢).

فلا غرو أن تتأثر الخطابة بمثل هذه الأحاديث النبوية الشريفة فهي قمة في البلاغة والفصاحة.

أثر الحديث في الخطابة:

كان للحديث الشريف أثران في الخطابة:

الأول: في اللغة:

أ ـ من حيث أن الحديث أضاف إلى اللغة ثروة من المعاني وثروة من الأساليب.

ب ـ هذب الحديث الشريف اللغة تهذيبا قريبا من تهذيب القرآن الكريم إذ سهل ألفاظها، ورقق أسـاليبها وذهب بالحوشي منهـا، فكان لكل هذا أثره في الخطابة، لأنها شعبة الأدب الأولى في ذلك العصر بل أعظم شعبه وأظهر مظاهره.

---

(١) ص: آية ٨٦ .

(٢) نقلا عن الخطابة ص ٢٦٣ وما بعدها.

الأثر الآخر:

إن أكثر الخطباء كان يرطب لسانه في خطبه بشيء مما أثر عن الرسول ﷺ تيمنا بقوله، واسترواحا للسامعين وليكسبوا كلامهم روعة، وليستشهدوا بكلام الرسول ﷺ على صحة ما يدعون فإن الحديث الصحيح فيه فصل الخطاب[1].

ومن مصادر الخطيب أيضا:

الملل والنحل:

من مصادر الخطيب الهامة إذ بها يتمكن من أعداد خطبته، أو درسه، أو أجوبته، كما يستطيع أن يقارن بين الصحيح والفاسد والحق من الباطل، ومع أن القرآن ضم الكثير من الملل والنحل، إلا أنه لا مانع من متابعة ما تقذف به المطابع في هذا الشأن ليكون على بينة مما يكتب ويذاع حوله لأن الباطل له مداخل لا حصر لها، فإذا دخل بين جماعة فاحتضنته سيطر على تفكيرها، وهنا يكمن الخطر.

اللغة العربية وفروعها:

من صرف، وبلاغة، وأدب. . الخ عدة الخطيب الهامة، وعنوان نجاحه وتفوقه إذ بها يفصح عما يريد فيزيل ما تراكم على العقول من صدأ أو جهل: بالعبادات، أو الأحكام، أو المعاملات، إن على الخطيب أن يلزم نفسه القراءة المستمرة للغة العربية وفروعها، لتعطيه مزيدا من المفردات اللفظية، التي تمكنه من سوق حديثه في صورة بارعة مقنعة.

العلوم الإنسانية:

سبق الحديث عنها وعلاقتها بالخطابة، وهي على وجه الاجمال كل ما يتصل بالإنسان، ويدور حوله كالتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والمنطق، وعلم الجمال. . الخ، وهذه كلها من العلوم الضرورية للخطيب حتى يستطيع معالجة أفكار مخاطبيه

إن الخطيب اليوم صاحب رسالة تحتاج منه إلى حب وإخلاص، واصرار لإيصالها إلى النفس مهما كلفه من متاعب ومشاق، ومن ثم يلزمه العيش دائما بين البحوث والكتب ليفيد ويستفيد.

---

(١) الخطابة: ٢٦٣ .

إن الواجب يحتم على الخطيب أن يحفظ كتاب دعوته، وأن يحرص على الصلة القوية بسنة نبيه ﷺ فهي تشرح وتبين أمور دينه ومهما تطورت الدنيا وتقدمت فهي مدينة للعلم في كل مراحلها، وعلى الخطيب أن يؤمن ايمانا جازما أنه لا مكانة في هذه الدنيا ـ حقيقة ـ إلا بالعلم (١).

العناية بالذاكرة

يحتاج الخطيب إلى ذاكرة قوية، متفرسة ملهمة، ولا يتأتى هذا إلا بالاستقامة والاخلاص في الفهم ليتمكن من أداء رسالته، لأن الذاكرة الضعيفة تنسى كثيرا من المعارف، فقد يكون الإنسان مثقفا غزير المادة واسع الاطلاع، ومع ذلك إذا صادفه موقف حساس أرتج عقله، وخانته ذاكرته، ومن ثم كان لابد من العناية بالقلب واللسان.

ذهب غلام مع وفد قومه لتهنئة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالخلافة، ولما وقفوا بين يديه اشرأب الغلام للكلام، فقال عمر: ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لسانا لافظا، وقلبا حافظا فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك، فقال عمر صدقت (٢).

والقلب الحافظ لا يكون إلا من ذاكرة قوية، أعتنى بها صاحبها، وبديهة حاضرة تسعفه في المواقف الحرجة.

يقول علماء النفس: إن ضعف الذاكرة تضر بالإنسان خاصة العادي.

يقول شيشرون: «إن الرجل العادي لا يستخدم أكثر من عشرة في المائة من قدرته الموروثة في الاستذكار، ويضيع منه تسعون في المائة بإخساره قوانين التذكر الطبيعية»(٢).

وإذا كان لعلم النفس طرق في تحسين الذاكرة والعناية بها، فإن العلم هبة إلهية من الله سبحانه وتعالى ومن ثم قال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾.

---

(١) قواعد الخطابة ص ١٦٩ بتصرف.

(٢) نقلا عن قواعد الخطابة ص ١٧١ .

يقول الإمام الشافعي ﷺ:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

طرق العناية بالذاكرة وتقويتها:

حصر علماء النفس ما يغذي الذاكرة ويقويها في ثلاث طرق:

الطريقة الأولى: التركيز ـ الطريقة الثانية: التكرار ـ الطريقة الثالثة: الترابط.

أما الطريقة الأولى:

فتعتمد على التركيز عند القراءة، حتى لا تتفلت منه الجمل وتضيع، ومن ثم لابد من استحضار المعنى عند قراءة الكلمات، وترتيب الافكار حسب ورودها في الألفاظ، ويتم التركيز بالقراءة بصوت مرتفع حتى تشترك حاستان في التقاط المعنى: اللسان، والأذن في هذه الحالة فيمدان العقل بالمعاني وهذا يؤدي إلى تحسين الذاكرة، ومما يساعد أيضا على التركيز تسجيل ما يقرأ، فالعقول تعتمد على رؤية المكتوب أكثر من المسموع بنحو خمس وعشرين مرة، فقد تنسى اسم الشخص في وقت ما بينما تحافظ فيه على تذكر صورته، ويمكن أن يسجل الخطيب أو القارىء ما يقرؤه في جمل قصيرة.

يقول (مارك توين): كنت ألقى محاضرة كل ليلة وكان لابد لي أن أستعين بمذكرات تملأ صفحة كاملة حتى لا يختلط علي الأمر، وكانت هذه المذكرات عبارة عن بديات الجمل.

الطقس في ذلك الاقليم...

جرت العادة في ذلك الوقت...

ولكن لم يسمع أحد في كاليفورنيا أن...

جمل من هذا الطراز يتكون منها ملخص الموضوع يقى صاحبه من الحصر والارتجاج [1]..

---

(١) قواعد الخطابة ص ١٧٢ .

كذلك من أوجـه العناية بالذاكرة وتقويتـها: التخلص من المعـوقات الحسـية عند القراءة، لأنها تصرف بعض الفكر إليـها، ولذلك نجد بعض الناس لا يقرأ إلا في مكان بعيد عن ضـوضاء الناس. . . وقد يكون العكس، المهم التركيز حـتى لا تضعف الذاكرة عند المناسبة . .

الطريقة الثانية:

التكرار: وهو أمر طبيعي لتقوية الذاكرة ومـقاومة النسيان، والمسلمون لا يحفظون كتاب الله إلا بهذه الطريقة.

والتكرار ينبغي أن يصاحبـه التركيز، لأن العقل الباطن يكون مشـغولا بين فترتي التكرار بتكوين ترابطات أكثر ضمانا، وبين المعنى والمناسبة.

وهناك اكتشاف مـفيد جدا يتصل بقوة الذاكـرة، وهو وجوب النظر في الموضوع قبل القائه، لأن العقل ينسى في الثماني سـاعات الأولى أكثر ما ينسى في خلال ثلاثين يوما بعد ذلك[١] .

الطريقة الثالثة:

الترابط: وهذه الطريقة مهمة لدى الخطيب، إذ بها يتـذكر نقاط موضوعه ويربطها بشيء موجود في العقل[٢] ، حتى يسهل شرحها، والقائها مترادفة مترابطة يأخذ بعضها بحجز بعض، وباهتمـام المسلم بذاكرته والعناية بها وتقويتها يكـتب له النجاح والتفوق في عمله . .

أصناف الناس ومدى انتفاعهم من خطيب المسجد

عمل الخطيب متصل بالنـاس، ولكل منهم قدرة على الفهم الذي يناسب تكوينه الذهني واستعداده العقلي، ومن ثم قالﷺ :

«خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله»

لأن الإنسان إذا لم يخاطب على قدر مستواه العقلي، فإنه لا يعقل شيئا مما يلقى عليه، بل وينفر مما يسمع، فتضيع فائدة ما تدعو إليه الخطبة.

---

(١) قواعد الخطابة ص ١٧٣ باختصار وتصرف.

(٢) قواعد الخطابة ص ١٧٣ باختصار وتصرف.

وفي كتاب (الدعوة التامة) للشيخ عبد الله بن علوي الجديد تقسيم للناس، وفق علمهم واقبالهم على الله سبحانه وتعالى وبيان لدعوة كل فريق فقال: البشر أصناف متعددة منهم:

الصنف الأول طائفة العلماء وهم رءوس الناس ووجهاؤهم، وأساس الصلاح أو الفساد في المجتمع، والعامة في حاجة دائمة إليهم وهم جماعة تميزت بالفطنة واشتغلت بالمعارف، وعلت بالعلوم التي حصلوها وثقتهم فيما جمعوا من علم أرقى، ولذلك وجب حين دعوتهم وتوجيههم أن يقدم لهم الحديث اللائق بلا تكرار، ولا أطناب، ولابد من بث الثقة فيهم، والرضى عنهم ولو في جانب ما.

أن الإنسان عموما لا يحب من يصدم مشاعره وواجب ملاحظة ذلك، وبخاصة من العلماء الذين هم قادة الفكر في الناس.

ويستحسن في خطابهم أن يقوم على الحوار والجدل، والقصص، والمثل التمثيلي ليستنتجوا مع الخطيب ما يريد... ومن الضروري استثارة روح المسئولية عند العلماء حين التوجه إليهم بالخطاب.

الصنف الثاني المطيعون لله، وهم أهل الورع والتقوى، وهم صفوة الله وأحباؤه وأولياؤه، وهؤلاء تكفيهم الإشارة، والرمز لأنهم علموا والتزموا، وعرفوا وذاقوا واتباعهم للخير جبلة فيهم لا يحتاجون لعناء، إنما يكفيهم التذكر ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1].

الصنف الثالث الأمراء والولاة: وهم أولو الحكم والسيادة إن قاموا بواجبهم، وفق أمر الله عدلوا ونصروا وإن ضيعوا واجبهم هلكوا وأهلكوا وهذا الصنف له هيبته وقيادته، ودعوتهم تحتاج إلى حكمة ودربة إذ لابد من اعطائهم ما يليق بهم من تقدير، وعدم التصادم المباشر معهم، وفي نفس الوقت لابد من نصحهم ووعظهم بالمسائل التي تنفعهم وتنفع رعاياهم باللين والحسنى وليس بمستحسن أن يتجه الخطيب لهؤلاء بما ينفرهم منه ويجعلهم في عداء معه.

---

(١) سورة الذاريات: آية رقم ٥٥ .

الصنف الرابع: أصحاب الحرف والمهن، وهؤلاء طوائف من الناس تقضي وقتها كله في العمل والسعي والكدح، وفيهم الحرص على الكسب والمال، وقد يفيء الله عليهم فيملكون مالا كثيرا وهم لم يتعلموا، ولم يتفقهوا، وواجب على من يخطب في هؤلاء أن يعيش من نفسياتهم، ويستدل لهم من حياتهم، ويعلمهم بأسلوب سهل، ويتخولهم بالموعظة، ويحاول أن يعالج الأمراض النفسية والاجتماعية التي تنتشر بينهم.

إن أصحاب الحرف يلزمهم معرفة حكم الشرع في عملهم، كل في اتجاهه، وهذا واجب الخطيب، ومن هنا كانت ضرورة ملاحظة نوعية المستمع لتكون الخطبة ملائمة له ومناسبة لمصلحته..

الصنف الخامس: أهل الفقر والمسكنة، ويراد بهم من يعيش في بلاء من. كمرض أو فقر، أو سجن، أو ظلم، وهؤلاء يعشيون بنفسية معينة، وعقلهم، وفكرهم دائما يعيش في مشكلتهم، ويحاول أن يقارب بينهم وبين غيرهم من الناس، وخطيب هؤلاء يجب أن يلحظ وضعهم، فليس الحديث للمسجونين والمرضى كالحديث للأحرار الأصحاء، ولن يكون الكلام للغني هو القطيعة للفقراء.

الصنف السادس: أهل الضعف كالنساء والأطفال يجب أن يعرفوا واجبهم، وحقهم أن يخاطبوا على قدر مستواهم الذهني والعقلي.

الصنف السابع: غير المسلمين من الناس وهؤلاء قد يكونون أصحاب دين أو مذهب أو لا دين لهم ويسلكون مسلكا فوضويا في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد.

وحيث إن الإسلام دين يجب تبليغه للناس جميعا كان على الخطيب الذي يوجه حديثه إلى غير المسلمين أن يتعب نفسه ويعرف اتجاه مخاطبيه، ولا يتصادم مع عواطفهم، وتقاليدهم ولا ينفرهم منه، وليكن حديثه من باب:

﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ [١].

﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [٢].

---

(١) آل عمران: آية ٦٤ .

(٢) البقرة: آية ١١١ .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [١] .

وهؤلاء لا يفيدهم الاستدلال بالنص، لأنهم لم يؤمنوا، وإنما لابد من الاستدلال لهم بآيات الله في النفس، والكون، والحياة، ويجب أن يعلم الخطيب أن الناس منذ خلقهم الله جبلوا على احترام الذكاء النافع، أو الاخلاص الهادىء ومحبي الخير والسلام، وجبلوا كذلك أن يقبلوا على من يقبل منهم، إن الإقبال على حل مشكلة ما يجعل أصحابها يشاركون في الحل والإقبال [٢] .

واليك أصناف أخرى من الأمة لا ينتفعون بالخطباء:

صنف منهم أخذت الدنيا سمعه، وبصره، وعقله، وأنسته نفسه وأهله وأحبابه، بل وأنسته دينه وربه، وأصبح لا متسع في قلبه لسواها فهو معها كما قال القائل:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وكيف ينتفع مثل هذا الصنف بعلاج الخطيب مهما كان ناجعا ومفيدا؟

وصنف معجب بنفسه لدرجة لا تسمح له بالالتفات إلى إنسان ما فكيف يقبل على الخطيب وينتفع بما يقول، وإنما من يستفيد من الخطيب من يشعر بالنقص، فهو يحرص على سماعه ليستكمل بما سمع منه آداب.

أما مثل المغرور فهو كقول القائل:

فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

ومن لا يسمع من الخطيب أنفة وكبرا كيف ينتفع به؟

وصنف: يدخل المسجد بحكم العادة، وهواه في خارجه فإذا جلس به كان كمن يجلس على جمر، ومثل هذا الصنف يكون شبحه في المسجد، وقلبه في مجالات الحياة الدنيا فهل مثل هذا يسمع صوت الخطيب حتى ينتفع به؟ [٣] .

وصنف: لا ينتفع بالخطباء، لا لأنه يدخل المسجد، ويصلي الجمعة مثلا ولكنه لا يدخل المسجد أصلا ولا يعرفه وهذا الصنف نوعان:

أ ـ نوع لا يصلي أصلا لا جمعة ولا غيرها لغفلة أستحكمت عنده جعلته لا

---

(١) سبأ: آية ٢٤ .

(٢) نقلا عن قواعد الخطابة ص ١٩٠ ـ ١٩٢ .

(٣) منتهى آمال الخطباء. . . ص ٥ .

يقدر ما يترب على ترك الصلاة من عقوبات في الدنيا والآخرة، ولهذا لا يدخل المسجد حتى لا يسمع الخطيب وينتفع به.

ب ـ نوع أطلق على نفسه (المتفرنجين) حينا وحينا آخر اسم (متمدينين) وتارة ثالثة متنورين، وتارة رابعة أهل الثقافة، وخامسة طائفة المثل الأعلى... الخ.

ولقد كثروا اليوم ثم كثروا، وهم كل يوم في ازدياد، وهذا الفريق طريق عدم انتفاعه بالخطيب ليس ترك الصلاة فحسب بل لأنه يرى المساجد، وروادها، بل ويرى الدين جملة من الأضاحيك والخرافات، وأحط مخلوق في نظره من ينطق بلفظ الدين...

وأمثال هؤلاء أشد خطرا على عقول شباب الإسلام وفتياته ورجاله ونسائه، لأنهم لا يعرفون حياء، ولا يقيمون للأخلاق وزنا [1]... فهم مرض عضال يسري في جسم المجتمع فليحذرهم المؤمنون ثم ليحذروهم.

أما باقي الأصناف فهم مقصود الخطيب، وموضع أمله ومحل رجائه، ومكان غرسه لا يلبث أن ينمو ويثمر ثماره النافعة الطيبة، كما أن الخطيب عندهم أحب شخص تقع عليهم أعينهم، وتسمع أذانهم مقاله، ولا يعلم إلا الله قدر نفع الخطيب بهم ونفعهم بالخطيب، ولا يزال هذا الوجود بخير مادام هذا الطراز المهدي فيه [2].

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [3].

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه ص ١٢ .
(٣) محمد: ١٧ .

الحكم والأمثال

لابد لمن يشتغل بالخطابة أن يكون لديه معرفة بالحكم والأمثال العربية يستخدمها عند الحاجة وإليك نماذج من هذه الحكم والأمثال:

١ ـ من حكم أكثم بن صيفي التميمي (١):

مقتل الرجل بين فكيه. إن قول الحق لم يدع لي صديقا.

لم يهلك من مالك ما وعظك.

آفة (٢) الرأي الهوى   رب عجلة تهب ريثا

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع (٤)

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة إذا جهالهم سادوا (٥)

كبر عمرو عن الطوق (٦).

ما يوم حليمة بسر (٧).

---

(١) أكثم بن صيفي من ألمع الخطباء في الجاهلية وتمتاز خطبه بالجزالة والإشراق والزهد في الألفاظ الغريبة.

(٢) الآفة: العيب.

(٣) الريث: البطء.

(٤) اللغة: تقنع: ترضى والقناعة الرضا بالقسم. المعنى: النفس تنطبع على ما يعودها صاحبها فإن أرخى لها زمام الرغائب أشرأبت وطمعت وإن أرادها على القناعة قنعت ومن هذا أخذ البوصيري بيته «والنفس كالطفل الخ».

(٥) المعنى: لن يستقيم حال الناس إلا إذا تولى أمورهم أهل الرأي فيهم فأن تغلب الجهال عليهم عم الفساد وغمر البلاد.

(٦) اللغة: الطوق: قلادة تطوق بها عنق الطفل وتعلق بها الرقى والتعاويذ. مورد المثل: قال ذلك حذيفة الأوس ملك الحيرة حينما رأى ابن أخته عمرو بن عدي يتقلد الطوق في عنقه وقد كبر وجاوز السن التي تلبس فيها القلادة.

مضرب المثل: يضرب في الشيء الذي فات وذهبت مناسبته. راجع صور من صور االأدب والأدباء في شتى العصور للأستاذ سليمان الأغاني ص ٢٣ .

(٧) اللغة: يوم حليمة يوم انتصر فيه الغساسنة على المناذرة وحليمة هي ابنة الحارث بن أبي شمر.

مورد المثل: وجه الحارث بن أبي شمر جيشا إلى المنذر بن ماء السماء وهزمه ولما عاد جنده ظافرين هرعت حليمة فضمخت الجنود بالطيب فقيل هذا المثل.

مضرب المثل: يضرب المثل في كل أمر مشهور متعالم.

رمتني بدائها وانسلت [١] .

لا ناقتي في هذا ولا جملي [٢] .

مفاخرات العرب..ومنافراتهم:

درج العرب على حب الفـخر، والإعتزاز به، والسعي إليـه وكان هذا دأبهم في الجاهلية.

أما الفخر فهو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الأشياء.

وفي القاموس: الفخر والفخار والفخارة بفـتح الفاء: التمدح بالخصال كالافتخار، وتفاخر القوم: فخر بعضهم على بعض. .

وحقيقة الفخر عند من ينظر إليـه بعيني رأسه: نهاية الحمق، وكشف قناع الجهل. ولما جاء الإسـلام أبطله، ونهى عن تعاطيه بالكليـة وجعل التفاضل بين الناس بالـتقوى والعمل الصالح، فإن أعراض الدّنيا عارية مستردة لا يُؤمن متى ترجع. .

قال بعض الحكماء لمثر يفتخر بثرائه:

إن افتخـرت بفرسك فالحسن والفـراهة له دونك، وإن افتخرت بآبائك فـالفضل فيهم لا فيك، ولو تكلمت هذه الأشياء لقالت: هذه محاسننا فمالك من الحسن؟

وأيضا، فالأعراض الدنيوية سـحابة صيف عن قليل تقشع، وظل زائل عن قليل يضمحل، كما قال الشاعر:

إنما الدنيا كرؤيا فرّحت   من رآها ساعة ثم انقضت [٣] .

بل كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾ [٤] .

---

(١) اللغة: الداء: العيب، أنسلت: تسربت وتسللت.
مورد المثل: كان في ابنة الخزرج عيب رمت به ضرتها، فقالت الضرة: هذا المثل.
مضرب المثل: يضرب لمن يعير غيره بعيب هو فيه.

(٢) مورد المثل: أصله أن الحارث بن عيـاد قد أعتزل حرب البسوس حين قتل جسـاس بن مرة كليبا وهاجت الحرب بين الفريقين وقال هذا المثل:
مضـرب المثل: يضـرب عند التبـري من الظلم والإساءة أو في اعـتزال الشيء لا يكون من ورائـه سوى الضرر، المرجع السابق.

(٣) بلوغ الأرب: ١ / ٢٧٨، وراجع الخطابة وإعداد الخطيب ص ٣٧٠ .

(٤) يونس: ٢٤ .

فإن افتخرت بمعرفة غير خارجة عنك، وإذا أعجبك من الدنيا شيء، فاذكر فناءك وبقاءه، أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعا، فإذا أرابك ما هو لك، فانظر إلى قرب خروجه من يديك، وبعد رجوعه إليك، وطول حسابك عليه، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر.

وقد ذم الله تعالى الفخور بقوله:﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) .

تفاخر حيان من قريش:بنو عدنان، وبنو سهم، وتكاثروا بالسيادة والإشراف فقال كل حي منهم:

نحن أكثر سيدا، وأعظم رجالا، وأكثر قائدا، فإن التكاثر:التفاعل بين اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه أنا أكثر منك مالا وأعزُّ نفرا، فكثر بنو عبد مناف بني سهم، ثم تكاثروا بالأموات. . ، فنزل قول الله تعالى:
﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ (٢) .

وانطلق حيان يتفاخران فلم يقصرا تفاخرهما بالآحياء، بل قالوا:انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول:فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله عز وجل:
﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ..

وهو ردع لهم وزجر لكل من يتشبه بهم، على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة وفيه وعيد شديد.

وفي ذلك دليل على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة ينبغي أن ينتبه لها مسلمو اليوم فهم يعيشون في نور القرآن، ونور النبوة الهادية،

أما العرب في جاهليتهم، فلم يكن لهم من يردعهم، ويكفيهم عن سفاسف الأمور وذميم الأخلاق، فإنهم كانوا في زمان فترة من الرسل والأنبياء، فلم يكن لهم وقوف على غايات الأمور، والعواقب المحمودة، وما يترتب عليه الثواب والعقاب من الفعل الحسن والقبيح (٣) .

---

(١) الحديد:٢٣ .
(٢) التكاثر:١،٢ .
(٣) بلوغ الأرب:١ / ٢٧٨ .

وكان غالب مفاخراتهم ومنافراتهم: بالشجاعة والكرم والوفاء.. الخ.

أما مفاخرات الناس اليوم فأهمها المنصب والجاه، والقرب والمصاهرة من فلان.. الخ ومن مفاخرات العرب، ومنافراتهم:

قول الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان: هلم أفاخرك، وهما عند هشام بن عبد الملك.

فقال له خالد: قل، فقال الأبرش: لنا ربع البيت يريد الركن اليماني، ومناحاتم طيئ، ومنا المهلب ابن أبي صفرة.

قال خالد بن صفوان: منا النبي المرسل، وفينا الكتاب المنزل، ولنا الخليفة المؤمل.

قال الأبرش: لا فاخرت مضريا بعدك [(١)].

مفاخرة بين الأوس والخزرج:

تفاخرت الأوس والخزرج فقالت الأوس:

منا غسيل الملائكة: حنظلة بن الراهب، ومنا عاصم بن الأفلح الذي حمت لحمه الدبر [(٢)]، ومنا ذو الشهادتين: خزيمة بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش: سعد بن معاذ.

قالت الخزرج: منا أربعة قرءوا القرآن على عهد رسول الله لم يقرأه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب سيد القراء، ومنا الذي أيده الله بروح القدس في شعره: حسان بن ثابت [(٣)].

المنافرة التي وقعت بين عبد مناف وأمية عبد شمس

وكانت سبب العداوة بينهما:

كان هاشم بن عبد مناف أحد أجداد النبي ﷺ قد تولى أمر مكة بعد أبيه وساد قومه بما كان عليه من محاسن الأخلاق، وجليل الشيم، وكمال الشجاعة ووافر الكرم، وغاية الفصاحة وغير ذلك من الصفات الفاضلة التي لم يطاوله بها أحد، وهو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وهو الذي

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) جماعة النحل والزنابير.

(٣) بلوغ الأرب: ١ / ٢٧٨ .

كان يقـوم بأمر الناس في السنين المقـحطة، ويطعمـهم أحسن الطعام، ولـذلك لهجت ألسنة العرب على اختلافهم في القبائل بالثناء عليه، فعند ذلك حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف حيث عجز عن محـاكاته في صنيعه، ومباراته في شيمه حتى شمت به أناس كثيرون من قريش. . .

ونشبت العداوة بين أمية وهاشم، وأراد منافرته فكره هاشم ذلك لِسنِّه، وقدره، فلم تدعه قريش حـتى نافره إلى الكاهن الخزاعي في خمسين ناقة سـود الحدق ينحرها ببطن مكة، والجلاء من مكة عـشر سنين فخرج كل منهمـا في نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم:

والقـمر البـاهر، والكوكب الزاهر، والغـمام الماطر، ومـا بالجو من طائر، ومـا اهتدى بعلم سافر، من منـجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المفـاخر، فنفر الخزاعي هاشما، وقال لأمية:

تفاخر رجلا هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأحسن منك وسامة وأقل منك لامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل منك صفرا؟[١] فقال أمية:

من انتكاث الزمان أن جعلنـاك حكما، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعـمها من حضره، وخرج أميـة إلى الشام غاضبا فأقام بها عـشرا، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية[٢] .

أرأيت نتيجة المنافرة؟ إنها القطيعة والمخاصمة.

فلا غرو أن ذمـها الإسلام وذم من يتمـسك بها ﴿وَالـــلَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ..

(١) عطاء.
(٢) المرجع نفسه (١ / ٣٠٧).

أثر الحضارة في الخطابة

الحضارة كلمة فيها جاذبية ومعنى رفيع إلى الحياة السامية، تتمناها الشعوب والأمم، لأنها عنوان الرقي الإنساني فتفخر بها كل أمة وتعتز بها وتتمسك، ومع أن العرب لم يسمعوا عن هذه الحضارة، ولم يعيروها سمعهم، ولم تهبط في بلادهم إلا أنها أخذت تغذو نفوسهم فاجتمعت فيهم قوة البدوي ونخوته، وبعض دماثة الحضري ورقته، فأكسبتهم تلك الحضارة سهولة في التغيير لم تكن فيهم. إذ هذبت من طباعهم، وقللت من جفوتهم وخشونتهم كما أكسبهم اختلاطهم بالأمم الأخرى، معرفة كثيرة بأحوال النفوس، وهم ذووا الذكاء الفطري والفراسة القوية، فاستخدموا كل ذلك في خطبهم، ويرجع الفضل كل الفضل إلى القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي أنزله الله جلت قدرته كتاب هدى ونور، ليعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ولم ينزله قانونًا دينويًا جافًا كقوانين الحكام... تدبر هذه الآية الكريمة التي تدبرها سلفنا الصالح واهتدوا بها فأنجز الله لهم ما وعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[١] وقوله سبحانه:

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

هذه الوعود التي أعطاها الله للعرب كانت وهم حال قلتهم، وضعفهم وفقرهم وبعدهم عن الملك والسلطان وأنجز لهم ما وعدهم، لأنهم اهتدوا بالقرآن، ومما لا ريب فيه أن العرب اليوم إذا عادوا إلى القرآن حقيقة عاد إليهم وعد الله بالنصر والتأييد، لقد هدى الله بهذا القرآن العرب، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم فكانوا به أئمة، قهروا أعظم دول الأرض من فرس وروم أما دولة الفرس فمحوها من لوح الوجود بهدم سلطانه، وإسلام شعبها، وأما دولة الروم فسلبوها ما كان خاضعًا لسلطانها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ... لقد حاربوا شعوبًا كثيرة - على قلتهم - كانت أقوى منهم عددًا وعدة قاتلوها في عقر دارها وهم بعد بعداء عن بلادهم ومقر خلافتهم، لقد امتازوا وفاضلوا أعداءهم بشيء واحد هو صلاح أرواحهم الذي تبعه

(١) النور آية: ٥٥.

(٢) آل عمران آية ١٣٩.

صلاح أعـمالهم، فاستطاعـوا فتح بعض بلاد أوربه وألفوا فـيه دولة عربيـة كانت زينة الأرض في العلوم والفنون والحضارة والعمـران «الأندلس»، والروح البشري أعظم قوى الأرض سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [١].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]، كان أرقى حكام الفرس والروم وغيرهم علمًا وفنًا وأدبًا وسـياسة يفسد في الأرض، ويعبث بالمال والعرض، أو كما قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[٣].

كـان المسلم العـربـي يتـولى حكم ولاية، وهو لا علم عنـده بشيء من قـوانين الحكومات، ولا أسـاليب السياسة ولا طرق الإدارة، وإنما كـل ما عنده من العلم بعض سور القرآن فيـصلح من تلك الولاية فسادها، ويحفظ أنفسها وأموالـها وأعراضها، ولا يستأثر بشيء من حقـوقها. . ومن ثم ينبغي على الجنس البشري أن يصلح فـساد نفسه وروحه بـالقرآن لأنه إذا صلحت النفس البـشريـة أصلحت كل شيء تأخذ به وتتـولى أمره، فالإنسـان سيد هذه الأرض وصلاحـهـا وفسادها منوط بصلاحه وفـساده. . . لقد صلحت أنفس العرب بالقرآن إذا كانوا يتلونـه حق تلاوته في صلواتهم وتهجدهم فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها، وهذب أخلاقها وأعلى هممها وأرشدها إلى تسخير هذا الكون الأرضي كله لها.

قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب :

«إن ملكة الفنون لا تـستـحكم في أمـة من الأمم إلا في ثلاثـة أجيـال : جـيل التقليد، وجيل الخضـرمة، وجيل الاستقلال، وشذ العرب وحدهم فـاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد»[٤].

---

(١) البقرة آية ٢٩ .

(٢) الجاثية آية : ١٣ .

(٣) البقرة آية : ٢٠٥ .

(٤) راجع للشيخ رشيد رضا : تفسير المنار : ١ / ٦ ، ٧ .

سبب شيوع الخطابة وتطورها :

يرجع شيوع الخطابة واتساع ميادينها إلى تكوين الحكومة الإسلامية فاتسعت موضوعاتها، فهي أداة اتصال الحاكمين والمحكومين في خطبهم، والاتصال بالولاة في الأقاليم البعيدة، كذلك أخذ الوعظ الديني مكانه في الصدارة، لأن الدين هو أساس وحدتهم وجامع كلمتهم وتكون دولتهم ولذلك كان له الاعتبار الأول وقد حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعله قوام هذه الأمة، ومناط عزها وطريق ارتقائها[١] قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٢].

وقد كانت الخطبة فرضًا في الجمعة لذلك الغرض، فكان للخطابة من ذلك المبدأ الديني السامي مبدأ التواصي بالحق والتناهي عن الشر : ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣].

قال الإمام الشافعي ﷺ : «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم».

وعن شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده»**[٤]. فتمسك الخطباء بكتاب ربهم ودستور دعوتهم، لابد أن يكتب لهم الفوز وللخطابة النجاح والتطور.

---

(١) الخطابة بتصرف واختصار .
(٢) آل عمران آية ١١٠ .
(٣) سورة العصر .
(٤) رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد.

خطب النكاح

هي الخطب التي تلقى في مناسبات الزواج وعقد النكاح، وجرت العادة منذ القديم أن يرد أحد أقرباء العروس على الخطيب بكلمة موجزة تعرف بالمجاوبة. وهذا النوع قديم قدم وصول الإنسان إلى تنظيم الزواج بالعقد، لأن العاقد هو الذي كان يخطب في مناسبة الزواج مبينًا للمستمعين قيمة الزواج وأهيمته.

وتتميز خطب الزواج بما يلي :

(١) جلوس الخطيب بين الناس: لأن المناسبة لا تكرر في مكان واحد يقول الهيثم ابن عدي: «إن الخطباء لم يكن يخطبون جلوسًا إلا في خطبة النكاح».

(٢) التزم الافتتاح الديني : فيبدأ الخطيب فيها بالحمد لله والتشهد.

(٣) مدح العروسين وتهنئتهم : حيث إن المناسبة معقودة لهما ومن أجلهما فلزم مدحهما وتهنئتهما، وبيان مزاياهما والتوافق المنشود بينهم.

(٤) بيان فائدة النكاح : وهذه الفائدة عنصر هام يتجه به إلى العروسين، وإلى المستمعين تشجيعًا لهم على الزواج كسبًا لفوائده، وقد كان لبعض الخطباء عبارات ثابتة يكررونها عند كل زواج، وتكون خطبة موجزة[١] .

وإليك نماذج من خطب الزواج، ، ونصيحة، ووصية :

(١) خطب الحسن البصري ﷺ فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

أما بعد : فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأسباب المتفرقة ـ الأنساب المتفرقة في رواية ـ وجعل ذلك في سنة من دينه، ومنهاج واضح من أمره، وقد خطب إليكم فلان وعليه من الله نعمة، وهو يبذل من الصداق كذا، فتخيروا خيرًا وردوا خيرًا يرحمكم الله[٢] .

(٢) حضر المأمون إملاكًا[٣] وهو أمير فسأله بعض من حضر أن يخطب فقال:

المحمود الله والمصطفى رسول الله ﷺ وخير ما عمل به كتاب الله قال تعالى :

---

(١) انظر قواعد الخطابة ص ١٣٩ وما بعدها.

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار : ٣ / ٧٣ .

(٣) الأملاك : التزوج وعقد النكاح.

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ ولم يكن في المناكحة آية منزلة ولا سنة متبعة إلا ما جعل الله في ذلك من تآلف البعيد وبر القريب وليسارع إليها الموفق ويبادر إليها العاقل اللبيب، وفلان من قد عرفتموه في نسب لم تجهلوه خطب إليكم فلانة فتاكم وقد بذل لها من الصداق كذا فشفعوا شافعنا وانكحوا خاطبنا وقولوا خيرًا تحمدوا عليه وتؤجروا أقول قولي وأستغفر الله لي[1] ولكم.

نصيحة :

قال أبو الأسود لابنته : إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب وأطيب الطيب إسباغ الوضوء وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين :

خذي العفو[2] مني تستديمي مودتي	**ولا تنطقي في سورتي حين أغضب**
ولا تنقريني نقرك الدف مرة	**فإنك لا تدرين أين المغيب**
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى	**ويأباك قلبي والقلوب تقلب**
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى	**إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب**

وصية * :

أوصت أعرابية ابنتها ليلة عرسها فقالت:

أي بنية: إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبدًا، واحفظي له خصالاً عشرًا يكن[3] لك ذخرًا:

أما الأولي والثانية : فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

أما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح[4].

---

(١) عيون الأخبار : ٤ / ٧٥ .

(٢) العفو : الفضل الذي لا عسر في عطائه.

* قالتها : امرأة عوف بن مُحلِّم الشيباني لابنتها وهي مرتحلة إلى بيت زوجها.

(٣) تكن هذه الخصال ذخيرة لك عنده، يذكرك بها وتحفظ مكانتك في نفسه.

(٤) تأمرها بالتزين له والطيب . .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة:فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير وفي العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمرًا، ولا تفشين له سرًا فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مغتمًا، والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا.

فأنت ترى في هذه الوصية أنها وصية جامعة تجد في كل جملة منها نصيحة غالية، مع أنها من امرأة عربية جاهلية لم تدخل دور التعليم، ولكن الحياة جعلت منها قدوة يتعلم منها المتعلمون، إنها تسوق لابنتها خلاصة تجربة امرأة عاقلة، جمعت بين وصايا مادية وأخرى معنوية، ولا يوصي علم النفس والتربية الحديثة بأكثر من هذا. ومن جمعت هذه الخصال العشر كانت خليقة أن تنال محبة زوجها وكانت له نعم القرين[١] .

من فكاهات خطبة الزواج :

جاءت فكاهات طريفة في كتب الأدب، حدثت في خطب الأملاك، قد يكون منشؤها العي والحصر، وقد يكون منشؤها الميل إلى الدعابة، وإشاعة السرور، وهذه الدعابات لا تكون إلا في الحفلات التي يحضرها كبار الناس.

من ذلك ما رووا أن خطيبًا حضر عقد قران فاستفتح خطبته بحمد الله والصلاة على نبيه، ثم ذكر بدء الخليقة وخلق السموات والأرض، ومضى يسرد أخبار القرون الماضية، والأمم البائدة حتى ضجر الناس وهو لا يشعر، فلما فرغ من خطبته أراد أن يذكر اسم الخاطب فسأله عنه فأجاب: قد والله نسيت اسمي من طول خطبتك، وهي والله طالق إن تزوجتها بهذه الخطبة.

فضحك القوم وهيأوا مجلسًا آخر ليعقدوا له فيه بغير هذه الخطبة[٢] .

كما ورد أن شابًا طلب من أحد الشيوخ أن يخطب له بنت صديق له، فقال الرجل: إذا كنتُ في مجلسهم فأت إلينا، فلما رآه الشاب معهم اتجه إليهم، فقال

(١) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٢) نقلاً عن الخطابة وإعداد الخطيب ص ١١٧ .

الشيخ: انظروا إلى هذا الشاب القادم: ما أحسن والله ما مشى لا أسرع ولا أبطأ فلما جاء وسلم عليهم قال: ما أحسن والله ما سلم لا أطال ولا اختصر، ثم جلس فقال الرجل: ما أحسن والله ما جلس لا دنا ولا أبعد، ثم تكلم، فقال: ما أحسن والله ما نطق لا رفع صوته ولا خفضه، ثم ضرط، فقال الرجل: ما أحسن والله ما ضرط لا أغنها، ولا أرنها، فضحك القوم وقالوا: حسبك والله لو سلح لزوجناه[1].

ثم بعد هذه نطل إطلالة سريعة لمعرفة شأن الخطابة في العصر الجاهلي، ثم العصر الإسلامي لنعرف دور الخطابة في هذين العصرين إضافة لما سبق.

* * *

قال أبو كعب: سمعت عطاء السُلَمِيّ يقول:

اللهم ارحم غربتي في الدنيا، ومصرعي عند الموت، ووحْدتي في القبور، ومُقامي بين يديك.

ومن جامع الدعاء: اللهم أغنني بالعلم وزيِّني بالحلم، وجملني بالعافية، وأكرمني بالتقوى.

كان من دعاء أبي المجيب:

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجِز، ولا إلى الناس فنضيع، اللهم اجعل خير عملي ما قارب أجلي.

عيون الأخبار لابن قتيبة كتاب الزهد.

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق.

الخطابة في العصر الجاهلي

مقدمة:

كان للعرب في الجاهلية خطب قوية اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة.. وإذا كان أغلب هذه الخطب قد ذهب مع الزمن إلا أن التاريخ حفظ لنا بعضا منها كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبق من خطبهم شيء.

ويرجع سبب انتشار الخطابة في ذلك العصر إلى ما يلي:

(١) الحرية التي كان يتمتع بها العربي.

(٢) المقدرة القوية في استعمال مفردات اللغة وأساليبها.

(٣) براعة اللغة في نغمها الذي يثير عاطفة المتكلم والسامع على حد سواء.

(٤) مقدرتهم على الارتجال في المواقف الصعبة التي كانوا يتعرضون لها، فتأتي على ألسنتهم العبارات البليغة، والحِكم الصائبة قال الجاحظ في البيان والتبيين عن العربي:

«فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي يقصد فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا» [(١)].

ميادين الخطب في ذلك العصر:

(١) الاجتماع والتشاور في أمر من أمورهم كالقيام بحرب أو اصلاح بين متنازعين.

(٢) الوصايا والنصائح التي كان يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم.

(٣) الأسواق التي كانت تقام بينهم بسبب المنافرات والمفاخرات، وكانت هذه الأسواق تظهر قوة البديهة لديهم، والقدرة على الارتجال.

(٤) اتسمت هذه الوصايا بقصر الجمل، وسداد الحكم، كما خلت من المعاني الفلسفية والجدل العقيم، وتتعاقب الأجيال، ولا غنى لجيل عن خطب العرب، وآرائهم وحِكمهم، وأدعيتهم ومحادثاتهم ووصاياهم مما يستعين بها المشتغلون باللغة، كما يستعين بها الخطيب الحديث في خطبه.

---

(١) انظر الخطابة واعداد الخطيب ص ١٦٤ .

وأرسالا أي جماعات، وتنثال أي تسيل وتتوالى.

البيئة العربية وأثرها في الخطابة

كل ظاهرة في الأمة ترجع إلى عاملين: عنصرها، والبيئة التي أظلتها.

بيئة العربي: بيئة صحرواية جرداء، يندر فيها النبات والماء وتكثر الجبال والوهاد والرمال، فكانت حياة العربي قليلة الزاد فرضوا بالقناعة، ولعدم المواصلات.. كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها تخضع لزعيمها الذي كان يشتهر بينهم بقوة العقل، وأشدهم في الهجاء بطشا، وكان التنازع بينهم على مواطن المطر والكلأ، أما أطراف البلاد العربية كالحيرة واليمن، والعرب القاطنين في الشام فكان فيها خصب عظيم ولذا تكونت بها حكومات قبيل الإسلام، وكانت واقعة تحت سلطان فارس والروم وهذا الخضوع لا يقبله العربي. أما مكة المكرمة فالخصب من حولها قليل، لكن الخيرات والثمار كانت تفد إليها مع الحجيج، ولوقوعها في الطريق الموصل بين اليمن والشام والتجار قريش، كان بها شبه الحكومة: الرياسة فيها لأكبر بيت في قريش، وكان بمكة دار ندوة يجتمع فيها زعماء العرب وأقيالهم من كل نواحي البلاد [1].

كان من صفة العربي أنه عصبي يثور لأتفه الأسباب.. ويحمل السيف ليذود عن عرضه وولده لا يقبل الذل أو الضيم، جواد كريم، يؤثر على نفسه، يحافظ على حرمة الجار، يفي بعهده حتى قال بعض الفرنجة: إنه نبيل بفطرته، وقد مكنته صحراؤه، وضعف السلطان فيها، من أن يعيش عيشة فروسية، اعتماده في الحماية على سيفه لا على حكومة تحميه، ولا دولة ترعاه، وقد كان فيه بعض المساوىء، سببها له جهله وأميته، أو فقره، كقتل الأولاد خشية الاملاق، والحاجة..

هذا هو العربي، وتلك حياته وبيئته، وهي لا شك حافزة إلى الخطابة مستثيرة للبيان والروائع..

فالتنازع المستمر، والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء، تستدعى بيانا يثير الحمية، ويقوي العزائم ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف، وملتقى الحتوف، ولا شيء يقوى روح المحارب أكثر من قول حافز وعبارات تهز أوتار القلوب.

---

(١) راجع للمؤلف: فجر الدعوة الإسلامية الفصل الأول: الحكومة المكية التي تكونت عصر النبوة ص ٢٤ .

انظر إلى كلمة هانيء بن قبيص قبيل موقعة ذي قار (*):

«يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجى من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية خير من الدنية واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في ثغر النحور أكرم منه في الادبار والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما من المنايا بد . . الخ».

انظر إلى هذه الكلمة كيف دفعت العرب إلى لقاء جنود فارسية وكان لهم عليها الغلب . !

كذلك مجالس الصلح التي كانت تقام بين القبائل لابد لها من الخطباء كأداة للترغيب، والترهيب، ومع توزع العرب في الصحراء كانوا أمة واحدة قال فيهم الجاحظ: العرب كلهم شيء واحد، لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق، وفي الأعراق، ومن جهة الخئولة والعمومة المشتبكة . . . . فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل . . .

والخلاصة: إن حياة العربي في الصحراء كانت حياة فروسية، وقوة شكيمة دفعت إلى البيان الذي كان له تأثير في الخطابة ويغلب تأثيرها في أبناء عصور الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية - ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه، لأن كليهما أهل شعر وخطابة، وأهل إباء واستقلال، ولذلك أيضًا كانت الخطابة رائجة عند الرومان، مع تأخر الشعر عندهم، أما العرب فقد قضى عليهم الأقليم بالحرية والحماسة، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم، فالعبارة البليغة تقيمهم وتقعدهم، بما تثيره في خواطرهم من النخوة [1].

وقد كان من أهم الموضوعات التي دفعتهم إلى القول دفعًا هي: إثارة المحبة وإيقاظ الحماسة، وتثبيت القلوب والصلح، والمفاخرة والمنافرة والدعوة إلى الفضيلة ونبذ الخرافات والدعوة إلى الوحدة العربية، والرثاء والعزاء، والوصايا، وخطب الزواج . . . إلخ.

---

* كانت بين العرب والفرس انتصر فيها العرب انتصارًا خاسمًا سنة ٦١٠ م.

(١) الخطابة ص ٢٢١ وما بعدها .

مكانة العرب الخطابية :

يعد كثير من الأدباء العرب في المرتبة الأولى من البيان، والمنزلة السامية في الخطابة، وقد ذكر ذلك أبو حيان في مقابساته، إذ قال حاكيًا عن أبي سليمان:

سمعته يقول: نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، ويدي الصين.

فنرى من هذا أنه ثبت للعرب أن الحكمة كانت تجري على ألسنتهم، وأنهم موصوفون بحدة الذهن والبديهة الحاضرة، وأن المعنى الجيد يسارع إلى خواطرهم كالوحي، والإشارة السريعة، لجودة قريحتهم، وكل تلك الصفات تضعهم في المرتبة الأولى من الخطابة [1].

يقول الجاحظ: وجملة القول : أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، وأما الهند فإنما لهم معان مدونة، وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف وإنما هي كتب متوارثة. . ، ولليونان فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق نفسه بكي اللسان، غير موصوف بالبيان. . و. . يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة. . . كل شيء للعرب فإنما هو بديهة، وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام [2].

وفي الحق أن الخطيب العربي يعد في الطبقة الأولى بين خطباء الأمم وأن الخطابة العربية في العصر الجاهلي كانت حية ناهضة، لتوافر الدواعي إليها، ووجود ذوي اللسن والبيان، وأولئك كانوا كثيرين.

خطباء العرب في الجاهلية والمأثور من خطبهم :

كثر خطباء العرب في الجاهلية وكان من أقدمهم كعب بن لؤي الجد السابع لرسول الله ﷺ كان يخطب العرب عامة ويحض على البر. . ولما مات أكبروا موته، وأرخوا به حتى عام الفيل.

ومن خطباء العرب في الجاهلية عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وأبو طالب عمه، وقس بن ساعدة الأيادي خطيب عكاظ وداعي العرب إلى التوحيد، ومنهم

---

(١) الخطابة ص ٢٢٦ وما بعدها بتصرف واختصار.

(٢) البيان والتبيين.

عطارد بن حاجب بن زرارة، وقد أدرك النبي ﷺ وخطب بين يديه.

أما لماذا حفظ الشعر، ولم يحفظ النثر فيرجع إلى أمور منها :

(١) كان الشعر سائغًا في الحواضر والبوادي بين العامة والخاصة وسهولة حفظه.

(٢) أما الخطب فكان يلقيها العظماء الفصحاء وكانوا مختصين بالمواقف العظيمة التي لا يحضرها إلا الخاصة مثل سادات العرب ورؤساؤهم.

(٣) كان ما يلقى على العامة تتبادله الألسنة ويشيع، أما ما يلقى على الخاصة فغير شائع، ولا معروف ولا تتناقله الرواة، ويرجع ذلك إلى:

أ- أمية العرب فلم يكونوا يكتبون على الرقوق، أو ينقشون على الأحجار كالأمم ذات الحضارات، ولو فعلوا لخلدوا خطبهم ومحاوراتهم التي اشتملت على القول البليغ والبيان الآخذ بالألباب.

ب- الشعر سهل الحفظ، والنثر صعب حفظه، إذ الوزن في الأول جعل الآذان تنشط لسماعه، والقلوب تميل إلى حفظه، ومهما يكن فما بقي من النثر يعطينا صورة للخطابة في الجاهلية .

نموذج من الخطابة في العصر الجاهلي :

خطبة أبي طالب في زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها قال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا، وبيتًا محجوجًا وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به، بركة وفضلاً وعدلاً ومجدًا ونبلاً، وإن كان في المال قل فالمال ظل زائل، وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك وما أردتم من الصداق فعلي [(١)].

خطبة المأمون الحارثي في نادي قومه :

قعد المأمون في نادي قومه فنظر إلى السماء، والنجوم ثم فكر طويلاً ثم قال:

أرعوني أسماعكم، وأصغوا إليَّ قلوبكم، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد،

---

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام : ١ / ٢٠٤ هامش .

طمح[١] بالأهواء الأشر، وران[٢] على القلوب الكدر، وطخطخ[٣] الجهل النظر إن فيما نرى لمعتبرًا لمن اعتبر، أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب، وقمر تطلعه النجوم، وتمحقه أدبار الشهور، وعاجز مثر، وحُوَّل[٤] مُكْدٍ، وشاب مختضر[٥]، ويَفَنٌ قد غبر[٦]، وراحلون لا يؤوبون، وموقوفون لا يفَرطون[٧]، ومطر يرسل بقدر فيحي البشر، ويورق الشجر، ويطلع الثمر، وينبت الزَّهر وماء يتفجر من الصخر الأيسر[٨]، فيصدع المدر عن أفنان الخضر[٩]، فيحي الأنام، ويشبع السَّوَام، وينمي الأنعام، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر البارئ المصوِّر.

يا أيها العقول النافرة، والقلوب النائرة[١٠]؛ أنى تؤفكون وعن أي سبيل تعمهون، وفي أي حيرة تهيمون، وإلى أي غاية توفضون[١١] لو كشفت الأغطية عن القلوب، وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة.

---

(١) اللغة : طمح : ارتفع وعلا.

(٢) ران : غلب.

(٣) طخطخ : أظلم .

(٤) الحُوَّل : الشديد الحيلة المتصرف.

(٥) المختضر : الذي يموت حدثًا، وهو مأخوذ من الخضرة كأنه حصد أخضر.

(٦) اليَفنَ : الشيخ الكبير .

(٧) يفرطون : يقدمون .

(٨) الحجر الأيسر على مثال الأصم: الصلب.

(٩) أفنان : ج فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة وفي التنزيل العزيز ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ الرحمن. : ٤٨

(١٠) النائرة : النافرة.

(١١) توفضون: تسرعون. قال عز وجل ﴿كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ فأما يفيضون: فيدفعون. يقال: أفاض من عرفة إلى منى أي: دفع. راجع لأبي علي القالي: كتاب الأمالي : / ٢٧٣ ط دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م.

المعنى : أن الخطيب ينادي على قومه أن يسمعوه بآذانهم وعقولهم لينتفعوا بما يقول، ثم لفت نظرهم وعقولهم لما هو مشاهد من شموس وأقمار، وأرض وسماء، وفي هذا كله عبرة لمن اعتبر، ثم أخبرهم أنه كما يموت الشيخ الكبير يموت الصغير الحدث.. ثم بين لهم هذه الحقيقة وهي: أن الأغطية التي رانت على القلوب لو كشفت لظهر الشك من اليقين، وشفيت النفوس من الجهالة والضلالة. ثم وصل بهم إلى أن مرجع هذا كله إلى البارئ المصور وهو الله الخالق سبحانه وتعالى.

الخطابة في صدر الإسلام

مقدمة:

كان لظهور الإسلام والدعوة لمبادئه أمرًا خطيرًا في حياة العرب لم يقف أثره عند هدم عبادة الأوثان، وإخلاص العبادة لله وحده، بل غير عادتهم ونظام حياتهم بما فرض عليهم من سلوك معين، وبما حرم عليهم من عادات ألفوها ومرنوا عليها سنين طويلة مثل :

أ- إلغاء الفوارق بين الناس، والمناداة بالمساواة بينهم في الحقوق العامة.

ب- حرم الخمر، والزنى، وألغى الربا، وجعل المتعامل به في حرب مع الله ورسوله، كما أبطل الثأر، وحل محله القصاص أو الدية أو العفو.

جـ- حرم الهجاء، ونهش الأعراض، وهذه الأمور كان يجول فيها الشعر ويصول، وبتحريمها أفل نجم الشعر وهدأ صوته وقامت الخطابة بعبء تبليغ الرسالة وشرح مبادئ الإسلام، الذي شغل الناس به فكان ذلك سببًا قويًا في نهضة الخطابة وظهور عدد كبير من الخطباء، الذين أثروا اللغة العربية بخطبهم...

د- كذلك جعل الإسلام خطبة الجمعة فرضًا، وهذا يعني أن المسلم يسمع خطبة مرة في كل أسبوع على الأقل، وأن يكون في كل مسجد خطيب يلقي خطبة في كل أسبوع، والخطبة سلاح الداعية المسلم في كل مناسبة، ومن ثم شرعت في العيدين ويوم الحج الأكبر وفي الدعوة إلى الحرب، أو السلم وحفلات الزواج والأعراس، وتولية الحكومات، وولاية العهد [1].

لقد ارتقت الخطابة إلى أوج عزها وتبوأت أريكة مجدها ولقد غزرت المعاني وتشعبت الأغراض وتنوعت الموضوعات وصدرت عن ورد القرآن ومتحت من معين الحديث بأمراس قوية وتأثر بهما تأثرًا قويًا تجلى في ألفاظه وأساليبه وجنحت إلى السهولة والوضوح.

---

(١) كما ظهرت أنواع أخرى من الخطابة استجدت في العصر الحديث مثل: الخطب القضائية والعسكرية، والمحاضرات العلمية، والتأبين، والانتخابات، والنوادي والمؤتمرات السياسية، والاجتماعية، كما وجدت أنواع أخرى من القول مثل: الدروس والمناقشات، والجدل والكتابة. ـ سبق الحديث عنها ـ.

فقد كـان ظهور الإسلام بالدعوة الكبرى من أهم البـواعث التي طفرت بالخطابة إلى المكان المرموقة، وبلغت بها الدرجة المعشوقة، وقد شرَّف النبي ﷺ قدرها باتخاذها سلاحًا له في دعوته، وبما كان يلقيـه من خطب تعد آية في الفصاحة والبـيان، واقتفى أثره الخلفـاء الراشدون وذوائب الإسلام، فـكانوا خطباء مـصاقع يهزون أعـواد المنابر، يلهبون العواطف والمشاعر وكانت الغزوات والفتوحات الإسلامية في مسيس الحاجة إلى الخطباء، يلـهبون الحـماس ويثيـرون الحميـة ويربطون على قلوب الجنود ويرغـبون في التضحية والفداء والتلبية لكل استصراخ أو نداء.

وكانت الأحداث التي ذَرّ قرن فتنها، وأطلت بوجهها العتل الزنيم بعد أن قضى النبي نحبه مثاراً لانتشار الخطابة وأسبابا قويه لازدهارها فقد تنازع المهاجرون والأنصار، وانتـهى باتفاقـهم يوم السـقيـفة على اخـتيـار أبي بكر الصـديق ﷺ وارتد بعض من أسلموا، ونجـمت فتنة أدت إلى اغـتيال سـيدنا عثـمان ونشوب حـرب بين الإمام علي ومعاوية، كما كـانت الخطابة شعارا للمناسبات الدينية لخطبة الجمـعة والعيدين وموسم الحج [١].

وكـان عصـر الرسـول ﷺ كله عصـر جهاد، ودعـوة.. ثم جاء عصـر الخلفاء الراشدين فزاد نشاط الخطابة حتى إذا كان عصـر الدولة الأموية فجمعت بين أهل الشام والجزيرة والعـراق، ثم ظهور الخوارج، وظهـور المطالبين بالخلافـة، أمثال عـبد الله بن الزبير، وأخوه مصعب.. وأخذت الخطابة تصول وتجول.

خطبة أبي بكر

خطب أبو بكر الصديق ﷺ يوم السقيفة [*].

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس نحن المهاجرون [٢] أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً [٣] وأوسطهم

(١) صور من الأدب والأدباء في شتى العصور ص ٤٢ ط الأولى ١٩٦٥.

(*) - يوم السقيفة: يوم اجتماع العرب في سقيـفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول ﷺ للنظر فيمن يخلفه، وقد تنافس المهاجرون والأنصار، وكاد الشر يقع بينهم لولا أن الله جمعهم على أبي بكر ﷺ.

(٢) اللغة: المهاجرون: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة.

(٣) الأحساب: مفاخر الأباء والأجداد.

دارا [١] وأحسنهم [٢] وجوها، وأكثر الناس ولادة [٣] في العرب، وأمسهم رحما [٤] برســــول اللـه ﷺ أسلمنا قبـلكم، وقـدمنا في القـرآن علـيكم فـقـال تبـارك وتعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ[٥] وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، أخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء[٦] وأنصارنا على العـدو آويتم [٧]، وواسيـتم [٨] فجزاكم الله خـيراً، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء لا تديـن[٩] العرب إلا لهذا الحي من قـريش فلا تنفسوا [١٠] على إخوانكم المهـاجرين ما منحهم الله من فضله [١١].

تغير النفس العربية بالإسلام:

جاء الإسلام بشرائعه الحكيمة وأوامره الجليلة، فأصلح الكثير من نفوس العرب، وركز كل فضائله لتربية النفس، وتزكيتـها وجعل الإنسان العربي المسلم صالحا للائتلاف مع غيره، فبعد أن كانت الشجاعة في المبارزة والمفاضلة للمفاخرة صارت في الجهاد في سبيل الله لرفع كلمة الحق سبحانه [١٢]. .

لقد تغلغل الدين في كل شيء في هذا العصر، فصاروا لا يصدرون في عمل إلا عنه، وكانوا كلما جد شأن، أخذوا حكمـه من الدين، إما بنص عليه، وإما بتأويل يرد إليه، وإذا صح قول نابليون: «إن البواعث الدينية والإيثار والتقوى، هي التي يقوم عليها بناء الأمم» . فلن نجد أدل من حال العـرب على صدقها، فإن الدولة الإسلامـية العربية

(١) أوسطهم دارا: كناية عن السيادة.
(٢) أحسنهم وجوها: كناية عن الطهر والسماحة.
(٣) أكثرهم ولادة: كناية عن القوة والمنعة.
(٤) أمسهم رحما: أقربهم قرابة.
(٥) الأنصار: أهل المدينة وسموا بذلك لأنهم نصروا رسول الله ﷺ.
(٦) الفيء: الغنيمة والخراج.
(٧) آويتم: أنزلتمونا بمنازلكم.
(٨) واسيتم: أشركتمونا في أموالكم ورفهتم عنا.
(٩) لا تدين: لا تخضع.
(١٠) لا تنفسوا: لا تحسدوا.
(١١) صور من الأدب والأدباء في شتى العصور ص ٣٧ .
(١٢) الخطابة ص ٢٤٧ وما بعدها باختصار وتصرف.

قامت ببـاعث من الدين الحكيم، وتآلفت بوحي الإيثار الذي أودعـه الله قلوب العرب وحميت بالتقوى والعزيمة.

نموذجان من خطب هذا العصر:

كان أول الدواعي للخطابة في صدر الإسلام الدعوة إلى الله، والرد عليها ممن لا يريدونها، فقد جاء محمدﷺ بالدعوة إلى الله، دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فقام خطيـبا في قوم صناعتـهم البلاغة، فناداهم بأبلغ القول وخـاطبهم بأروع الكلام، وخطب في مجـامعهم مؤيدا رسـالته ناشرا دعايتـه حتى ضاقت صدورهم عـن سماع قوله، بعد أن عجزوا عن مجادلته، ومقارعة الحجة بالحجة، فامتشقوا الحسام، وتكلموا بالسنان بدل اللسـان، فـالخطابة كانت الأداة الأولى للدعـوة الإسـلاميـة، فكانت هذه الدعوة سبـبا في انتشار الخطابة ورفع درجة الـبيان، فكان النبيﷺ يلـقى النـاس في مـواسم الحج وفي المجامع، وفي المنتديات ويدعـوهم إلى الإسـلام انظر إلى خطبتـه الموجزة يوم صدع بأمر ربه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [1].

إذ قال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميـعا ما غررتكم والله الذي لا إله إلا هو إني رسـول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتـموتن كما تنامون، ولتبعـثن كما تستيقظون، ولتـجزون بالإحسان إحـسانـا وبالشر شـرا، وإنهـا للجنة أبدا أو النار أبـدا، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد».

فانظر إلى هذه الكلمات الوجيزة كـيف رتبت واتصلت حلقاتها حتى انتهت إلى الغرض الذي تريد، وليس بها تكرار ولا حشو، بدأت بأن الرائد أيا كان لا يكذب لأنه نفسه مـعروف بالصدق والأمانة، ثم أكـد ثانيا بأنه لو جاز أن يكذب ما كـذب عليهم؛ لأنهم أهله وعشيرته ثم أقسم ليصدقوه أنه مرسل من الله، وهو مرسل لهم خاصة وإلى الناس عامة، ثم أخبرهم عن البعث والحساب بعد الموت، ولابد من الإيمان بهذا لينجوا من عذاب الله تعالى.

---

(١) الشعراء: ٢١٤ .

خطبته ﷺ في حجة الوداع [١]

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير أما بعد:

أيها الناس، اسمعوا مني أبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم [٢]، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا [٣]. ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب [٤]، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ [٥] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، إن الزمان قد استدار

---

(١) تعددت مصادر هذه الخطبة مع اختلافات طفيفة راجع سيرة النبي ﷺ لابن هشام ٣ / ٢١٣، وتاريخ الطبري: ٣ / ١٦٨، والعقد الفريد، والطبقات: ١ / ٢٤ .

(٢) أي حرام عليكم سفك الدماء، واغتصاب الأموال، كما كان يفعل في الجاهلية.

(٣) تأكيد للحرمة.

(٤) كان مسترضعا في بني ليث وقتلته هذيل، وقد أسقط رسول الله ﷺ ثارات الجاهلية، وأسقط المطالبة بثأر عامر، ومعنى وضع الربا أو الدم، أنه لا يطالب به.

(٥) أي التأخير، وقد ترتب على هذا اضطراب الشهور بحيث لا يقطعون حروبهم، ولو كان فيها تقديم وتأخير الشهور عن مكانها، فأخبر ﷺ أنه بمجيئه، عادت الشهور كما أرادها الله والآية من سورة التوبة: ٣٧ . .

كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عـدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خـلق السماوات والأرض[١] منها أربعة حرم: ثلاثة متـواليات، وواحدة فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر[٢]، الذي بين جمادى، وشعبان.

ألا هل بلغت؟ اللهم فأشهد.

أيها الناس: إن لكم على نسائكم حقـا ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فـإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهـن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح[٣]، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف[٤]، وإنما النسـاء عـندكم عـوان[٥] لا يملكن لأنفسـهن شيئًا أخـذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مـسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.

ألا هل بلغت؟ أللهم فاشهد.

فلا ترجعن بعـدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فـإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله، وسنتي. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيهـا الناس. إن ربكم واحـد، وإن أباكم واحـد، كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

ليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قـسم لكل وارث نصيبه من الميـراث، فلا يجوز لوارث

---

(١) أي عادت الشهور إلى ترتيبها الطبيعي، فلا تؤخرونها.

(٢) اضيف إليها لأنها كانت تعظمه دون سائر العرب.

(٣) عقوبات أبيحت للزوج طبقا للخطأ الذي ترتكبه الزوجة.

(٤) من غير إرهاق أو مشقة عليكم، أو شدة.

(٥) جمع عانية بمعنى أسيرة، المرأة بخضوعها لزوجـها وإمارته على البيت تشبه الأسيرة، فأوصى رسول الله ﷺ أن نرفق بها.

وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، مـن ادعي لغير أبيه، أو تولى غير مواليـه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل(٢).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

هذه الخطبة الجامـعة ما أحوج المسلمين اليوم إلى فـهمها، والعمل بما فـيها، بل الناس جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها لو نفذوا وصاياها الحكيمة لعاشوا في المجتمع الفاضل الذي تنشده العقول السليمة، وما أجمل الخطباء أن يذكروا بها الناس بين الحين والحين لقد جمعت هذه الخطبـة تعاليم كثيرة وهامة وهي آخر خطبة جـامعة لرسول الله ﷺ ، وتبدو صرامتها في أنه ﷺ طبقها على ذويه قبل أن يطبقها على الآخرين، فبدأ بوضع ربا العباس عمه، وقد ضاع بهذا على العبـاس مال كثير، ولكن حسبه أن كان له رأس ماله، كـما وضع دم ابن عمـه ربيعـة ابن الحرث ـ وكان الحـرث أكثر أبناء عـبد المطلب ـ وكان له بلاء مشهود يوم بدر وكانت الـطريقة الجارية أن يؤخذ بثأره ممن قتله، لكن الإسلام يجبّ ما قبله، لهذا ترك رسول الله هذا الثأر.

وقد آخى النبي ﷺ بين المسلمين وجعل دماءهم متكافئة، ونبههم في هذا إلى أن أصلهم واحد هو آدم، وإنما يتفاضلون بالتقوى لا بالأجناس فـالله جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ولم تغفل الخطبة شأن المرأة ومالها من حقوق وما عليها من واجبات(٣).

في الخطبة مقدمة ليـست هي مجرد الحمد والاستشهاد، ولكنهـا الوصية بالتقوى والعمل الصالح، فـهذا أمر بشيء جامع عـام، وكل ما بينته الخطبة بعـد ذلك فهو من التقـوى والعمل الصالح، ثم كـان موضوع الخطبـة هو التعاليم التي ألقـيت ولم يحتج أكثرها إلى دليل وبرهان، لأنها تعـاليم النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ولكن بعضها ذكر له تعليل عابر لبيان توجيهه.

والخطبة ليست طويلة وليست أيضًا قصيرة إزاء ما جاء بها من تعاليم شرعية وقد

---

(١) إذا ثبت الزنا على المرأة فالولد لزوجهـا ،ويقام عليها الحد، فـإن كان الزوج منكرًا للولد لاعن من أمه، واللعان معروف. راجع سورة «النور».

(٢) أي لا يجوز ذلك أصلاً، وأصل العدل: القصاص وقتل شخص بشخص ،والعدل أن يأخذ دية تعادل ما أصابه.

راجع الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٨٠ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه .

اختلفت رواياتـها في كتب التاريخ والسـير، ولكنها على أطول رواية جاءت بهـا ليست ذات طول، وإنما هي ذات توسط وأدنى إلى القـصر، وهي نموذج من البـلاغة النبـوية الشريفة، كما أنها نموذج من الإصلاح الاجتماعي الشامل، ونموذج من إصلاح الإسلام للبشر؛ لأنها تعكس بوضـوح جوانب من العادات العربية السيئة التي كـانت شائعة قبل الإسلام[1].

فجاء الإسلام وصحح مفاهيم، وعـدل مسار تفكيرهم، حتى نبذوا هذه العادات السيئة فمدحهم رب العالمين بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) آل عمران آية: ١١٠.

الخطابة في العصر الأموي*

تبوأت الخطابة في هذا العهد أريكة مجدها واقتعدت غارب عزتها وبلغت الغاية التي لا غاية وراءها، فقد أتيحت لها أسباب كفلت لها القوة والازدهار أتيحت لها الحرية وقد ضمنها معاوية للناس بقوله:

«إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا» ولقد قامت دولة بني أمية في غمار المنازعات السياسية التي كانت بين الأحزاب من علويين وخوارج وزبيرين وكان لكل منها خطباؤها المصاقع، وقد كان للقرآن الكريم والحديث الشريف أثر جلي في صقل الأذهان وتهذيب البيان، وكان لغرام الأمويين بالأدب الجاهلي واستظهارهم الجم الغفير من شعره ونثره ما فتح أكمام بيانهم وقوى أسلات ألسنتهم.

وكان الخلفاء يرسلون أولادهم إلى البادية ليرتضعوا من أفاويق فصاحتها كما كانوا يدربونهم على الخطابة ومواقفها.

وكان الخلفاء لا يفتأون يرسلون جيوشهم بين أونة وأخرى لفتح الممالك والبلدان وكان لا منتدح عن خطباء مصاقع يثيرون الحماس ويلهبون العزائم ويربطون على القلوب كما كان لاشتعال نار العصبية القبلية أثر قوي في إذكاء الخطابة فقد كان لكل قبيلة خطباؤها الذين ينافحون عنها ومن ثم فقد كانوا يعلمون الناشئة الخطابة ويدربونهم على مواقف الارتجال لذلك ارتقت الخطابة في العهد الأموي وأورفت ظلالها وبلغت ذؤابة الثريا ومناط العيون.

نماذج من الخطابة في العصر الأموي

خطبة معاوية ﷺ في أهل المدينة المنورة:

قدم معاوية ﷺ المدينة المنورة عام المجاعة، فلقيه رجال قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، وأعلى كعبك، فوالله مارد عليهم حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد: فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمر فنفرت من ذلك نفارًا شديدًا وأردتها على سنيات عثمان فأبت عليَّ

* صور من الأدب والأدباء في شتى العصور ص ٥٠ .

فسلكت بها طريقًا لي ولكم فيه منفعة ومؤاكلة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإني خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني، وتحت أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاء يثري، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة [١].

خطبة الحجاج في أهل الكوفة:

تعد هذه الخطبة أشهر خطب الحجاج؛ لأنها أولى خطبه، وهي التي ثبتت مكانته، وبثت مخافته في نفوس العراقيين، وهي في كثير من كتب التاريخ والأدب، كالبيان والتبيين ، والكامل للمبرد.

بينما الناس في المسجد الجامع بالكوفة وأهلها يومئذ في حالة حسنة يخرج الرجل منهم ومعه العشرة والعشرون من مواليه - لثرائهم - إذ أتى آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرًا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتمًا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدًا سيفه، متنكبًا قوسه يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه - أي أرميه بالحصباء - لكم؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه حسر - كشف - اللثام ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحتمل الشر بحمله - أي بثقله - وأحذوه بنعله - أتبعه - وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم [٢]

ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضم

---

(١) نقلاً عن الخطابة وإعداد الخطيب

(٢) الحطم : الذي لا يبقى من السير شيئًا، والأكول الذي يقضي على الطعام، والوضم: الخشبة التي يقطع =

. . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان[١]، ولا يغمز جانبي كتغماز التين ـ لا أحتمل الاختيار ـ ولقد فررت[٢] عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وأجريت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم ـ أسرعتم ـ في الفتنة، وأضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٣]، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

إني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت[٤]، فإياي وهذه الجماعات، وقال وقيل، وما تقولون وفيم أنتم وذاك؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين.

قال المبرد : فقرأ : «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم فلم يقل أحد منهم شيئًا، فقال الحجاج: أكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: سلم عليكم أمير المؤمنين، فلم تردوا عليه شيئًا : هذا أدب ابن نهية؟ (وهو رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج) أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أو لتستقيمن قناتكم، اقرأ يا غلام من كتاب أمير المؤمنين. فلما بلغ إلى قوله (سلام عليكم) لم يبق في المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام.

= عليها اللحم. .

(١) الشنان : جمع شن جلد القربة كانوا يحركونه فيحدث قعقعة تنفر منها الإبل فتجري.

(٢) فر الرجل الفرس نظر في أسنانه ليعرف سنه

(٣) السلمة : شجر ذو شوك يحزمه الراعي بحبل ثم يضربه الراعي بالعصا فيقع ورقه لتأكل الماشية، وغرائب الإبل أي التي تدخل بين إبل أخرى، فيضربها صاحبها حتى لا تزاحمها على الماء.

(٤) يريد أنه لا يرجع عن شيء هم به ـ راجع الخطابة وإعداد الخطيب ص ٢٣٩ وما بعدها هامش .

وأسرع الناس حتى كان الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه[١] بزاده.

بلاغة الحجاج: كان الحجاج آية في البلاغة والفصاحة، كان يخطب فيطيل فلا يتلعثم، ولا يتلجلج، ولا يخطيء، وعد الأصمعي أربعة - لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفي، وابن القرية والحجاج **أفصحهم**، وقال مالك بن دينار: ما رأيت أحدًا أبين من الحجاج إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم، وإساءتهم إليه حتى إني لأحسبه صادقًا، وأظنهم كاذبين[٢].

والقارئ لخطب الحجاج يلحظ ما يلي:

(أ) ذكاؤه، وقدرته على تصوير الأسباب التي تؤيد رأيه وتدحض آراء معارضيه.

(ب) جرأته وشجاعته النادرة على مواجهة الصعاب.

(جـ) تكوينه الأدبي.

(د) قد حوت هذه الخطبة ضرب الأمثال والأشعار والعبارات المجازية.

(هـ) كان إذا صعد المنبر بدأ كلامه متأنيًا هادئًا حتى ما يكاد يسمع حتى يرفع صوته شيئًا فشيئًا ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى من في المسجد[٣].

خطبة أخرى للحجاج

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي حين قدم البصرة يتهدد العراقيين فقال:

أيها الناس: من أعياه[٤] داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال عمره قصرت عليه باقيه، إن للشيطان طيفًا[٥] وللسلطان سيف، فمن سقمت[٦] سريرته صحت عقوبته. ومن وضعه

---

(١) نقلاً عن الخطابة وإعداد الخطيب ص ٢٣٧ وما بعدها.

(٢) نقلاً عن المرجع نفسه.

(٣) انظر المرجع السابق.

(٤) اللغة: أعياه: أتعبه.

(٥) طيفًا: وسوسة.

(٦) سقمت سريرته: فسدت نفسه.

ذنبه رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية لم تضق عليه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه[١]
سبق بدنه بسفك دمه، إني أنذر ثم لا أنظر[٢].

وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو.

إنما أفسدكم ترنيق[٣] ولاتكم، ومن استرخى لببه[٤] ساء أدبه إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه[٥] في يدي ونجاده[٦] في عنقي وذبابه[٧] قلادة لمن عصاني، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.

---

(١) بادرة فمه : كلمة تسبق من فمه.
(٢) لا أنظر : لا أمهل.
(٣) ترنيق : ضعف.
(٤) استرخى لببه : عاش في سعة وسرور.
(٥) قائمه : مقبضه.
(٦) نجاده : حمالته.
(٧) ذبابه : حده. راجع صور من الأدب والأدباء في شبه العصور ص ٤٧.

خطبة عمر بن عبد العزيز ﷺ

خطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال: أيها الناس، لا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، ولا يستعتب من شيء ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرىء في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله، قد فنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وأفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره. ثم قال: إن الحبيب إليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله.

الخطابة في العصر العباسي:

حظيت الخطابة في صدر العصر العباسي الأول بما حظيت به في عهد بني أمية، وكان لها منزلة مرموقة، وبلغت غاية دونها ذؤابة الثريا، ومناط العيون.

فأخذت دورا بارزا على أيدي أبي مسلم الخلال وأبي مسلم الخراساني.. الخ وفي هذا العصر ظهرت أنواع من الخطابة كالمناظرات، والمحاورات والوصايا، ونشط القصص ووعظ النساك، ووعظ الأعراب، وهذا النوع لم يكن رائجا من قبل.. ويرجع هذا كله إلى اتساع رقعة الإسلام، وانتشاره الذي أحدث دويا هائلا في مجال السياسة والدين والاجتماع والفكر في العرب (بل في العالم) كله لم ير التاريخ له نظيرا، ومن ثم فلابد أن تكون قد صحبته حركة بيانية خطابية، لم تعرف في أمة من قبل [1].

فإنه بمجرد أن صدع النبي ﷺ بالحق ودوى صوته الرهيب الكريم في بلاد العرب.. تجرد المقاويل من العرب للرد عليه، أو الدعوة إليه، وكان ﷺ، صاحب البيان النبوي الشريف يجادل ويناضل، ويدافع ويصاول، فقد أعطى لسانا أيد بروح القدس، وإذا عرفت أن الحجة التي كان يدلى بها برهانا على رسالته، وحجة لدعوته من نوع الكلام، وكان من رب العالمين،

وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان،

علمت أن مقدارا من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة الإسلامية على

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٧٤، ١٧٥ بتصرف واختصار.

لسان محمد ﷺ [١].

ولم يكد ينصرم العصر العباسي حتى أفل نجم الخطابة وكسدت سوقها فإن الدولة، وقد توطدت أركانها لم تعد في مسيس الحاجة إلى الخطباء [٢].

نموذج من الخطب في العصر العباسي:

خطب المأمون خطبة في يوم جمعة فقال:

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه، ومستوجبه على خلقه، وأحمده، وأستعينه وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله، والعمل لما عنده والتنجز لوعده والخوف لوعيده فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار، فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبا يحدوه الجديدان ـ الليل والنهار ـ لجدير بسرعة الأوبة، وإن قادما يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وقدم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى تهجم عليه منيته، أغفل ما يكون عنها فيالها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه منيته، إلى شقوة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غفلة، ولا تحل به بعد الموت فزعة إنه سميع الدعاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) صور من الأدب والأدباء في شتى العصور ص ٥٩ .

خطبة أخرى للمأمون في عيد الفطر:

قال: ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله أوّل أيام شهر الحج وجعله معقبا لمفروض صيامكم، ومنتقل قيامكم، أحل الله لكم فيه الطعام، وحرم عليكم فيه الصيام، فاطلبوا إلى الله حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم فإنه يقال: لا كثير مع ندم واستغفار ولا قليل مع تماد واصرار.

اتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحضر الشك فيه أحدا منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنه لا تستقال بعد عثرة، ولا تحظر قبله توبة، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه ولا يعين على جزعه وعلزه - ما يصيب المحتضر من حشرجة الموت - وكربه وعلى القبر وظلمته، وضيقه ووحشته، وهول مطلعه، ومساءلة ملكيه، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته، وفاتته استقالته، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفدية ما لا يقبل منه فالله الله عباد الله، كونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم، فاحذروا ما حذركم الله، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به، وما يملى في صحيفته الحافظة لما عليه وله..

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهيتكم به الدنيا عن نفسها، فإن كل ما بها يحذر منها، وينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم كتاب الله لها، ونهيه عنها، فإنه يقول تبارك وتعالى ﴿ **فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ (١).

وقال: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ** ﴾ (٢).

فانتفعوا بمعرفتكم بها.. واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله

---

(١) سورة لقمان: آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الحديد: آية رقم ٢٠ .

فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيها، وأدركوا الجنة بما يتركون منها.

خطبة ثالثة له في عيد الأضحى:

قال: إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله وفدى فيه بالذبح العظيم نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من النفر يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام، يوم الحج الأكبر يوم دعا الله فيه إلى مشهده، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ (١). فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله، واجعلوا من طيب أموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (٢).

الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

مما سبق تجد ثلاث خطب للمأمون، وهذا يدل على أن المأمون من ذوي الثقافة والمقدرة الخطابية، ولكننا نجد الخطب الثلاث تدور حول التذكير بالآخرة والتخويف من الموت، لا يميز خطبة الجمعة من خطبة العيد إلا ما أشار به من نوع العيد، وأنه خاتم صوم، أو يوم أضحية، ثم يعود إلى التذكير بالآخرة والحساب (٣).

---

(١) سورة الحج: آية رقم ٢٧.
(٢) سورة الحج: آية رقم ٣٧.
(٣) الخطابة وإعداد الخطيب ص ٣٤٨ وما بعدها.

خاتمة

أسأل الله حسن الخاتمة

. . أيها المسلم خطيب المستقبل . . أيها الداعية . . إن مهمتك شاقة، ومن كانت هذه مهمته استعد لها، وأهم سلاح لديك هو لسانك الذي به تصيب كبد الموضوع . . الناس اليوم في حاجة إلى من يردهم إلى قواعد الدين الحنيف في أدب جم وإخلاص . أنت أشد فاعلية من أي مسئول في الدولة فأنت تقتلع جذور الشر من نفس المذنب، أو العاصي، وتبعث فيه الأمل الذي به يحب الحق والعدل ومعاونة الناس، ومن حكمة الله أن الناس لا يخافونك، ولكنهم يحترمونك ويحبونك إن مبدأ عملك هو اصلاح الضمائر وإيقاظ العواطف النبيلة في نفوس مستمعيك، فعملك هو نفخ الروح في الأجساد، وبث روح الخير في القلوب، إن الذي يجب أن تعرفه أن رسالتك هي رسالة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة وأزكى التسليم، وهم جميعا صبروا على أداء رسالتهم مع أممهم، هم قدوتك وأئمتك ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (١) عليك إذن تحصيل العلم وتدبره وعليك أن تسمو بنفسك، واعلم أن أعدى أعدائك الجهل، وأعز صديق، وخير رفيق لك هو العلم.

أخي الخطيب لاحظ أن تبتعد عن العبارات المكرورة والموضوعات المعادة حتى لا يمل الناس.

أنت تعلم ان حياة الناس تحوي الكثير من المشاكل والعديد من المطالب فحاول أن تطفىء ثورة الغريزة وتخفف حدة الاحقاد واشاعة روح المودة والاخلاص.

لاحظ أن جهدك في هذا الميدان يكسبك شرفا، لأنك تحاول بناء الضمائر المتداعية لتوقظها إلى الرفعة والسمو، فتبنى بذلك أمتك ومواطنيك، فاجعل عملك في هذا خالصا لله وحده ترجو مثوبته ومرضاته فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

في هذا الكتاب (الخطابة: نشأتها وميادينها) العديد من الموضوعات التي تتصل بالخطابة اتصالا مباشرا فتعرف عليها وليكن بينك وبينها إلف ومودة.

---

(١) الأنعام: ٩٠ .

هذا الكتاب صاحب يحسن بك قراءته فـإنه سيرشدك إلى المراجع التي نقل عنها وما أنشده هو أن أوقظ فـي نفسك حب القراءة والمزيد من الاطلاع عمـلا بهذه الحكمة العربية «الجهل لعنة الله أما العلم فهو الأجنحة التي تسمو بها إليه» [١].

إن صلاح الضمائر مرهون بالتـمسك بالقرآن الذي به تنصلح النفوس والقلوب، وفي تاريخ الإسـلام خـيـر دليل على هـذا القـول، فـعليك أن تحـرص على القـراءة والاستيعاب حرصك على الماديات أو أشد. والآن أتركك في رعاية الله وأمنه.

داعيا المولى جل جلاله أن ينفـعك وينفع بك، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد خير من بلغ الرسالة وأدى الأمانة وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى مرضاة ربه

محمود بن محمد رسلان

---

(١) انظر الخطابة وإعداد الخطيب ص ٣٩٥ .

ثبت المراجع

القرآن الكريم

الكتاب	المؤلف
الإتقان في علوم القرآن	للإمام البيوطي
إحياء علوم الدين	للإمام الغزالي
الأدب والأدباء في شتى العصور	للأستاذ سليمان الأغاني
أسباب النزول.	الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي
أصول الدعوة.	الدكتور / عبد الكريم زيدان
البداية والنهاية.	الحافظ ابن كثير
بلوغ الأرب.	للعلامة السيد محمود الألوسي
تاريخ الجدل.	الشيخ محمد أبو زهرة
تفسير ابن كثير.	الحافظ ابن كثير
تفسير المنار.	للشيخين محمد عبده، ورشيد رضا
تذكرة الدعاة	للشيخ البهي الخولي
الترغيب والترهيب.	للإمام المنذري
الحجاج حياته وخطابته.	للأستاذ علي صافي حسين
حياة الصحابة.	للأستاذ محمد يوسف الكاندهلوي
الخطابة	للشيخ محمد أبي زهرة
الخطابة وإعداد الخطيب.	للدكتور عبد الجليل شلبي
الدعوة إلى الإسلام	للشيخ محد أبي زهرة من بحوث المؤتمر السابع ١٣٩٢هـ
رياض الصالحين.	الإمام النووي تحقيق عبد العزيز رباح وآخر
سنن سعيد بن منصور.	تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤٠٥ هـ الحلبي.

سيرة النبي ﷺ . لابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد

العقد الفريد. لابن عبد ربه

عيون الأخبار. لابن قتيبة.

فجر الدعوة الإسلامية الدكتور / محمود محمد رسلان.

فن الخطابة . الشيخ علي محفوظ.

قصص الأنبياء. الحافظ بن كثير.

قصص الأنبياء. الشيخ عبد الوهاب النجار.

قواعد الخطابة. الدكتور / أحمد غلوش.

المختصر الوجيز في علوم الحديث. الدكتور / محمد عجاج الخطيب.

مع الله : دراسات في الدعوة والدعاة . الشيخ : محمد الغزالي .

المعجم المفهوس لألفاظ القرآن الكريم. للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية.

منتهى آمال الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء الشيخ مصطفى أبو سيف الحمامي.

النبأ العظيم الدكتور/ محمد عبد الله دراز.

النشرة الدينية . للهيئة العامة للأوقاف الكتب الفني ـ ليبيا ـ جمادي الآخرة ١٣٩٣هـ

المواريث في الشريعة الإسلامية. لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

كتب للمؤلف

١ - المسيحية الأولى وتطورها - رسالة ماجستير (مخطوط)

٢ - الدعـــوة الإسلاميـــة في مصر منذ الفـتح حتى آخر عهد عمـــر بن عبد العزيز ﷺ

٣ - فجر الدعوة الإسلامية في مرحلتها المكية

٤ - الفرق في الميزان

٥ - فجر الدعوة الإسلامية في مرحلتها المدنية (مخطوط)

٦ - رسالة الحج والعمرة.

٧ - قبسات من الثقافة الإسلامية إلى أوروبا.

٨ - معابر الثقافة الإسلامية إلى أوربا

٩ - الدعاة الأول في أرض الكنانة

١٠ - الغزو الفكري - عقبات وتحديات في طريق الدعوة

١١ - التبشير والاستشراق

دار اللـواء للطباعة